الجنرال ج . ف . س . فولر

تأثير التسلّح في تاريخ الحضارات

منذ حروب الماديّين إلى الحرب العالميّة الثانية

دار المكشوف

الجنرال ج. ف. س. فولر

تأثير التسلّح في تاريخ الحضارات

منذ حروب الماديّين إلى الحرب العالميّة الثانية

نقله الى العربية

لويس الحاج

دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت – لبنان ، كانون الثاني ١٩٥٨

من هو الجنرال فولر ؟

صدرت، اخيراً ، في باريس ، ترجمة فرنسية لكتاب « تأثير التسلح في التاريخ » لمؤلفه الماجور جنرال ج. ف. س. فولر ، معاون رئيس اركان حرب الامبراطورية البريطانية سابقاً ، وألمع الكتّاب العسكريين في بريطانيا العظمى. وقد قدّم الترجمة القائد الفرنسي الجنرال شاسان ، فوصف المؤلِف بانه من ابرز الكتّاب الذين توفروا على معالجة فن الحرب؛ وردد مع الكاتب الانكليزي ج. ر. ليستر ان الجنرال فولر سيحتل مكانه اللائق بين عظماء القادة في القرن العشرين ، لانه احد المفكرين العسكرين القلائل الذين اتيح لهم ان يطبّقوا نظرياتهم في ميدان المعركة .

فمن هو فولر ؟

ابصر فولر النور في ايلول ١٨٧٨ . ودخل مدرسة ساندهورست العسكرية العام ١٨٩٦ حيث استرعى الانظار بذكائه الحاد ، وبرفضه التقيّد بالنظريات والقواعد العسكرية التقليدية . وبعد تخرّجه التحق بسلاح المشاة ، وخدم في انكلترا

وارلندا ، ثم اسهم في حرب البوير حيث مارس فن القتال ممارسة فعلية . وبعد اقامة قصيرة في الهند ، عاد الى بلاده ، ودخل المدرسة الحربية في كامبرلي . وفي هذه المدرسة شرع يعالج المواضيع العسكرية ، متنبئاً بتطورات حصلت كلها .

ففي ذلك الحين كان الرشاش قد ظهر حديثاً ، فكتب بصدد استعماله يقول : ان تنظيم وحدات المشاة المعدة للهجوم الحاسم يجب ان يتم على اساس هذا السلاح الجديد . وتنبأ بقدرة مدفع الميدان على فتح ثغرات في جهاز العدو تغني المهاجمين عن عمليات التطويق ؛ وجاءت حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ ، فاثبتت نظريته ، واتاحت له ان يساهم مساهمة فعّالة في تطوير الاسلحة ، واعتماد التكتية الملائمة لاستعمال كل سلاح .

وعندما قرر الجيش الانكليزي استعمال الدبابة ، عهدت قيادته الى الزعيم فولر ورفاق له بمهمة تحديد وجوه استعمالها . وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧ وضع فولر ، بصفة كونه رئيس مكتب العمليات لدى قيادة فيلق الدبابات ، خطة الهجوم في قطاع كامبري حيث فتحت ٣٥٠ دبابة انكليزية ثغرة في الجبهة الالمانية ؛ ولكن الهجوم لم ينجح ، لان الالمان استطاعوا سدّ الثغرة في الوقت المناسب . بيد ان المحاولة كانت كافية لقلب نظريات الحرب البرية رأساً على عقب .

وعندما قرر فوش جعل هجومه في ربيع ١٩١٩ هجوماً حاسماً تبنّى خطة ثورية من وضع الزعيم فولر ، خطة تهدف الى شلّ

الجيش الالماني بالقضاء على مراكزه الحساسة : فتبدأ الهجوم موجة من الدبابات الثقيلة دون تمهيدٍ ما تقوم به المدفعية ، حتى اذا فتحت الموجة الثغرة المطلوبة ، انطلقت الدبابات المتوسطة تدعمها نيران المدفعية المنصبّة على مؤخرات العدو ، ثم يأتي دور الدبابات والمشاة في توسيع الثغرات وتجزئة قوى العدو .

على ان ظروفاً قاهرة حالت ، يومئذٍ ، دون تطبيق خطة فولر . وبعد عشرين سنة تبنت هيئة اركان الحرب الالمانية آراء فولر بحذافيرها . اما الانكليز والفرنسيون فقد اهملوها ، ولم ينتبهوا الى اهميتها الا بعد فوات الاوان ، مع ان الانكليز احلّوا القائد المجدد في وظائف رفيعة بعد الحرب العالمية الاولى ، فشغل منصب مدير التعليم في مدرسة كامبرلي الحربية ، ثم عين معاوناً لرئيس اركان حرب الامبراطورية . وبعد اعتزاله الخدمة العام ١٩٣٣ اختار القلم سلاحاً والكتابة حرفة ، فكان على التوالي مراسلاً عسكرياً لجريدة « الدايلي مايل » في الحبشة واسبانيا ، ومعقباً عسكرياً في امهات الصحف والمجلات البريطانية والاميركية ؛ وفي الحرب العالمية الثانية نشرت له الصحف مئات التعليقات ضمّنها آراء قيّمة وتنبؤات صدق معظمها .

وقد رأت **دار المكشوف** ترجمة كتاب الجنرال فولر ونشره ليتسنى لجيش لبنان وجيوش سائر الاقطار العربية الاطلاع على نظريات قائد معاصر ساهم في تطوير الفن الحربي الى حد بعيد .

الفصل الاول

التسلح والتاريخ

قال «غلاوزويتز» في تعريف الحرب: «الحرب بمفهومها الاصيل هي القتال . فاضطرار البشر الى القتال قد ارشدهم الى اختراعات تضمن لهم الغلبة وربح المعركة . ومن هنا كان هـذا التنوع في اساليب القتال . اما المبدأ نفسه فقد ظل هو اياه ، وظل القتـال العنصر الاساسي في الحرب : هو يبتّ بكل ما له علاقة بالسلاح والعتاد، وهذان يكيّفان اسلوب القتال. فالتأثير، والحالة هذه، متبادل بينهما » .

فتقنية الحرب يمكن ان توجز بانهـــا ادوات من جهة ، واستعمال هذه الادوات من جهة اخرى . وتلك تشتمل على الاسلحة وإعدادها ، وهذا يشتمل على العمليـات والسياسة . ويقول « كينسي رايت » في تعريف تقنية الحرب أنهـا : « فن إعداد الادوات العسكرية لضمان الغلبة ، باقل الخسائر الممكنة ، على جميع الذين يمكن ان يناصبونا العداء ، واستعمال الادوات العسكرية المتوافرة استعمالاً مجدياً حالمـــا يبرز احد هؤلاء الاعداء » . ويضيف كينسي رايت فيقول : « التقنية هي ، من

حيث الإعداد ، مسألة تتعلق بنماذج الاسلحة والعتاد والتنظيم ؛ وهي ، من حيث الاستعمال ، مسألة تعبئة ، واستراتيجيا ، وتكتية » .

ومع ان لفظة تسلح ، بمدلولها الواسع ، تشمل جميع آلات الحرب وادواتها : قوى البر والبحر والجو في بلاد ما ، فقد رأيتُ ان اكتفي بمدلولها الضيّق ، متوقفاً عند الاسلحة والوسائل التي تستخدم في خوض المعارك وشن الحروب . يقول كينسي رايت : « الاداة العسكرية هي كيان اجتماعي او مادي تستخدمه حكومة ما في القضاء على حكومة اخرى او السيطرة عليها بالتهديد او بالعنف ، كما تستخدمه في دفع خطر إبادتها او السيطرة عليها » . وكتب الاميرال برادلي أ. نيسك يقول : « تصير الاداة سلاحاً اذا استخدمها الانسان في الدفاع او في الهجوم . فالسلاح هو آلة تستخدم في الحرب » . اما انا فأفضل تعريفاً اكثر دقة ، فأقول ان السلاح هو : « اداة ذات قوة مبيدة او متلفة » . وعلى هذا لا يكون الزَرَد سلاحاً ولا الطاسة ، فكلاهما وسيلة من وسائل الوقاية . وليست القطع البحرية والدبابات والطائرات اسلحة : انها سفن وعربات مهمتها نقل الاسلحة .

ولتتبع تطور التسلح بسهولة ينبغي لنا ان نبدأ بالبداية ، اي بالصراع بين بشريين اسلحتهما الوحيدة الايدي والارجل والاسنان . فالضرب ، وتفادي الضربات ، والمقاومة ، والحركة

هي في هذا الصراع عناصر التكتية، يضاف اليها العناصر المعنوية: الارادة، والصلابة، والرعب؛ ثم العنصر الاقتصادي (التموين) عندما يشرع المتصارعان في التراشق بالحجارة: يهتمان اولاً بجمع الحجارة (الذخيرة في ايامنا)، ثم بجمع الانصار، واخيراً بتأمين المواد الغذائية.

نستطيع ان نعزو الى هذه العناصر طاقة هجومية فعلية. فبالامكان القضاء على معنويات العدو بالصخب، والصراخ، والاستغاثة، والدعاء، والفظاظة المقصودة؛ وبالامكان كذلك تجويع العدو بالنهب، والتخريب، والحصار. ومن المفيد ان نذكر بهذا الصدد ان الحرم في القرن الحادي عشر كان سلاحاً معنوياً امضى من الاسلحة العادية، وان الحصار الحليف في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ادى اكثر من اي سلاح آخر الى انهيار المانيا وحلفائها.

من الناحية التكتية يبدو لنا الانسان غير المسلح في وضع لا يُحسد عليه بالنسبة الى وضع الحيوانات المفترسة وحتى الحيوانات التي تقتات بالاعشاب، اذ ليس له قوة الثور، ولا جلد وحيد القرن، ولا نواجذ النمر وبراثنه. وبالرغم من هذا التفاوت رأيناه يتغلب على هذه الحيوانات لانه اذكى منها. ومنذ ان بدأ الانسان يستعمل الاسلحة، كفلت له حيلته الانتصار على اشد الحيوانات فتكاً وشراسة، وترك وشأنها الحيوانات الأوفر قدرة على التناسل كالفئران والارانب والبعوض والذباب،

الخ ... الى ان اكتشف انها اشد خطراً من سائر الحيوانات ، فقام يحاربها بالعلم . فالاختراع هو سلاح ، واوفر الاسلحة حظاً بالبقاء .

وسواء صدقنا التوراة او نظرية داروين في اصل الانسان ، فالثابت ان الانسان الاول -- سواء أكان آدم في فردوسه الارضي ام الانسان القرد في الادغال -- كان اعزل ، وان ذكاءه ، هذا السلاح الاقوى ، قد انقذه من الهلاك . والثابت ان ضعف الانسان الاول تكتياً عزز فيه القدرة على المراوغة واعتماد الحيلة حتى توصل الى الانتقال من وضع الطريدة الدفاعي الى وضع الصياد الهجومي . ألم يقل كارليل : « ليست الحيوانات شيئاً ، فالروحانية الخلاَّقة هي كل شيء » ? وعندي ان برغسن لم يعدُ الحقيقة عندما قال ان الانسان ، الانسان الحقيقي ، « ظهر في العصر الذي صنعت فيه الاسلحة الاولى ، اي الآلات الاولى » .

وكارليل من هذا الرأي اذ يقول بلسان استاذه الخيالي « سارتور ريزارتوس » : « الانسان حيوان يستخدم الآلات والادوات ؛ انه اضعف الحيوانات ذات الارجل . فثلاثة قناطير هي بالنسبة اليه عبء ساحق ، في حين يقذف بها ثور فتي في الهواء كما لو كانت خرقة . ولكن الانسان ، مع هذا ، يستطيع استخدام الآلات وصنعها . وبفضل الآلات تستحيل الجبال الصخرية غباراً خفيفاً ، وبفضلها يلين الحديد الاحمر بين

يديه فيصبح كالعجين . ان البحار ، بالنسبة اليه ، طرقٌ كبيرة متحدة ، والريح والنار هما جواداه اللذان لا يكلاّن . فهو حيثما وجد تكون آلاته معه . فبدونها ليس الانسان شيئاً ، وبها هو كل شيء » .

فماذا كانت آلة الانسان الاولى ، سلاحه الاول ؟ لا شك في ان الصناعة الحربية في البدء كانت واحدة . ويعتقد كثير من الباحثين مع « لويس ممفورد » : « ان الآلة الاولى كانت حجراً استخدمته اليد البشرية كمطرقة او كمدقة » . ولكن هناك افتراضاً آخر : فمن الممكن ان يكون اكتشاف النار قد سبق صنع الحجر المطرقة . ذلك بانه اذا حككنا حجراً من نوع معين بحجر مماثل انبعثت من هذه الحركة شرارة او شرارات .

يقول الدكتور نيقولاي : « النار هي التي جعلت من الانسان سيد العالم لا الحيوانات الاليفة ، فعندما استطاع البشر للمرة الاولى استعمال الطاقة الشمسية المتجمعة في النباتات واشعال النار ، توافرت لهم امكانات جديدة ليصيروا اقوياء ؛ وشجعتهم هذه النتيجة على السعي الى تحويل الطاقة المذكورة تحويلاً ترتب عليه انقلاب شامل . ويمكن القول ان البشر اخضعوا الطبيعة منذ اللحظة التي اشعلوا فيها النار الاولى » . وفي هذا يقول لويس ممفورد : « لا شك في ان بروميته Promethée (إله النار) قد وضع في متناول البشر اداة الفتح عندما منحهم النار . ذلك بان النار لم تمكن الانسان من طهي طعامه وحسب ،

فلهيبها كان ينفر الحيوانات المفترسة، ووهجها يسهل تنظيم الحياة الاجتماعية النشيطة حوله في الفصول الباردة بعد ما كان الانسان ينطوي على نفسه في خَدَر السبات الشتوي » .

وهناك افتراض ثالث : فقد قضى انسان الغاب آلاف السنين في مراقبة الحيوانات ذوات الاوجار ؛ ونصب الكمين لها ، محاولاً قنصها وهي خارجة من مخبئها او داخلة اليه ؛ ويبدو ان افضل فرصة لقنصها او قتلها كانت عند خروجها من اوجارها ، مما حمل الانسان على فتح اوجارها وإحداث حفر معدة لقنص الحيوانات؛ وقد استخدم في هذا الغرض يديه، او صدف البحر او الحجارة ، او العظام ، او الخشب .

نحن ، إذاً ، حيال ثلاثة ممكنات في سعينا الى معرفة الآلة الاولى : المطرقة ، النار ، المنكاش (المحفر) . فايها استعمله الانسان اولاً ؟ لسنا ندري ، ولكن الثابت الاكيد هو ان الانسان عمل ، منذ البدء ، ببطء ومثابرة ، على تحسين طريقته في الضرب ، والحرق ، ونصب الشراك .

وبعد ظهور الآلات والاسلحة ، تحتم على كل قبيلة ، او جماعة بشرية ، ان تتسلح ، وإلا كانت عرضة للابادة . وقد استمر التسلح مذ ذاك شرطاً للبقاء . وكان لهذا الشرط اثره العميق في مجرى التاريخ ، ناهيك بان توافر الاسلحة لدى القبائل مكنها من فرض الشرائع وحفظ النظام . يقول مكيافيلي في كتابه « الأمير » : « لا يمكن ان تكون شرائع حسنة حيث

لا اسلحة جيّدة ؛ وحيثما توجد اسلحة جيّـــدة يجب ان تسود شرائع حسنة » .

فرجال الامن استمدوا سلطتهم من الاسلحة ؛ ولم يكن بالامكان حمل حارس القانون على التقيد به والحفاظ عليه اذا ساد في ذهنه ان هذا القانون غير صالح . ويمكن القول ان البشر يسيرون قدمـــاً في طريق الحضارة بقوة السلاح اكثر منهم بمساعدة الزراعة او بدافع منها .

ومن المحتمل ان تكون ادوات الزراعة واسلحة الحرب قد ظلت متشابهة طوال عصور متتابعة . ويبدو ان هذه الظـاهرة لم تكن وقفاً على العصور التي كانت فيهـا الأرض تُستغل بطرق بدائيـــة . فقد ورد في سفر صموئيل الاول قوله : « في ذلك الزمان لم يكن في ارض اسرائيل كلها حدّاد واحـــد ، لأن الفلسطينيين كانوا يقولون : « يجب الاّ يصنع العبرانيون سيوفاً وحراباً » ، ولكن الاسرائيليين كافـــةً كانوا يمضون الى الفلسطينيين ، واستطاع كل واحد منهم ان يشحذ سكة فدانه ، وسكينه ، وفأسه ، ومعوله » .

وهكذا كان جنود شاوول ويوناثان يستحصلون عـــلى الاسلحة .

وثمة شواهد اخرى نجد بعضها في عصرنا هذا . فعندما تملّك الخوف انكلترا العام ١٩٤٠ من احتمال غزو الالمـــان للجزر البريطانية ، راح العمال الزراعيون يتسلحون بالمـــذراة والفأس

والمنجل ليقاتلوا بها المظليين الالمـــان لدى هبوطهم على ارض الوطن .

وفي القرن السابع عشر (١٦٤٧) قامت في ماتسانيالو ثورة على حكومة نابولي ، وقد ورد عنها الوصف الآتي : « تقـدم الجنود سيوفهم مشرعة ، وقد حملوا بنادقهم وغداراتهم ، وكانوا في الوقت نفسه مسلحين بالرماح والازراد . أما الفلاحون فقـد اندفعوا نحو المدينة جماعات ، سلاحهم سكك فدادينهم ، ومذاريهم ، ومعاولهم ، وحرابهم ، وادوات اخرى . ولم تكن النساء أقل اندفاعاً منهم ، فقد تجمعنّ مسلحاتٍ بالمجارف ، واشياش المطابخ ، وادوات مـــنزلية اخرى . وشوهد الاولاد يحملون العصي والقضبان يهزّونها في وجوه النبلاء ، ويحرضون والديهم عــلى القتال » .

يتضح مما تقدم ان الأسلحة التي تصلح للقتـــال اكثر من ان تحصر . فكل ما يمكن اشراعه او قذفه يمكن استخـــدامه في القتال . وبوسعنا تصنيف الأسلحة في مجموعتين رئيستين : الاولى تشتمل على الأسلحة التي يضرب بهـا الخصم مباشرة ، والاخرى على المقذوفـــات والآلات التي تقذفها . وتستخدم المجموعة الاولى في القتال صدراً لصدر ؛ اما المقذوفـــات فتستخدم في الاقتتال من بعيد . واشهر اسلحة المجموعة الاولى : الدبوس ، والنبوت ، والنصلان ، والرمح ، والسيف ، والفأس ، والحربة ؛ اما أشهر اسلحة المجموعة الثانية : فالحصى ، والمزراق ، والسهام ،

والنشاب ، والرصاصة ، والقذيف ، والقنبلة . ويمكن ان نسمي بعض هذه الأسلحة اسلحة فردية لأن طاقتها المبيدة تتوقف على قدرة الانسان ، في حين تستمد الأسلحة الاخرى قوة اندفاعها من الطاقة الآلية والكيماوية . وثمة اسلحة لا تدخل في احدى المجموعتين كالوهق (اللاسو) ، والظبطانة Sarbacane .

وهناك مجموعتان ثانويتان ، تشتمل الاولى على النار ، والغازات الخانقة ، والسموم ؛ والاخرى على شراك ، وفخاخ ، وشباك ، والغام . ويمكن تسمية تلك « اسلحة كيماوية » ، وهذه « اسلحة استراتيجية » .

ويستطاع تصنيف هاتين المجموعتين تبعاً لميزاتها وعيوبها على النحو الآتي :

أ ـ المدى ؛

ب ـ القوة المدمرة ؛

ج ـ الإحكام ؛

د ـ حجم النار ؛

ه ـ سهولة الاستعمال [1] .

[1] اللورد باكون هو ، على ما اذكر ، اول من نظر الى قوة السلاح نظرة عملية ، ففي كتابه : Of Vicissitude of Things ، نجد ما يأتي في باب خصائص الاسلحة وسبب استعمالها :

« يجب ان يكون السلاح بعيد المدى ليظل الذين يستعملونه غير معرضين مباشرة للخطر ، كما هي الحال مع المدفع والبندقية ؛ كما يجب ان يكون ذا=

أ ـ المدى : بقدر ما يكون المدى بعيداً يكون بالامكان تدخل القوة المبيدة او المدمرة بالسرعة المطلوبة .

ب ـ القوة المدمرة: بقدر ما تكون هذه القوة عظيمة يكون تدخلها فعّالاً .

ج ـ الإحكام : تزداد امكانية اصابة الهدف تبعاً لزيادة الإحكام .

د ـ حجم النار : كلما ازدادت كثافة النيران ، خلال فترة ما ، تكون النتائج الحاصلة عظيمة .

هـ ـ سهولة الاستعمال : السلاح الذي يمكن استعماله بسرعة ويسر هو ما امكن نقله وتحريكه وجرّه بسهولة .

ولما كانت اولى هذه الميزات : المدى ، اهمها جميعاً ، فانها تتحكم بالمعركة ، وتحدد ادوار سائر الاسلحة ؛ وهذا يعني ان السلاح الأبعد مدى والأقدر على توسيع دائرة نشاطه يجب ان يكون اساس الخطط التكتية . فاذا وجدت حضيرة مقاتلين اسلحتها الاقواس والرماح والسيوف، فالتكتية يجب ان ترتكز على مدى السلاح الاول ؛ واذا كانت اسلحتها مدافع وبنادق وحراباً ، فالتكتية ترتكز على المدافع ؛ واذا كانت اسلحتها طائرات ومدافع وبنادق ، كانت الطائرات اساس التكتية .

= فاعلية اكيدة وسهل الاستعمال بحيث يمكن نقله وتحريكه والاستعانة به في كل زمان ومكان » .

والسلاح الرئيس ليس حتماً السلاح الاقوى ، والاكثر إحكاماً وعطاء ومرونة ، بل هو الابعد مدى ، السابق الى التدخل ، القادر على تغطية سائر الاسلحة، فيتاح لكلٍ منها ان يعمل في دائرة اختصاصه وامكاناته . وبديهي ان سيطرة السلاح الرئيس على المعركة تظل رهناً بدقة إحكامه ، وكثافة نيرانه ، وسهولة استعماله ، وقوته المدمرة . وفي ايامنا تعد قنبلة الطائرة السلاحَ السائد او الرئيس، لانها ابعد الاسلحة مدى ، واشدها فتكاً ، وايسرها نقلاً .

ولكن يقابل هذه الميزات عيوب ونواقص نذكر منها : افتقار الطائرة ، التي تقذف القنبلة ، الى دقة الإحكام ، وضعف حجم نيرانها ، ناهيك بأن الطائرة تنقل عدداً محدوداً من القنابل ، وتضطر بعد القاء حملها للعود الى قاعدتها كي تنقل حملاً جديداً . فاذا سدت هذه النواقص ، تصبح قنبلة الطائرة السلاح الرئيس غير مدافع . وقد ظهرت ، على مرّ التاريخ ، اسلحة توافرت فيها المزايا الخمس التي عددنا ، او معظمها ، كالنار الاغريقية ، والمدافع ، والدارعة ، والبندقية .

ويجب ان تكون هذه المزايا حاضرة في الذهن عند استعمال الاسلحة تكتياً ، او استعمالاً مشتركاً ، لان هذا الاستعمال يثير مسائل : الوقاية ، والمقاومة ، والحركة .

وقد واجه الانسان مسألة حمايته قبل اختراع الاسلحة بزمن طويل ، لانه اقل الحيوانات مناعة في هذا الباب ، اذ لا جلد له

ولا صوف ؛ وقد كان الطريدة احقـــاباً من السنين بدل ان يكون الصيَّاد. ولا ريب في ان وسائل الحماية التي لجأ اليها باديء ذي بدء كانت الاختباء ، والسعي ليلًا لتـأمين قوته ، واللجوء الى المغـاور ، وتقليد اصوات الحيوانات المفترسة ، واستخـدام الصراخ سلاحاً معنوياً ، والتدثر بجلود الحيوانات. ولمـــا وجد نفسه مضطراً للتيقظ باستمرار ، دائمَ التأهب للقتـال دفاعـاً عن نفسه ، رأيناه يحيط قريته الاولى بالاسوار ، ويقيمهـــا وسط المستنقعات ، او في جزيرة ، او على ضفاف بحيرة ، او عـلى قمة جبل ؛ ثم رأيناه يعتصم في الحصون والقلاع : وراء سور الصين ، وخط ماجينو .

اما غاية هذه المنشآت فقد كانت تمكين الانسان من الصمود، ومن ثم منع العدو من الوصول اليه قبل نفاد مؤنته، او قبل ان يكون هو مستعداً للقتال. وهكذا اضحت القريةُ الصعبةُ المنال، والحصنُ، والمدينةُ المحاطة بالاسوار ، والمنطقةُ المحصنة: قواعدَ الانسان العسكرية ، كما اضحت مركزَ حضارته .

وفكرة الحماية تبرز كذلك في ميدان المعركة. فقد برزت، في البدء وعـــلى التوالي ، بشكل عصا ، او غصن ، او عظمة حيوان ؛ وبعد ظهور الآلات برزت بشكل زرد ، وخوذة ، ودرع ، واخيراً بشكل دبابة . ولا جدال في ان انساناً سلاحه الوحيد السيف لا قِبَـل له بمقاتلة آخر سلاحه السيف والزرد . ومعنى هذا ان القدرة على الهجوم غير المعززة بالقدرة على الدفاع

هي ادنى من هاتين القدرتين مجتمعتين .

وعندما يكون الأمر متعلقاً بوحدة عسكرية ، وتكون الوحدة مجموعتين احداهما هجومية والاخرى دفاعية ، تؤلف هذه قاعدة محمية تنطلق منها المجموعة الاولى وتعود اليها عند الاقتضاء. ومن هنا كان التقسيم التكتي للمحاربين ؛ من جهة : الفريق الاقدر على توجيه الضربات ؛ ومن جهة اخرى : الفريق الاقدر على المقاومة ؛ هذا يصمد ، وذاك يتقدم .

وكما يُعدّ المدى واتساع دائرة النشاط اهم ميزات السلاح الهجومي ، فالسرعة والحركة هما اهم ميزات الهجوم نفسه. يقول في هذا الجنرال « هنري لويد »: « ان اولى المسائل التي تواجهنا في حقل التكتية هي ان يكون لدينا عددٌ من الرجال يمكنهم التدخل والتنقل باقصى سرعة ممكنة ، لأن نجاح العمليات العسكرية يتوقف بالدرجة الاولى على هذه السرعة ... ان الجيش المتفوق بسرعته يمكنه دائماً ان يتدارك حركات عدوٍ لا يجاريه من حيث السرعة ، كما يمكنه ان يقذف الى كل نقطة من ميدان المعركة بعدد اكبر من الرجال ، ولو كان لعدوه التفوق العددي . وهذا العامل هو على العموم من العوامل الحاسمة في تقرير النصر » .

لقد ادى ترويض الحصان واستخدامه في الجيش : إما في جرّ الموكبات او كمطية ، الى إدخال تعديل اساسي على حركة الجيوش ، لأنه قلب اساليب القتال رأساً على عقب بان اتاح للقائد

العام امكان الاستعانة بمجموعتين من الرجال: احداهما متحركة يستخدمها في مطاردة العدو المنهزم، والاخرى ثابتة يستخدمها في مقاومة العدو المتقدم .

ومن هذا التقدم انبثق تقدم آخر ، فقسمت كل وحدة عسكرية كبيرة قسمين ؛ وجعلت الوحدة الكبيرة المتحركة مجموعة للاستطلاع واخرى للصدام ؛ وجعلت الوحدة الثابتة مجموعة للمقاومة واخرى للحماية . وحتى الأمس القريب كانت هذه المجموعات ممثلة بالخيالة الخفيفة والخيالة الثقيلة ، وبالمشاة والمدفعية بما فيها المدفعية الطائرة (قاذفات القنابل) .

سميت الحركة بحق «روح الحرب» لان الحركة هي بالنسبة الى القتال ما هو المدى بالنسبة الى قوة السلاح : العنصر الرئيس. وعندما كانت الطاقة التي تتوقف عليها الحركات العسكرية محصورة بالقوة العضلية ، كانت طاقة الجواد اعظم من طاقة الانسان ، وكان التنظيم التكتي يرتكز على امكانات الجواد . ولم تتبدل هذه القاعدة الا بعد ظهور البندقية ، اذ ازدادت قدرة المشاة على المقاومة ، وبات في وسعهم تجميد الخيالة . وقد ادى هذا العامل الجديد ، الذي طرأ في القرن التاسع عشر، الى ابدال التنظيم التكتي ، فاضحى مرتكزاً على قوة النيران ، لا على الحركة ؛ واضحت زيادة حجم النار اهم ما يشغل الرؤساء العسكريين .

وبظهور المحرك ذي الوقود الداخلي برز مصدر جديد للطاقة

يفوق بمراحل الطاقة البشرية والطاقة الحيوانية . ولم يكن ظهور المركبات ذات السلاسل ، القادرة على السير في كل اتجاه وعلى كل ارض ، اقلَّ شأناً من اختراع المحرك ذي الوقود الداخلي . فقد اتاح تصفيحُ هذه المركبات بدروع من الفولاذ صنعَ الدبابة : هذا الحصان الجديد الذي لا يؤثر فيه الرصاص ، ويمكنه الانتقال من مكان الى آخر بسرعة اين منها سرعة الجندي الراجل .

وبعد ظهور السلاسل والدبابة ، كان بالامكان ان يصبح هذا الاختراع الجديد اساس التنظيم العسكري . ولو ان الرؤساء العسكريين نظروا اليه من هذه الزاوية ، لما قصروا اهتمامهم على صنع الدبابات والسيارات المصفحة ، وعلى جرّ مدْفَعَاتهم بواسطة جرّارات من ذوات المحركات ، بل لنقلوا مدافعهم على مركبات مصفحة وذات سلاسل ، ولاستصنعوا لتموين قواتهم مركباتٍ يمكنها العمل في كل مكان ، واخرى معدة لنقل المشاة . وعلى الجملة كان بالامكان انشاء جيش من طراز جديد اعتماداً على امكانات المحرك ذي الوقود الداخلي ، والتصفيح ، والسلاسل .

ولكن الرؤساء العسكريين لم يفطنوا الى شيء من ذلك كله ، ولم يدر في خلدهم ان الحركة هي العنصر الرئيس في التنظيم .

ومما لا ريب فيه ان الحضارات تتبع ادواراً متكررة باستمرار . وهي ، وان اختلفت من حيث طابعها المميز ، تمرّ كلها بمراحل متشابهة : مرحلة النشوء ، فمرحلة النمو ، فمرحلة

الانهيار والتفسخ . وفي كل مرحلة من هذه المراحل تمثل الحرب دوراً رئيساً .

يقول كنسي رايت : « كانت مئات آلاف السنين من الحرب البدائية تؤدي الى تطور ذي شأن ؛ ولكن بضعة قرون من الحرب « المتمدنة » كانت كافية لاحداث تغييرات عميقة جاءت منسجمة مع المراحل المختلفة التي مرت بها الحضارة . وهذه التغييرات التي سببتها الحرب قد ادت بدورها الى تغيير طابع الحرب » .

واذا كانت الحرب تبدأ بتوحيد الامم ، فانها تنتهي بتفكيكها . وهي ما برحت اداة للتغيير والتحويل ، تشق كالمحراث الحقل الاجتماعي ، موجدةً تربة خصبة تنبت فيها التحولات والانقلابات . وبقدر ما تكون الحرب طويلة ومدمرة ، يكون التحول الذي يعقبها عظيماً وعميقاً . اما اذا تلا كلَ تحول حربٌ اعظم من سابقتها ، فعقلية الحرب والنزعة العسكرية هما اللتان تسودان ، وتصبح السياسة اداة للحرب ، او كما يقول ممفورد : « عندما يناضل الجندي من اجل السيطرة ، فانه يعمل على ايجاد عنصر من العبيد » . وفي هذه الحالة ينتهي التحول او النمو ، ولا يلبث الانهيار ان يبدأ ، ويعقبه التفسخ التام .

ومن ادوار الحضارة انتقلُ الى التاريخ : هذه الحكاية التي لا نهاية لها ولا قرار ، والتي تؤلف الادوار الحضرية فصولها .

وباستنطاق التاريخ سأحاول استخراج الاثر الذي كان للتسلح في مجراه .

فاذا انعمنا النظر في التاريخ نلاحظ ، اول ما نلاحظ ، ان الحوادث تدور على موضوعين : السلم والحرب .

والسلم ، باستثناء بعض الحالات ، ليس إلا فترة حضان وإعداد للحرب . يقول بهذا الصدد الفيلسوف ويليام جايمس : « يجب ان تورد المعاجم ان الحرب والسلم لفظتان مترادفتان تؤديان معنى واحداً. ويمكن القول ان الحرب الحقيقية، الحرب المستمرة ، هي الإعداد للحرب . ففي هذا الميدان تتنافس الشعوب . اما المعارك فلا تعدو كونها امتحاناً علنياً يهدف الى التثبت من التفوق المحرز خلال فترات السلم » .

والامر الثاني الذي يسترعي الانتباه ، عند انعام النظر في التاريخ، هو ان طابع الحرب يتحول مع التقدم والمعتقدات كلما نشأت هذه حول محور كل دورٍ فكري او ثقافي. ففي القرون الوسطى كان الدين يرسم للحرب حدودها ، لانه كان محور العالم الروحاني ؛ اما اليوم فيرسمها العلم : محور العالم المادي .

وثمة ظاهرة ثالثة تسترعي الانتباه ، وان بدت للوهلة الاولى غير واضحة ، وهي ان التقدم الذي تتطور معه الحرب يتأثر بها بدوره ، وان الحرب هي العامل الاساسي الوحيد الثابت في كل تطور وتحول . فأياً كان الطابع الغالب لعهد من العهود (الطابع الديني ، او التجاري ، او الصناعي) ، وأياً كان النظام السياسي

والاجتماعي السائد ، فالحرب لا يمكن ان تغيب عنه . لقد عرف العالم انواعاً مختلفة من المجتمعات : الثيوقراطية ، والالحادية ، والبلوتوقراطية ، والشيوعية ، والديموقراطية ، الخ ... لكنه لم يعرف مجتمعاً واحداً سلم من الحرب . وشهد العالم تحوّل الانظمة الدينية ، والسياسية ، والاقتصادية ، والمنقبية ، والعسكرية ، واحياناً زوال بعضها ، لكن احداً لم يتوصل الى الغاء الحرب .

واذا استثنينا عهوداً قصيرة سادها الانصراف الى التعمير والانتاج السلمي ، نجد ان التسلح كان دائماً مضطرد النمو والتقدم، وان موهبة الابتكار، التي وجدت في الحروب منشطاً لها وحافزاً، قد مهّدت للتقدم الفكري وساهمت فيه . يقول ممفورد في هذا الصدد: « اذا عدنا الى العصور السحيقة في القِدم ، نجد ان الحرب اسهمت اكثر من اي عامل آخر في ابتكار الآلة وتعميم استعمالها » . وان نحن تصفحنا تاريخ النشاطات البشرية ، نرى عهود السلم والحرب تتعاقب بسرعة وانتظام . فعهود السلم هي أشبه ما تكون بالتموّج يحدثه النسيم على صفحة الاوقيانوس الاجتماعي ، ومن حين الى آخر يهب بغتة إعصار هائل : ازمة عالمية ذات ذيول مؤذية .

وهذه الاعاصير العالمية ليس مردها الى نشوء فكرة جديدة (اجتماعية ، او اقتصادية ، او دينية) وحسب ، بل الى ظهور سلاح جديد . فالمؤرخان « بيك و فلور » يعتقدان ان الازمة

الكبرى التي نشبت في اوروبا، في الفترة الممتدة من القرن الخامس عشر الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان سببها انتقال الجواد والسيف من آسيا الوسطى الى القارة الاوروبية.

ويقول « بيك و فلور » ان منطقة بحر ايجه كانت في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد تستعمل الخناجر النحاسية القصيرة، فاستبدلت منها الخناجر الطويلة. وما لبث هذا السلاح ان انتشر في اوروبا الوسطى. « وجد الجندي الراجل في الخنجر الطويل سلاحاً مثالياً؛ اما الفارس فقد كان بحاجة الى سلاح امضى وابعد مدى. لهذا يمكن القول ان السيف ظهر في اواخر العهد البرونزي ».

لسنا نعلم شيئاً راهناً عن العوامل التي حدت المحاربين المتدفقين من بلاد الكثبان الرملية والبطاح لاجتياح الهند واوروبا وبلاد ما بين النهرين ومصر وربما الصين. فقد ردَّ بعض المؤرخين هذه الظاهرة الى تحوّل طرأ على احوال الطبيعة والجو؛ ووجد لها مؤرخون آخرون تفسيراً يبدو لنا منطقياً، قالوا: « تعلم اولئك المحاربون استخدام الجواد واستعمال المعادن، فنمت عندهم ملكة الفتح وتنظيم البلدان. وفتوحاتهم هي التي نقلت الجواد الى الهند، وما بين النهرين، ومصر، واوروبا.

« ورافق ظهور الجواد في مصر تبدل سيماء هذه البلاد وطابعها. فبعد ما كانت منطوية اقتصادياً على نفسها، صارت في عهد حتشبسوت امبراطورية مترامية الاطراف ذات نشاط

عسكري وتجاري واسع ... ويبدو ان نمو العلاقات الفكرية هو الذي شجع احد الفراعنة على محاولة تأسيس دين جامع.

« وترتب على ازدياد عدد الفرسان المسلحين بالسيف او بالرمح في اوروبا الوسطى اختفاء الدبوس والفأس ، وكانا سلاح سكان البطاح الذين كانوا قد اجتاحوا سلوفاكيا الغنية بالمعادن واخضعوها لسيطرتهم حقبة طويلة من الزمن . ويبدو ان السلاح الجديد : السيف ، اتاح للفرسان التوسع في الفتح ، وللفاتحين امكانات التنظيم . وما لبث حوض الدانوب ان اضحى بوتقة تتجمع فيها الثقافات المختلفة وتنصهر » .

ولئن تكن هذه الوقائع بمجموعها مجرد افتراضات بالرغم من ارتكازها على اكتشافات اثرية ، فانها تتسم بطابع الحقائق المسلم بها عندما تُقارن بالازمات العالمية المماثلة. فنحن نستطيع الجزم ، مثلًا ، بان تسلح المقدونيين ، تعززه عبقرية الاسكندر ، قد ساهم ، بقضائه على امبراطورية الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد ، في نشوء الثقافة الهيلينية التي أثرت بدورها تأثيراً عميقاً في مقدرات روما عندما فتحت ما نسميه اليوم الشرق الاوسط. ونستطيع القول إن تسلح « القوط » ساهم باوفر نصيب في إنهيار الامبراطورية الغربية ، وإن الامبراطورية البيزنطية استطاعت بفضل تسلحها ان تصمد الى العام ١٤٥٣ ، اي الى اليوم الذي ظهر فيه سلاح جديد ، فسبب انهيارها وانهيار الحضارة المتوسطية .

وفي عصرنا نلاحظ ان تطور الاسلحة هو الذي قلب فن الحرب رأساً على عقب ؛ وهو الذي يثير في الوقت الحاضر طائفة من المشاكل الاجتماعية ، والسياسية ، والاقتصادية .

وما دامت الحرب — والحرب في الاصل مسألة تسلح — قد اثرت في مجرى التاريخ اكثر من أي عامل آخر ، فمن حق الباحث ان يتساءل : أيخضع تزايد قوة الاسلحة لشرائع وقواعد ومباديء عامة ، ام لا ؟

لما كانت الاسلحة اشياء مادية ، فتطورها ، في جوهره ، مسألة علمية وصناعية ، مسألة ذات طابع مزدوج : كمّي ونوعي . فاذا تواجه جيشان متعادلان في السلاح ، كانت الغلبة لأوفرهما عدداً . وهذا المبدأ الحسابي كان سائداً في العهد الديموقراطي — العهد الذي عقب الثورة الفرنسية ، وعناه فريدريك وليم لانكستر في « قانون المربّع » حيث يقول : « يكون لقوتين عسكريتين طاقة عراكية متعادلة عندما تتعادلان عدداً ويكون حاصل مجهود الوحدات الفردية متساوياً . وبعبارة اخرى ، تكون الطاقة العراكية في جيش من الجيوش بنسبة حاصل قيمته العددية مضروبة بضعفها او بمثلها ، مضافاً اليه القيمة العراكية لوحداته الفردية . فاذا تصدى جيش قوامه ٥٠ الف رجل لجيشين منفصلين قوام احدهما ٤٠ الفاً وقوام الآخر ثلاثون الفاً ، وكانت الاسلحة متعادلة ، امكن القول ان القوات متعادلة ما دام $٥٠٠٠٠^{٢}$ تعادل $٤٠٠٠٠^{٢}$ + $٣٠٠٠٠^{٢}$. اما إذا اتيح للجيشين

الصغيرين ان يؤمنا الاتصال فيما بينهما ، فالغلبة تكون لهما ، لان طاقتهما – اي طاقة ٧٠ الف رجل العراكية – تفوق طاقة الجيش الاول مرتين تقريباً » .

اما الوجه الآخر من المسألة، فيبدو ان اول من عالجه بوضوح هو فريدريك انجلز، واعطى الحل طابعاً ارستقراطياً . فقد قال انجلز بتفوق النوع على العدد: «ليست القوة فعلَ ارادةٍ وحسب، بل هي تتطلب اسساً واقعية تستند اليها، وفي مقدمة هذه الاسس ادوات منها الجيّد ومنها الرديء، فالادوات الجيدة تبزّ الرديئة وتتفوق عليها. فانتاج الادوات (اي الاسلحة) يجب ان يكون مرتكز القوة الاساسي ، والفريق الذي ينتج السلاح الجيّد يتغلب على من ينتج السلاح الرديء » .

وهذه الحقيقة البديهية متأتية مباشرة من خصائص الاسلحة الخمس التي سبق تعدادها . ولكن انجلز هو اول من انزل هذه الحقيقة منزلة المبدإ الاساسي في إنتاج الاسلحة . وقد أدرك البشر ، منذ شرعوا في استعمال السلاح ، ان الجيّد منه أفضل من الرديء. ومع هذا، ظل تحسين الانتاج حتى عصرنا هذا : إما وليدَ الصدف، او وليد مجهود فردي – مدني او عسكري – اكثر منه وليد دراسات علمية جمّاعية . وفي هذا الصدد يقول اللورد باكون : « يبدو إن البشر (قبل عصر الاكتشافات العلمية) كانوا مدينين بالجراحة للماعز البري ، وبالموسيقى للبلبل ، وبالمدفعية لغطاء القِدْر الذي يرتفع بقوة ضغط البخار ؛ وعلى

الجملة كانوا مدينين بالفنون والعلوم للقضاء والقدر ، او للحظ ، او لشيء آخر غير المنطق » .

ومن الشواهد على بطء التقدم البشري بقاءُ سرج الجواد مجهولاً حتى القرن الرابع بعد الميلاد ؛ وكذلك الركاب الذي أُستعمل للمرة الاولى في اواخر القرن السادس ؛ مع أن اللجام ظهر في مستهل العصر البرونزي إن لم يكن قد ظهر قبله . وعلى العموم يجب انتظار الحرب كي توقظ المصاعبُ ، التي كان بالامكان توقعها ، عبقريةَ العسكريين الخلاّقة . وفي التاريخ شواهد عدة على ظهور اختراعات ذات شأن ؛ ثم اختفائها فور زوال الخطر . فمنذ العام ٥٤ قبل الميلاد استخدم « البريتانيون » Bretons قذائف الصلصال (الطين) الحارقة ، محاولين حرق معسكر قيصر . وفي العام ٦٩ بعد الميلاد استعملت المقذوفات الملتهبة في حصار بلاسنثيا . وعندما حاصر المسلمون الطائف في العام ٦٣٠ استعمل حماة المدينة مقذوفات بلغت حرارتها درجة مرتفعة جداً . ولم تظهر القذائف الحارقة من ثم إلا في الثلث الاخير من القرن السادس عشر عندما استعملها اتيان باتوري ملك بولونيا (١٥٧٩) . وبعد قرنين دمرت مدفعية جبل طارق الاسطول الاسباني بقنابل من النوع نفسه . ويمكن القول إن القنابل الحارقة لم تعتبر سلاحاً دائماً قبل ظهور الطائرة .

وقد استوقفني في الحرب العالمية الاولى هذا الاعتماد على القضاء والقدر بقدر ما راعني قصر نظر القادة وعجزهم عن

استدراك الأمور في الوقت المناسب ، فعقدتُ مقـالاً بعنوان « سر النصر »، ضمنته وجهة نظري في تطور الأسلحة وتحسينها . وهذه فقراته الرئيسة :

« متى اكتشفنا الآلات ، أي الاسلحة التي يتطلبها الموقف، نكون قد احرزنا ٩٩ بالمئة من النصر الذي نطمح إلى إحرازه . فالاستراتيجيا ، والقيادة ، والرؤساء ، والشجاعة ، والانضباط ، والتموين، والتنظيم، وكل ما يتصل بالحرب من قرب ومن بعد، ليست شيئـاً إذا قورنت بالتفوق في السلاح . فهي ، مجتمعةً ، واحد بالمئة من مجموع العناصر التي تكفل النصر ، والسلاح ٩٩ بالمئة .

« في الحروب عموماً ، وفي الحروب العصرية على الاخص حيث تستبدل الاسلحة بسرعة واستمرار ، يمكن اقرار حقيقة لا تقبل الجدل، وهي : ما من جيش ، وجد قبل خمسين سنـة من تاريخ معين ، في وسعه التغلب على جيش وجد في هذا التاريخ . والى القارىء بعض الأمثلة :

« أ – كان نابوليون قائداً عسكرياً متفوقـاً على اللورد راغلن . ومع هذا كان بوسع اللورد راغلن في العام ١٨٥٥ أن يهزم جيش نابوليون لو صادفه في طريقه ، لأن رجـال اللورد كانوا مسلحين ببنادق من طراز « مينيه » Minié .

« ب – بعد مرور احـد عشر عامـاً على انتصار راغلن في إنكرمان ، كان بوسع مولتكه التغلب على اللورد ، لا لأن

القائد الالماني كان أمهر من زميله الانكليزي ، بل لأن الجنود الالمان كانوا مسلحين بالبندقية ذات الابرة .

. . . .

« وفي أثناء الحرب العالمية الثانية رأينا الحوادث تتعاقب بسرعة امام اعيننا، وتوافر لدينا اكثر من دليل على ان معظمنا نسي أو تناسى ان الآلة ، لا الانسان ، هي التي تضمن النصر ، وان الحرب هي بالدرجة الاولى مسألة سلاح ، وان المعسكر الذي يتقن صنع الآلة الحربية هو الذي تكتب له الغلبة في النهاية » .

وبالرغم من بداهة هذه الحقيقة قام الانكليز والفرنسيون بين السنوات ١٩١٩ و ١٩٣٩ بمحاولات ضعيفة لتحسين اسلحتهم. وكانت مأساة دنكرك وانهيار فرنسا العام ١٩٤٠ احدى عواقب هذا الاهمال . ولو كان الانكليز وحدهم يملكون جيشاً متفوقاً بالسلاح لا يزيد عدد رجاله على ثلث القوات التي ارسلوها الى فرنسا ، لتبدل وجه المعركة ، ولكانت ثغرة سيدان قد فتحت في الجهاز الالماني .

ولو ارسل البريطانيون الى اوروبا جيشاً اضعاف الجيش الذي ارسلوه ، لكان بالامكان تأخير انهيار فرنسا اسابيع او اشهراً ، ولكن تجنب هذا المصير لم يكن مستطاعاً[١] .

١ قبل نشوب الحرب العالمية الثانية، اخذ عليّ بعضهم مطالبتي بجيش صغير بدلاً من جيش لجب كالذي خاض غمار القتال في الحرب العالمية الاولى. وقد =

ومرد تقصير فرنسا وبريطانيا في حقل التسلح إلى اغفالهما المعطيات العلمية في ما بذلتاه من مجهود لتعزيز قوتهما العسكرية : فمن جهة رأيناهما قد اسقطتا من حسابهما كون الحرب هي « مرض » مستوطن بالنسبة الى بلدان الحضارة الغربية ، ومن جهة اخرى نسيت هيئة اركان الحرب في لندن وباريس ان تطور الاسلحة خضع دائماً لسنّةٍ احبُ ان اسميها سنّة النمو العسكري .

ومن المبادىء المقررة ان الانسان يخضع لتأثير البيئة ، وانه اذا رفض الاندماج فيها ، فانها لا تلبث ان تدمجه . والذين يندمجون بسرعة ويجارون في الوقت المناسب التحول المادي والفكري (عملاً بسنّة التطور) هم الذين يُكتب لهم البقاء والاستمرار .

هذا المبدأ ينطبق على المؤسسات كافة ، ومنها المؤسسات العسكرية . فالحضارة هي البيئة السائدة . وعلى الجيوش ان تتكيف تبعاً لما يطرأ على الحرب من تحول ان هي شاءت الحفاظ على قيمتها العسكرية[1] .

= فات الذين انتقدوا موقفي اني لم اطالب بجيش صغير، بل طالبت بجيش صغير مجهز بالآليات، والفرق ظاهر بين المطلبين. وعندما يتقدم عسكري بمقترحات تتعلق بتنظيم جيش الحرب المقبلة ، يأخذ بعين الاعتبار المرحلة الاولى للحرب؛ ففيها تبرز ميزات الاسلحة وعيوبها .

١ يقول اشبنكلر: « في كل ثقافة من الثقافات كانت تقنية الحرب تتأثر =

فعندما كانت الحضارة ترتكز على اللصوصية وقطع الطرق اكثر من ارتكازها على التجارة كما كانت الحال في مستهل القرون الوسطى ، وكانت الطرق نادرة وغير معبدة ، مثّلت الخيالة الدور الاول كعنصر رئيس من عناصر القوة العسكرية . وبعد اعتماد الزراعة حقلاً للانتاج اساسياً ، اضحى جيش المشاة السلاح الرئيس . ولما نشأت الصناعة ونمت على اساس العلم والاختراع ، كان يجب ان تجاري الجيوش التيارَ الجديد وتتسم تدريجياً بطابع آلي ، ولكنها لم تجار التيار في الوقت المناسب، بل بقيت محافظة على السياق القديم الى ان أَلجأتها الضرورة وواقع الحرب نفسها الى الخضوع لسنّة التطور .

ومن سنّة التطور هذه يمكن استخراج المبدإ الآتي (واسميه العامل التكتي الثابت) : « ان غاية كل تحسين يرمي الى زيادة قوة الاسلحة هي الحد من الخطر لمصلحة احد المعسكرين مع العمل على زيادته بالنسبة الى المعسكر الآخر » . ومن هنا كان كل تحسين يطرأ على الاسلحة يجرّ الى تحسين مقابل يبطل قيمة

= خطى تقدم الصناعة اليدوية، ولكن بشيء من التردد. وظلت هذه حالها الى ان بزغ فجر الحضارة ، فشت الحرب في الطليعة ؛ وما فتئت مذ ذاك تجبر جميع الامكانات على مجاراة غاياتها ، وتفتح ، حتى في زحمة الضرورات العسكرية ، حقولاً جديدة لم يسبق استثمارها » .

ملاحظة : كانت الحضارة ، في نظر اشبنكلر ، المرحلة الاخيرة من مراحل الثقافة .

الاول. فتطور قوة السلاح شبيه بخطّار الساعة يهتز ويتمايل ببطء او بسرعة متذبذباً من الهجوم نحو الدفاع، ومن الدفاع نحو الهجوم، تبعاً لسير التقدم المدني. ففي العصر الحجري عندما كان التقدم في اقصى درجات الخمول، كان تحسين السلاح يسير ببطء شديد، موقّعاً خطاه يوماً فيوماً على خطى التقدم. اما اليوم فقد بلغ التقدم المدني من السرعة مبلغاً بات معه مستحيلاً على الجيش في وقت السلم ان يجاريه ويسير واياه جنباً الى جنب، فكيف تمكنه مجاراته في الحرب، مع العلم ان سرعة التطور ستكون عندئذ مضاعفة؟

يبدو جلياً من ذلك كله ان الجيش، الذي يُعدّ فكرياً لمجاراة كل تحوّل تكتي يمكن ان يطرأ ومواجهة ما يترتب عليه، هو الجيش المكتوب له التفوق وكسب الحرب.

وللتدليل على صحة هذه النظرية نسوق امثلة من الحملات الالمانية التي سبقت اجتياح الاراضي الروسية العام ١٩٤١. فالانتصارات التي احرزتها المانيا لم تحققها جيوش جرّارة، بل حققتها قوات محدودة قوامها رجال مشبعون بالفكرة الهجومية. وحتى خلال الحملة الحاسمة (اي معركة فرنسا) لم يستخدم الالمان في هجومهم سوى عشر فرق مدرعة كانت العامل الرئيس في هزيمة الفرنسيين. وجدير بالذكر ان خسائر المهاجمين كانت طفيفة نسبياً. فقد بلغت ٢٧٠٧٤ قتيلاً، و١١١٠٣٤ جريحاً، و١٨٣٨٤ مفقوداً. وهكذا يكون الالمان قد خسروا في الحملة كلها

١٥٦٤٩٢ رجلاً او ما يعادل ثلث ما خصره البريطانيون في معركة نهر « الصوم » العام ١٩١٦ .

من الهجوم الى الدفاع ومن الدفاع الى الهجوم ، ذلك هو النمط الطبيعي لتطور التكتية . وقد كان لهذا النمط تأثيره العميق في مجرى التاريخ .

قال كنسي رايت وجاراه آخرون : « إن تفوق الهجوم على الدفاع قد ساعد على تحقيق الوحدة السياسية . اما تفوق الدفاع على الهجوم فقد ادى الى التفسخ والانحلال السياسيين ، ناهيك بان الدفاع ، بتطويله امد الحرب، ينمي القوى المدمرة من مادية معنوية » .

ويخلص كنسي رايت الى القول : « « المهم ان تربح الدول الحرب لكي يتسنى لها ان تعيش وتبقى . وهذا يؤدي الى نشر الانضباط والتنظيم العسكري في جميع البلدان المتمدنة من طريق الفتح او الاقتباس او التقليد » . وبذلك ينتهي الامر بالامم كافة الى البقاء متأهبة للحرب ، مكرّسة معظم نشاطها الصناعي لانتاج الاسلحة ؛ وعندها لا تعود الحرب واسطة لبلوغ غاية ، بل تصير هذه الغاية ذاتها . وبدلاً من ان تكون مصدراً للحياة تصبح مصدراً للهلاك ، فيضحّي المنتصرون والمنهزمون بذواتهم ، معنوياً وسياسياً ، على مذبح واحد ، مناجين إلهاً واحداً .

الفصل الثاني

عصر الشجاعة

إذا القينا نظرة على الحرب كما كانت تدور في الغرب قبل ظهور الاسلحة النارية، نلاحظ ان تفوق الشجاعة على الحيلة كان طابعها المميز الرئيس او الغالب. فعلى الشجاعة قام تاريخ اوروبا، وكان الرمح والسيف سلاح الغرب الاول . اما آسيا فقد كان سلاحها القوس والنشّاب .

في تلك العهود تسلم مقاليد الامور الرجال المتفوّقون، لا بخبرتهم ومعرفتهم، بل بشجاعتهم . ولم يكن لمهارة الرؤساء في مصير المعارك التأثير الذي كان للمثل الصالح يضربونه لمرؤوسيهم . وكان القتال نفسه عراكاً بين رجلين اكثر منه نزاعاً بين دماغ وآخر . فـ « آخيل » المسلح برمحه كان البطل النموذجي، لا « فاريس » الذي كان سلاحه القوس . فعلى الصعيد النفسي كانت الغلبة « للسلاح الابيض » على القذيف . ومع تعاقب الاجيال انبثقت من هذا المفهوم المثالية الغربية، ثم انبثقت الواقعية عندما تفوق « فاريس » بدوره .

فمن جهة دين السيف، ومن جهة اخرى سياسة القوس :

الارستقراطية والديمقراطية ، النوع والكمية ، القصر والمدينة ، رجل الحرب والتاجر ، الجندي والعـــامل اليدوي ، الكاهن ورجل السياسة ... وان السلسلة لتطول ان نحن حاولنا تعداد القيم الخُلقية التي اوجدها القوس والسيف مع الايام .

وسأقصر البحث على ما كان للتسلح من تأثير خلال الفـترة الممتدة من مستهل حروب الميديين الى اليوم الذي بدأت فيـــه الامبراطورية الرومانية في الغرب تسير نحو النهاية . على اني لن اتوقف إلا عند النقاط الرئيسة ، مبرزاً تأثير الاسلحة والتنظيم العسكري في مجرى التاريخ .

يبدأ هذا العهد بقيام القرية يحيط بها سياج ؛ وقـد استحالت مع الايام مدينة محصنة تحوطها مدن زراعية . ولما كانت هذه المدن في حالة حرب دائمة ،فدخولها كان متعذراً بفضل الاسوار المحيطة بها ؛ وكان مجهود المتحاربين ينصبُّ بالدرجة الاولى على مهاجمة موارد التموين والدفاع عنها، فالمنتصر ينتهي به الامر الى وضع يده على المحاصيل الزراعية ؛ وما كان امد الحرب ليمتد اكثر من بضعة اشهر ، لان الشتاء كان يقعد المتنازعـــين عن الخروج للقتال .

اما تعبئة الجيوش فقد كانت غـــاية في السهولة ؛ وكذلك كانت تكتية التنظيم والتدريب . فـــالوحدة التكتية كانت كتيبة المشاة تؤلف صفاً كثيفاً من الجنود المدرعين والمسلحين بالتروس والرماح . فاذا دعي المشاة للهجوم مشوا الى العـــدو

صفوفاً متراصة ، الكتف الى الكتف . ولم يكن المهاجم مطالبا باكثر من الصلابة وطاقة الاحتمال . اما المهارة فتأتي في المقام الثاني . وعلى هذه القاعدة التكتية حارب الاغريق ، وظلوا يحاربون حتى معركة ماراتون (٤٩٠ قبل الميلاد) التي رسمت معالم تكتية جديدة .

وقد ادخل الاسبرطيون تحسينات جمة على هذا النوع من الحروب . وكانت اسبرطة شعباً قوامه جنود يخضعون لحكم عسكري . وكان على الجندي المواطن بموجب الشريعة « ان ينتصر او يموت » ، لان الحرب كانت بالنسبة اليه عيداً من الاعياد ، والمعركة مباراة تتيح له إظهار شجاعته . وكان مكان الشرف في الصف الامامي ، وفي هذا يقول الشاعر « تيرته » Tyrtée ممجداً شهداء الوطن : « انه لجميل ان يسقط البطل في الصف الامامي وهو يقاتل من اجل وطنه » .

كان جهاز الجندي الاسبرطي يزن ٣٣ كيلوغراماً . ولهذا أرفق برجل يحمل له ترسه . وفي معركة « بلاته » Platées (عام ٤٧٩ قبل الميلاد) كان كل جندي راجل يسير الى لقاء العدو ووراءه سبعة من الارقاء ، اي ان الصف الواحد من الكتيبة كان يتألف ، عمقاً ، من ثمانية رجال . وكان على الارقاء ان يُجهزوا على الجرحى بدبابيسهم ، وان يعنوا باسيادهم اذا اصيبوا في المعركة . وجدير بالذكر ان المشاة الاسياد كانوا يوقعون خطاهم على نغم المزمار .

كان الفن التكتي في تلك المعارك، يقوم ، بالنسبة الى الراجل الثقيل ، على شق الطريق بالحراب الى ان تنضم اليه قوات خفيفة. وهذا الانضمام ممكن منذ بداية الهجوم ، ولكن المشاة المدرعين يأبون على تابعيهم التدخل قبل ان يثبتوا هم شجاعتهم بشق صفوف الاعداء . وجدير بالذكر ان القوات الخفيفة لم يكن مرغوباً فيها ، بل كان الاغريق يحتقرونها ، وقد رفضوا الاستعانة بها في حرب البلوبونيز (٤٣١ – ٤٠٤ قبل الميلاد) ، مع ان الآثينيين انهزموا في العام ٤٢٦ قبل الميلاد امام خصومهم المسلحين بالمزاريق الطويلة اذ رفض هؤلاء القتال صدراً لصدر ، واستطاعوا ابادة الكتائب الآثينية من مسافة بعيدة نسبياً [١] .

بيد ان منطق الاحداث فرض المشاة الخفاف عنصراً اساسياً لا غنى عنه لاحراز النصر . وفي مطلع القرن الرابع قبل الميلاد انشأ القائد الآثيني أفقراط فيلقاً من المشاة الخفاف ودرّبه على المناورات السريعة . وكان الجندي الراجل الخفيف يرتدي ثوباً ضيقاً يشد جسمه ويصل حتى الركبتين ؛ وكان سلاحه

١ ادرك كزينوفون ، الذي عاش حتى العام ٣٥٥ قبل الميلاد ، اهمية الجيوش الخفيفة، فقال بلسان سيروس : « احشد حملة المزاريق الطويلة وراء المدرعين ، وحملة الاقواس وراء حملة المزاريق . فمن السخف ان نضع في الصف الامامي وحدات تعلم جيداً انها لا تصلح للقتال صدراً لصدر . ولكن اذا وضعنا امامها الوحدات المدرعة، فانها تصمد جيداً وترهق العدو بقذفها اياه بسهامها ومزاريقها، وذلك من فوق رؤوس قواتنا نحن » .

السيف والترس والمزراق . وقد برهن افقراط عن جدارة فيلقه في العام ٣٩٠ قبل الميلاد اذ اباد مشاتُه الخفاف كتيبـــة من الاسبرطيين .

أليس مثاراً للدهش ألا يفطن اليونانيون الى هـــذا السلاح الرئيس ، وهم الشعب الذي اشتهر ببعد نظره اشتهاره ببطولته ؟ كان لديهم ، قبل بروز اهمية المشاة الخفاف ، قطعـــة من حملة الاقواس البحريين ، يجندون من بين المواطنين الذين لا يمكنهم تجهيز جواد . وقد ابلى حملة الاقواس في حرب البلوبونيز بلاء حسناً حمـــل الاسبرطيين ، كما يقول المؤرخ توكسيديدس Thucydides ، عـــلى انشاء فيلق من حملة الاقواس قوامه ٤٠٠ فارس ، فكانوا السبّاقين الى انشاء سلاح الفرسان .

وعندمـــا اجتاحت جحافل الفرس بلاد الاغريق في الربع الاول من القرن الخامس قبل الميلاد ، كان ابناء تساليـــا اشهر فرسان البلاد الاغريقية ، ولكنهم لم يقوموا بدور يذكر في الحرب ، لان الخيالية الفارسية كانت تفوقهم عدداً وعـــدة وتنظيماً .

لقد اغفل الاغريق شأن الخيالة بالرغم من ان بلادهم جبلية ، مع ان الاسبرطيين تنبهوا الى اهمية هذا السلاح عندمـــا هزمهم الفرسان التساليون قرب آثينا العام ٥١١ قبل الميلاد .

يقول دلبروك Delbrük : ان العامل الحاسم في الحروب بين الفرس والاغريق كان الذعر الذي يشيعـــه في صفوف هؤلاء

الخيالة الفارسية .

ومجمل القول ان التحوّل الذي طرأ على السلاح خـــلال الحروب الاغريقية قد فرضه منطق الحوادث، ولم يكن لعبقرية الاختراع فيه شأن يذكر ، بل كان عصر الشجاعة هذا ينظر الى الابتكارات نظرة ازدراء . ولم تثبت المخيلة وجودها الا في حروب الحصار (هذا ما يؤكده حزقيال) . ففي اثناء حصار Platées سنة ٤٢٩ قبل الميلاد رشق المدافعون عن اسوار المدينة مركبات العدو الحربية بسهام مشتعلة .

وتخلل معركة دليوم Délium هجوم بالغازات ذات الدخان الكبريتي Sulfureux [١] . وسنة ٤١٣ قبـــل الميلاد القى سكان سركوزة على الاعداء الذين حاصروا المدينة سوائل مشتعلة [٢] .

ويجمع المؤرخون على القول انه كان بوسع اســـبرطة تغيير مجرى التاريخ لو اهتم عسكريوها بتحسين السلاح والتنظيم التكتي اهتمامهم بالشجاعة . ومـــا اغفلته اسبرطة [٣] عني به شعب

١ في حصار امبراسيا سنة ١٨٩ قبل الميلاد اعمى سكان اتوليا ابصار الرومانيين الذين حاصروا مدينتهم بدخان الريش وقد اشعلوه داخل سلاحهم المضاد للالغام. وقد وصف المؤرخ بوليب هذا الاختراع وصفاً مسهباً (الفصل : ٢١ ، الفقرة : ٢٨) .

٢ عرض في المتحف البريطاني اثر اشوري يرمز الى هذا السلاح .

٣ يقول بلوتارك ان ليكورغ (القرن التـــاسع قبل الميلاد) واضع دستور اسبرطة: «كان ارستوقراطياً متزمتاً ،فاناط الاشغال المادية والوضيعة =

مغمور، نصف همجي ، قاده ملكان اجتمع لهما الذكاء والشجاعة، هما : فيليب الثاني المقدوني وولده الاسكندر .

ويبدو ان اول اغريقي نظم قوة محاربة مشتركة هو الطاغية دنيس الاول ملك صقلية (٤٣٠ – ٣٦٧ قبل الميلاد) ، ولكن معاصره فيليب المقدوني (٣٨٢ – ٣٣٦ قبل الميلاد) كان ابعد نظراً ، فتبنّى مبدأ ذلك الاصلاح وانشأ اول جيش اوروبي منظم تنظيماً علمياً .

وما حققه فيليب المقدوني يثبت ما قاله « كارليل » من ان التاريخ هو في جوهره تاريخ عظماء الرجال . فمقدونيا بلاد فقيرة، معظم سكانها من الفلاحين والرعاة ، وكانت الطبقة الغنية فيها ضئيلة العدد لا يمكنها ان تقدم عدداً كافياً من المحاربين .

ولما لم يكن لدى فيليب الثاني العدد الكافي من الرجال استعاض عن هذا النقص بتحسين النوع ؛ وبدأ بانشاء جيش صغير دائم يضم رعاياه، مخالفاً بذلك المبدأ القائل : انه لا يمكن اشعال نيران الحروب الا في فصل الصيف ؛ وكان اول من جعل الحرب شاملة من حيث الوقت على الاقل .

= بالخدم والاجانب،وحصر نشاط المواطنين الاحرار في حقل واحد هو حرفة السلاح وخدمة مارس اله الحرب ، وحظر عليهم، كمواطنين احرار ، التجارة على انواعها . ولكي يكونوا احراراً بالفعل ويظلوا كذلك ، حصر كل نشاط ذي صلة بالمال كما حصر اعداد الطعام وتقديمه على المائدة بالارقاء والغرباء » . (ملخص عن بلوتارك في فصله عن ليكورغ) .

ولم يكتفِ فيليب المقدوني بهذا الجيش، بل جعل من جيشه اداة قتـــال جديدة عندما استخدم اسلحته التي لم تكن تختلف كثيراً عن اسلحة ذلك العهد استخداماً علمياً بانشائه قوة هجومية مشتركة .

واعتمد فيليب تكتية جديدة في استخدام الكتيبة ، فجعل من سلاح الصدام هذا قوة مهمتها التمسك بالمواقع، وسلّح فريقاً من مشاته المدرّعين بالحراب الطويلة (طول الحربة ٦ امتـــار وثلاثون سنتمتراً ، اي ضعفا طول حربة المشاة الثقيلة [١]) . وقد اتاح هذا السلاح الجديد للكتيبة طعن العدو من بعيد ، وزيادة عدد الحراب المسددة الى صفه الامامي ، اي ان هذا النظام عزز طاقتها على الصمود والانقضاض على حساب رشاقتها طبعـــاً . ولكن الجندي الراجل لم يكن مطالباً بالاندفاع نحو العدو ركضاً .

وكانت الكتيبة التقليدية تقوم على مبدأين : أ ــ العمق الذي يوفر الثقل ، ب ــ الطول الذي يتيح اللف حول العدو وفتح ثغرات في جنـاحيه . وقد تخلى فيليب المقدوني عن المبدإ الثاني لانه اكتشف نقاط الضعف في النظام الكتائبي : صعوبة الحفاظ

[١] يقول دابروك : ان الصفين الاماميين من صفوف الكتيبة كانا مسلحين بالحربة القصيرة ، السهلة الاستعمال ؛ اما الحربة الطويلة فقد كانت سلاح الصفوف التالية .

على الصفوف في اثناء العمليات (والتشويش هو عدو الكتيبة المميت [1]) ، واستحالة اقامة جبهة متينة على احد الجناحين ومطاردة العدو مع البقاء صفاً منتظماً ، وعجز الجناحين عن الصمود امام هجمات الخيالة المعادية .

ماذا فعل فيليب ؟ جعل من خيالته الثقيلة ميمنةً لجناح كتيبته الايمن ، فاضحى هذا الجناح جناحه الهجومي او جناح الصدام ؛ وألحق بجناح الكتيبة الايسر القسم الاكبر من خيالته المساعدة ، فاضحى هذا الجناح جناحه الدفاعي ؛ وحشد بين الخيالة الثقيلة وميمنة الكتيبة قطعة مهمتها حماية ميسرة الخيالة الثقيلة عندما تتقدم ؛ ونقل قواته الخفيفة الى يمين الخيالة للغرض نفسه . وهكذا توافر لديه جيش متأهب للهجوم والدفاع ، فالجناحان سريعا الحركة ، اما القلب فراسخ كالطود .

وكان قوام خيالة فيليب الثقيلة ارستوقراطيو مقدونيا ، وقد اطلق عليهم اسم « الرفاق » Compagnons ، واختار لهم سلاحاً السيف والرمح القصير . اما الجنود فقد كانوا يحملون تروساً

[1] يقول دلبروك : ان نقاط الضعف التي اكتشفها فيليب المقدوني في النظام الكتائبي كانت كامنة في جيوش القرن الثامن عشر . ففي العام ١٧٥٧ دوّن الامبراطور فرنسيس الاول هذه الملاحظة عن اساليب البروسيين في القتال : «من النادر جداً ان يحصلوا على كسب كبير بفضل انتصار يحرزونه ، لان اخشى ما يخشونه هو شيوع الفوضى في صفوفهم ، لهذا يتجنبون دائماً التسرع في مطاردة اعدائهم » .

ويغطون اجسادهم بدروع ثقيلة .

وقد اجمع المؤرخون على القول ان فيليب المقدوني هو اول من انشأ خيالة ثقيلة حقيقية ، وانشأ كذلك قطعة الرماة بالرماح الخفيفة . اما خيالته المساعدة ، فقد كان يختار عناصرها من ابناء تساليا ، واختار لها السلاح الذي اختاره للخيالة الثقيلة .

وضمّ جيش فيليب حملة التروس الكبيرة ، وهم قطعة من مشاة الحرس ، مدربين على القتـــال صدراً لصدر ؛ وكانت لهم مواقف رائعـــة في الحرب الجبلية ، اذ كانت مهمتهم عبور الانهر في المقدمة ، ومساندة الخيالة . اما القوات الخفيفة فكانت تضم حملة المقاليع ، وحملة الاقواس ، والرجال المسلحين بالمزاريق الطويلة . وانشأ قوات خاصة مهمتها محـــاصرة المدن وسلاحها المنجنيق لقذف السهام المشتعلة ، وقاذفات الحجارة ، واكباش الاسوار (وهي آلات لتهديم الحصون) .

كان جيش فيليب المقدوني قلعة متحركة . فالكتيبة تؤلف جبهة دفاعية متماسكة لا تنفرج الا عندما تتحرك الخيـــالة الثقيلة لتهاجم العدو . وكان عليها ان تصدم العدو احياناً لتفتح ثغرة في صفوفه ، دون ان تتصدى لمهاجمة الخيالة المعادية ، لان هذه المهمة كانت منوطة بالخيالة المساعدة ، وكذلك مهاجمة جنـــاحي الخصم .

تلك كانت اداة الحرب التي خلّفها فيليب المقدوني لابنه الاسكندر ، فاجتاح بها العالم ، وغيّر مجرى التاريخ .

★

سبق الاسكندر عصره كقائد عسكري فذّ وكرجل دولة ممتاز . ولا يزال يحتل مكانة فريدة في التاريخ ، فهو قد ربح جميع المعارك التي خاض غمراتها ، واستولى على جميع المدن التي حاصرها . وكان يسلك ، صيفاً وشتاء ، السبل التي حددها للزحف سواء أكانت تمر عبر السهول ام الجبال والصحارى . وعرف دائماً كيف يستغل النصر سياسياً واستراتيجياً ، وكيف يوفّق بين السياسة والاستراتيجيا . وكان الى ذلك كله محارباً شهماً ، مترفعاً ، وكان في نظر جنوده اشجع الشجعان وسيد الفن العسكري غير مدافع .

ولكن الاسكندر ما كان ليستطيع شيئاً لولا الجيش الذي خلّفه له ابوه فيليب المقدوني . فللمرة الاولى في التاريخ يجد رجل نابغ في متناوله آلة حربية ممتازة ، وبتعاونهما ذللا المصاعب وتخطّيا الحواجز . وقد وصف « درويزن » جيش الاسكندر بانه « أولى الوحدات الاستراتيجية التي عرفها العالم » ، واضاف قائلاً : « كانت هذه الوحدة تحمل في ذاتها النصر الاكيد » ، بفضل الاسكندر .

وفي ربيع العام ٣٣٤ قبل الميلاد اجتاح الاسكندر آسيا على رأس ٣٠ الف رجل وخمسة آلاف فارس ، وهزم داريوس العام ٣٣١ .

كان الاسكندر ينشر جيشه من اليمين الى اليسار على النحو

الآتي : المشاة الخفاف (حملة المزاريق الصغيرة وحملة الاقواس والمقاليع) ، فالفرسان الرفاق ، وقوام هذه الوحدة ارستوقراطيو مقدونيا ، فالمشاة المدرّعون او مشاة الحرس ، فالكتائب ، فخيالة المملكة ، فالخيالة التسالية (نسبة الى تساليا).

وكانت الخيالة سلاح الاسكندر الرئيس . وما ان تدور رحى المعركة حتى يندفع هو على رأس « الفرسان الرفاق » . ويقول « دريزون » : « ان الفاتح المقدوني العظيم كسب ١٥ معركة من ٢٢ بفضل خيالته » ؛ ويقول « دودج » : « لو لم يكن الاسكندر احد عظماء القادة في التاريخ ، لكان على الاقل اجمل فارس عرفه التاريخ » .

وبعد الخيالة يأتي المشاة المدرعون والوحدات الخفيفة التي يقول البروفسور «تارن» ان احداً لم يستخدمها جدياً قبل الاسكندر، « ولم تكن لها بعده مآتٍ جديرة بالذكر » . وقد اشتهر في صفوف هذه الوحدات حملة الاقواس من ابناء جزيرة كريت .

وفي اثناء العراك كانت كتائب الاسكندر تنتشر عمقاً ستة عشر صفاً وتمثل دوراً ثانوياً على اهميته ؛ وكانت مهمتها الرئيسة تأمين استمرار اللحمة في الجيش ، تاركة للخيالة التسالية وخيالة المملكة تأمين حمايتها هي . وباطالتها خط الجبهة كانت تحمي مؤخرات الجناح الايمن بردها الهجمات المعادية . وبفضل قدرتها على المقاومة والثبات ، كانت تتيح للجناح المذكور العمل باطمئنان ورباطة جأش . ويلاحظ « روستو وكوشلي » ان

الاسكندر ما فكر قط بالاعتماد على الكتائب وحدها : « كانت الكتائب تؤلف الظلال في لوحة المعركة ، اما الضوء فقد كان يؤلفه الجناح الايمن » .

ومع ان المنجنيق كان في الاصل سلاحاً من اسلحة الحصار، فقد استخدمه الاسكندر غير مرة كمدفع من مدافع الميدان . ففي حملة ايلريا Illyrie غطّى انكفاء جنوده عبر احد الانهر « بانواع من المقذوفات كانت تطلقها آلاته » . واستعمل المنجنيق لحماية عملية عبور نهر ياكزرتس Iaxartes . واستخدم المنجنيق كمدفعية جبلية يوم حاصر بيوسار . وقد مثلت مدفعيته دوراً رئيساً في حروب الحصار، ولاسيما في ضرب مدينة صور . وفي الهند اقام جسراً من السفن .

وبعد هزيمة داريوس واجهته مسألة تكتية من نوع جديد : مكافحة حركة عصيان وطنية قامت مقام المقاومة المنظمة لقوات الاحتلال . وللقضاء على هذه الحركة قسّم جيشه الى عدد من التجريدات، وعزز خيّالته الخفيفة ، ومشاته الخفاف ، وحملة الاقواس . وطبق في تأديب العصاة والقبائل الجبلية الاساليب التي اعتاد تطبيقها في الحرب النظامية والمعارك الكبرى ، آخذاً بعين الاعتبار ظروف القتال وطبيعة الارض .

والاسكندر هو اول من اكتشف المبدأ الآتي : « ينبغي للجنود ان يسيروا متفرقين، ويقاتلوا مجتمعين » . وهو اول قائد غربي طارد العدو بعد معركة كبرى ، وضرب رقماً قياسياً في

سرعة الانتقال، اذ قطع مسافة ٦٤٠ كيلومتراً في احد عشر يوماً وبضع ساعات (بمعدل ٥٨ كيلومتراً في اليوم) بما في ذلك اوقات التوقف ، عندما اندفع في اثر داريوس . وخلال حصار سمرقند قطعت النجدات التي ارسلها مسافة ٢١٦ كيلومتراً في ثلاثة ايام .

ويمكن القول ان حروب الاسكندر كانت كلها من نوع الحروب الخاطفة . وكان همه سحق مقاومة العدو تمهيداً للقضاء عليه ، وليس تشتيت شمل خيالته واعتبار المعركة منتهية باخذ المشاة اسرى ، او بابادتهم .

اما الجيش الذي تركه للذين خلفوه [1] فقد نظّمه على اساس الحفاظ على النظام والامن في امبراطوريته الواسعة ، إلا ان هذا الجيش اضحى في ايدي الذين خلفوا الفاتح اداة تفكيك الامبراطورية واشاعة الفوضى في اجزائها . فقد نشبت الحروب بين ممالكهم ، ودارت رحى معاركها بين جيوش منظمة خاضعة لقيادة رجال متساوين في الجدارة ، ادخلوا على تقنية الحرب تحسينات جمة ، ولكن الانضباط والتكتية والمنقبية كانت قد تدهورت تدهوراً سريعاً ، وصار المرتزقة العنصر الغالب في الجيش : العنصر الذي يشرى ويباع ، وصار الذهب عاملاً تكتياً

١ هم : انتيغون وابنه ديمتريوس بوليوست ، وانتباطر وابنه كاسندر ، وسيليكوس ، وبطليموس ، واومين ، وليذيماك .

حاسماً .

وفي حقل التسلح استطال الرمح وتضاءل شأن الوحدات الخفيفة. وعندما اجتاح الغوليون تراقيا ومقدونيا العام ٢٨٠ ق.م عجز الاغريق عن الصمود في وجههم ، لانهم اعتمدوا على الخيالة اكثر مما يجب ، واهملوا ما عداها من الاسلحة . وكان ابرز ما طلع به المحاربون اقامة الاستحكامات في الميدان، واستخدام الفيلة سلاحاً من اسلحة الصدام .

ولا ريب في ان ظهور الفيل واجه القادة العسكريين بمسألة تكتية عويصة . وقد فوجيء الاسكندر بالفيلة للمرة الاولى في معركة « اربل » ، ثم في معركة « جيلام » (٣٢٧ ق.م) . ويبدو انه خشي ان ترفض جياده التقدم، فقرر اللف حول ميمنة خصمه « بوروس » بعبور النهر . ويبدو كذلك انه لم يعلق على الفيلة اهمية كبيرة بدليل عدم استخدامه اياها في القتال . امـــا خلفاؤه فقد توسعوا في استخدامها، وذهب احدهم سيليكوس الى حد التنازل «لشاندراغوبتا» عن الولايات الشرقية من امبراطورية الاسكندر في مقابل الحصول على ٥٠٠ فيل ؛ وبهـــذا القطيع الضخم ، انتصر في موقعة ايبسوس العام ٣٠٢ ق.م.

وفي اجماع المؤرخين انه كان للفيلة تأثير معنوي حاسم لدى ظهورها للمرة الاولى في ميدان المعركة . فلولاها لمـــا استطاع انطيوخوس الاول وقف زحف الغوليين ، وقد قال لاخصائه : « انه لمن المخجل حقـــاً ان نكون مدينين بخلاصنا لستة عشر

حيواناً [1] » . وفي موقعة « رافيا » واجهت افيال انطيوخوس الثالث (وكانت افيالاً هندية) افيال بطليموس الرابع الافريقية وهزمتها. واستخدمت الافيال للمرة الاخيرة في موقعة «مانيزيا» [2] العام ١٩٠ ق.م حيث استحال ضبط افيال انطيوخوس، فاشاعت الفوضى والذعر في صفوف الجيش وسببت هزيمته . وانهزم هنيبعل في « زاما » العام ٢٠٢ ق.م في ظروف مشابهة .

وقد توصل المتحاربون الى استنباط تكتية مضادة للافيال ، فاخترعوا ادوات تغرز في قوائمها وتقعدها عن الحركة . ولكن الطريقة المدهشة هي التي لجأ اليها الميغاريّون اذ اطلقوا في وجه افيال انتيغون خنازير مدهونة بالقطران ، بعد ان اشعلوا فيها النيران . وقد رد انتيغون بأن اوعز الى مروّضي الفيلة من الهنود بجعلها على تماس دائم بالخنازير بحيث تألفها .

ولئن تكن الاساليب التكتية قد رجعت القهقرى في ميدان المعركة، فقد نكصت على عقبيها كذلك في حرب الحصار بالرغم من بعض التحسينات التقنية . وكان مرد هذا التقهقر الى افتقار المتحاربين الى اسلحة الحصار . واشتهر من خلفاء الاسكندر في احتلال المدن عنوةً القائد ديمتريوس ، ومع هذا فقد رأيناه يخفق تكتياً في حصار رودس العام ٣٠٥ ق.م. فخلال الحصار

١ روى هذا الحديث دلبروك .

٢ تأكد استعمالها للمرة الاخيرة في موقعة ثابسوس العام ٤٦ ق.م .

قذف ابنـــاء الجزيرة اسوار ديمتريوس الحصينة بثمانمئة مقذوف مشتعل . وفي اثناء حصار « طيبة » Thèbes شيّد سوراً نقـــالاً استغرق نقله مسافة ٤٠٠ متر زهاء ستين يوماً .

وكان المتحاربون قد استعملوا في القرن الرابع ق.م اجهزة تشير الى موضع الالغام ، كما استعملوا اسلحة مضادة للالغام. وقد وصف المؤرخ « بوليب » احد الاجهزة التي استعملت في اثناء حصار « امبراسيا » العام ١٩٠ ق.م ، وكان يتألف من اوعية تتأثر باضعف االذبذبات .

وفي اجماع المؤرخين ان حروب ذلك العهد قد اثرت في مجرى التاريخ تأثيراً عميقـــاً . فالكنوز الذهبية والفضية التي غنمها الاسكندر بعد استيلائه على بلاد فارس قد بددتها حروب خلفائه . واسهم تبديدها في نشر حضارة جديدة هي الحضارة الهيلينية التي كانت الاسكندرية عاصمتها التجارية والفكرية . وقد ساعدت قوة الذهب على تنمية الملكات الفكرية ، ولكن الحروب كانت مستمرة، فحصرت نشاط هذه الملكات في السعي الى جعل الحرب آلية الطابع .

وفي العصر الذي عقب موت الاسكندر بلغ التقدم الآلي شأواً لم يشاهد العالم مثيلًا له طيلة الفي عام . وقد ذكر مؤرخو هذا العصر الاسلحة التي اخترعها هيرون (٢٨٤-٢٢١ ق.م) وفيلو (٢٠٠ ق.م) واحيزيستراتوس (٢٠٠ ق.م) ، ووصفوا مدفعيته بانهـــا كانت ذات مدى لا يقل عن ٧٠٠ متر .

وتوصل المهندس الاسكندري ديونيسيوس الى اختراع « البوليبولوس » (رشاش القرن العشرين)، وهو يقذف من جعبة او مخزن عدداً من السهام دفعة واحدة. واخترع اكتيزيبيوس، وهو مهندس اسكندري كذلك، جهازاً يتيح حمل مزاريق ذات مكابس او طلمبات تعمل داخل مواسير ملأى بالهواء المضغوط. وفي موقعة « مانتينه » العام ٢٠٧ ق.م زحف ماخانيداس بمواكبه « عدد كبير من المركبات المدرّعة وعليها مدفعية ميدان ضخمة وسهام لاستعمال المزاريق ». وادرك خصمه فيليبومين ان مزاريق العدو سترمي جناحيه بالسهام لتشيع الفوضى في صفوفهما، فانقضّ بخيالته على المركبات المدرعة وشتت شملها قبل ان تؤدي مهمتها.

وهكذا قرنت التقنية الى الشجاعة، منذ اليوم الذي ظهر فيه شعب ذكي وادرك اهمية اجتماع ذينك العاملين. وهذا الشعب خرج من روما ليجمع الثروات الفكرية التي نثرها هنا وهناك وهنالك اسكندر المقدوني وخلفاؤه.

كان الرومان شعباً متقد الشعور الوطني، وكان حمل السلاح وقفاً على مواطني روما. « ومن اجل النبلاء، حملة النصال، كان خدّام الهيكل يستنزلون نِعَم مارس إله الحرب ». ولما كانت الخدمة العسكرية السبيل الوحيد المؤدي الى ارفع المناصب المدنية، فقد تألف من طبقة النبلاء طغمة عسكرية وسمت بطابعها الشعب الروماني. وفي هذا يقول المؤرخ « تيت ليف »:

« اضحى الشعب الروماني شعب كفاح يشق عليه الاخلاد الى السكينة مهما يلحق به من هزائم » . وقد باتت الحياة بالنسبة الى هذا الشعب المحب للحرب معركة طويلة ، والبطولة مذهباً بل ديناً .

كانت الفرقةُ الوحدةَ العسكرية في الجيش الروماني ، ولم تكن في الاصل سوى كتيبة (فالانج) قوامها ٤٢٠٠ رجل موزعين على ثمانية صفوف ، منها ستة صفوف من حملة الاسلحة الثقيلة ، اما الصفان الباقيان فيضمان المشاة المسلحين بادوات الحرب الخفيفة . ويتألف الجناحان من وحدتي خيالة قوامُ كل واحدةٍ منهما ١٥٠ فارساً ؛ وكالخيالة الاغريقية كان الصدام تكتيتها الرئيسة . الا ان الخيالة كانت عاجزة عن مطاردة العدو لافتقارها الى العناصر الاحتياطية .

ويعتقد بعض المؤرخين ان الفضل في اعادة تنظيم الفرقة الرومانية يعود الى ماركوس فوريوس كاميل اشهر الامراء العسكريين الذين قادوا الجيوش الرومانية في حربها ضد الغوليين (٣٩١ — ٣٦٠ قبل الميلاد) . ويبدو ان هذا الاستنتاج غير بعيد عن الواقع ، لان الرومان واجهوا في حروبهم تلك وحدة عسكرية من نوع جديد : الكتيبة المسلحة بالسيف .

وقد قضى التنظيم الجديد بجعل الفرقة (اللجيون) ثلاثة اقسام منفصلة على اساس العمق ، وهي : « هاستاتي » اي الشبان ، و « برنسيب » اي قلب الجيش ، و « ترياري » اي القدماء او

الذين تمرسوا في فنون القتال . وكان كل قسم يتألف من ثلاث سرايا ، قوام الاولى ١٣٠ رجلاً ، والثانية ١٢٠ رجلاً ، اما الثالثة فتضم ستين رجلاً . اما الفوج (كوهورت) فيضم ٤٥٠ رجلاً، منهم ٣٠ فارسا . وكانت الفرقة تتألف من عشرة افواج.

وفي الميدان كانت اقسام الفرقة الثلاثة تحشد بشكل رقعة الداما بحيث يتاح لعناصر القسم الثاني ان تسد الفراغ على جبهة القسم الاول ، ولعناصر القسم الثالث ان تسد الفراغ على جبهة القسم الثاني . اما الخيالة فتؤلف جناحاً . ويصف المؤرخ « بوليب » سلاح الفرقة الرومانية فيقول ان حملة الاسلحة الخفيفة كانوا مجهزين بالسيف والحربة والترس . وكانت الحربة ذات رأس حاد وقليلة الكثافة بحيث كانت تلتوي عند اول صدام يحصل . وكان المحاربون الشبان يحملون تروساً ذات شكل نصف اسطواني عرضها ٧٥ سنتمتراً بطول متر وعشرين سنتمتراً. وكان الترس عبارة عن طبقتين من الخشب متلاصقتين تغطيهما طبقة من الجلد . وكان سلاح الشبان حربة او رمحاً قصيراً ومزراقين صغيرين ؛ اما سلاحهم الدفاعي فالدرع ، والخوذة النحاسية ، وغطاء الساقين ، والترس المصنوع من النحاس ، وصدرية جلدية محشوة . اما الاغنياء منهم فكانوا يستبدلون من الصدرية الدرع .

اما المحاربون المتمرسون (الكهول) فكان سلاحهم مماثلاً لسلاح الشبان ، ولكن حرابهم كانت طويلة .

وجدير بالذكر ان الخيالة كانت مهملة . فترس الفارس كان من الجلد . وكان يعطى الفرسان سيوف وحراب رديئة الصنع، لان الرومان كانوا يفضلون القتال وهم راجلون. وكان العمل الفردي احب اليهم من العمل الجماعي .

يقول « فيجيس » في صدد الفتوحات الرومانية بعد التنظيم الجديد : « حقق الشعب الروماني فتوحاته العظيمة بمناورات مسلحة قام بها». ووصف المؤرخ اليهودي « جوزف » مناورات الرومان بانها معارك غير دامية، ومعاركهم بانها مناورات دامية.

وفي الحقل التكتي طرأت تحوّلات اساسية ، فاستطاع القادة التوفيق بين الالتحام والقتال من مسافة معينة ، وانشأوا قوات احتياطية ، وقام ارتباط وثيق بين الهجوم والدفاع .

ويقول «مومزن» في صدد هذه التحوّلات: « اسفر استعمال المزراق الثقيل والسيف معاً عن النتائج التي اسفر عنها في الحروب الحديثة استعمال الحربة والبندقية القصيرة . فقد كانت مقذوفات المزاريق تمهّد للهجوم بالسيف كما تسبق اليوم نيرانُ الاسلحة النارية الهجومَ بالحراب والسلاح الابيض . وبعد ما حسّن الرومان نظام المعسكر في الميدان،صار في وسعهم الافادة من ميزات الهجوم والدفاع على حد سواء ، كما صار في وسعهم قبول تحدي العدو او رفضه ، وفي الحالة الثانية الاعتصام وراء تحصينات معسكرهم كما لو كانوا داخل حصن. وقد قال مَثَلٌ روماني : « الرومان يفتحون الامصار وهم مقيمون » .

بهذه الآلة الحربية الضخمة انطلقت روما لفتح الامصار ، فاجتاحت جيوشها ايطاليا ، فقرطاجة ، فمقدونيا. وخلال الحرب ضد « بيروس » التقت الفرقة الرومانية للمرة الاولى الكتيبة الاغريقية ، واستطاعت التغلب عليها .

ولكن الجيوش الرومانية في حروبها الثلاث ما كانت لتحرز الانتصارات التي احرزتها لو انها واجهت العدو في ظروف اقل ملاءمة . قال « تارن » : « لقد اضطرت القوات الاغريقية للقتال على ارض اختارها خصمها ، ولم يقيّض لها قائد فذ كالاسكندر يحمي الجناحين . وعندما تواجه الاغريق والرومان كانت ظروف القتال قد تبدّلت ، ولكن الكتائب الاغريقية خاضت غماره باساليب قديمة » .

وحذا هنيبعل حذو الاغريق في تنظيم جيشه على اساس الكتيبة . وكانت فتوحاته مثار اعجاب تخالطه الدهشة ، لان جيشه كان يتألف في معظمه من المرتزقة ، جمعهم من هنا وهناك ، ليقاتلوا لحسابه باسلحة اوطانهم من سيوف ورماح واقواس ومناجل ، الخ ... وكان الرماة بالمقلاع افضل جنود هنيبعل (كان فريق منهم يستعمل المقلاع البعيد المدى ، والفريق الآخر يستعمل المقلاع العادي) . اما اقوى اسلحة القائد القرطاجي فقد كان الفرسان الذين امنوا له النصر في موقعة « قان » العام ٢١٦ قبل الميلاد .

وبعد « قان » حاول هنيبعل استدراج الرومان الى القتال

في السهول حيث يتاح لخيالته ان تناور بحرية ، ولكن الرومان كانوا قد اعتبروا بما حدث ، فاعتصموا في المرتفعات . وفي هذا يقول بوليب : « اعتمد كلا الفريقين استراتيجيا مستوحاة من امثولة « قان » اذ ادركا ان هنيبعل مدين بانتصاره لخيّالته » .

كان جيش قرطاجة ينتشر في ساحة المعركة على الشكل الآتي : في الوسط وحدات المشاة الثقيلة (ابناء قرطاجة والليبيون والفينيقيون والاسبانيون او الغوليون) ، وفي الصف الامامي الرماة بالمقلاع واحياناً الفيلة ، اما الجناحان فكان يحميها الخيالة. ولا ريب في ان هذا الخليط غير المتجانس ما كان ليكسب معركة لو لم يقيّض له قائد فذ كهنيبعل او هملكار .

وقد سلخ الرومان ستة عشر عاماً في مقارعة الجيش القرطاجي المؤلف من عناصر متنافرة،وما تسنّى لهم التغلب عليه الا بعد ما انشأ سيبيون الافريقي خيّالة صالحة ، فانهزم هنيبعل امامهم في معركة زاما العام ٢٠٢ ق. م. ولم تقم لقرطاجة قائمة مذ ذاك كدولة عسكرية . وقد ابرز « تيت ليف » و « بوليب » اهمية هذه المعركة ونتائجها ، فقال اولهما : « كان مصير العالم ، لا مصير ايطاليا وافريقيا فحسب ، متوقفا على نتيجة معركة زاما التاريخية » . وقال بوليب : « كانت المعركة بالنسبة الى قرطاجة مسألة حياة او موت ، ومسألة استقلال ليبيا وسيادتها . وكانت بالنسبة الى روما كفاحاً في سبيل

السيطرة على الكون » .

ولكن سرعان ما افسد الرومانَ الحكمُ والسلطانُ والثراء الفاحش ، فاستحال الجيش جيش مرتزقة قوامه الفقراء وابناء الريف ، وحلّ حب التكسب محل حب الوطن ، وصارت الفتوحات تهدف ، لا الى اعلاء شأن روما ، بل الى مضاعفة ثروات الحكام وزيادة مرتبات العسكريين .

وفي العام ١٠٤ ق.م اعاد ماريوس النظر في نظام التجنيد ، فحصر الخدمة العسكرية بالعمال والعسكريين المحترفين . وحرصاً منه على جعل الجبهة اكثر كثافة ، اعاد تنظيم الفرقة على اساس جعلها ثلاث كتائب ، وكل كتيبة خمس سرايا . وهكذا ضمت الوحدة التكتية ٦٠٠ رجل بدلاً من ١٢٠ . ولما كانت الفرقة مؤلفة من عشر كتائب اضحى عدد رجالها ستة آلاف بدلاً من ٤٢٠٠ . وقد الغى ماريوس الخيالة الرومانية واحلّ محلها الخيالة الاجنبية المساعدة ، وما عتم الامبراطور حتى الغى نظام الفرقة وعاد الى نظام الفالانج (الكتيبة) .

وادى اتساع نطاق حركة التجنيد في اوساط العمال وابناء الريف الى ازدياد الرواتب زيادة مضطردة . وحل الجشع محل الشعور الوطني . وصارت الجيوش ملكاً لمن هو اكثر بذلاً . ومع الايام حل الجيش المحترف محل الميليشيا ، واتسع نطاق الوحدات الآلية واعمال انشاء التحصينات . وبديهي ان يحتاج جيش هذا شأنه الى قادة لامعين . وعند توافر هؤلاء كان النصر

مضمونا . فقد قال مومزن في جيش يوليوس قيصر : « لقد توافرت لجيش يوليوس قيصر جميع المقوّمات التي تجعل منه جيشاً ممتازاً » . ومع ذلك كان هذا الجيش يحمل في ذاته بذور تفسخه وانحلاله وانحلال الامبراطورية .

لم يدخل يوليوس قيصر تعديلات اساسية على هيكل الفرقة الرومانية كما خلقها ماريوس. ويمكن القول ان الاسلحة واسباب الوقاية لم تتبدل كثيراً . وقد حرص الامبراطور على تعزيز الوحدات الخفيفة والرماة بالمقلاع والاقواس . اما الجديد الذي طلع به فهو زيادة وحدات الخيالة والمدفعية وقوات الهندسة ، متأثراً بما لمسه من مهارة الفرسان الجبليين الاجانب وبتفوق الاغريق وقرطاجة في حقلي المدفعية والهندسة .

ومن الامثلة الحيّة على التحول العظيم الذي طرأ على حرب الآلات ما حدث خلال حصار افاريكوم (بورج) العام ٥٣ ق.م. فقد استعمل يوليوس قيصر اسلحة سريعة القذف . وبعد سنة قصف العدو بمقذوفات كبيرة في ميدان مكشوف . وانشأ يوليوس قيصر جسراً فوق مستنقع « فمر جيشه عبر الجسر وبلغ سفح مرتفع . وكان العدو منتشراً على جبل ، فتسلق جيش قيصر المرتفع المقابل وامطر قوات الخصم الرئيسة بوابل من مقذوفاته » .

واتبع بومباي في موقعة دوراززو الخطة نفسها عندما حاول يوليوس قيصر تطويقه باحتلال مرتفع قائم على ميسرة خصمه ،

فقد سارع بومباي الى احتلال مرتفع مقـــابل وقصف خصمه بنيران مدفعيته مرغماً اياه على الانسحاب .

وعندما هاجم مارك انطوان البارتيين كان لديه ٣٠٠ مركبة مختلفة الاحجام ووجوه الاستعمال . وكانت مدافع الميدان الصغيرة تنقل على مركبات خاصة تجرّها البغال ، وكان المدفع يقوم بوظيفته وهو في المركبة .

ويقول فيجيس Vegèce ان كل كتيبة كانت مجهزة بمنجنيق ، وكل مئة جندي بمدفع صغير . وكان استعمال المدفـع يتطلب جهود احد عشر رجلاً . وهكذا كانت كل فرقة مجهزة بستين مدفعاً تجرها المركبات وعشرة مدافع ضخمة (منجنيق) ،او ما يعادل في ايامنا ستين مدفع ميدان وعشرة مدافع من العيـــار الكبير ، وهو ما تجهز به فرقة مشاة معاصرة .

ورافق تطور السلاح الآلي تقـــدمٌ محسوس في انشـاء التحصينات . وكان يوليوس قيصر فارس هذا الميدان غير مدافع . ففي حصار إليزيا جرف رجاله مليوني متر مكعب من الاتربة في اثناء حفرهم الخنادق . وبعد اربع سنوات قاموا بالعملية نفسها في حصار دورازو . ويقول المؤرخون ان اكبر خندق حُفر في ذلك الحين هو الذي حفره جيش كراسوس في جنوب ايطاليـا الشرقي وقد بلغ طوله من ضفة الى اخرى ٥٥ كيلومتراً بعرض اربعة امتار ونصف المتر وعمق اربعة امتار ونصف المتر .

وفي حقـل الهندسة يمكن القول ان الرومان لم يحرزوا

انتصاراتهم في عهد قيصر بفضل جيوشهم وحسب ، بل بفضل معسكراتهم وشبكة طرقهم : فالمعسكرات كانت تحميهم من هجمات العدو ، والطرق كانت تتيح لهم الانقضاض على هذا العدو بسرعة مدهشة .

ولقد اتاح ظهور السلاح الآلي الاقتصاد بارواح البشر ، وجعل مهمة الجندي سهلة نسبياً ، ولكنه حدّ من روح المبادرة وقضى على روح الشجاعة . وقد ترتب على هذا وذاك امران اولهما اشتداد الحاجة الى قيادة عليا ممتازة ، والآخر اتخاذ الحرب طابعاً بربرياً .

وكان يوليوس قيصر قائداً نابغاً ، يصمم بسرعة ، ويعتمد عنصر المباغتة في حالتي الهجوم والدفاع الهجومي . ولكنه كان بطاشاً لا يرحم ، وكانت فتوحاته سلسلة مجازر . وفي عهده تدهور روح الشجاعة وتدهورت معه الفروسية بمفهومها الاصيل . قال « بوليب » مقارناً بين الاغريق والرومان : « كانت الحرب بالطريقة الاغريقية اكثر انسانية منها بالطريقة الرومانية . وعندي ان من يتلف الاشياء (يقصد تدمير المدن واتلاف الزرع والضرع) التي يحارب في سبيل احرازها هو مجنون ومجنون خطر » .

وعند نشوب الحرب الاهلية المنذرة بزوال الجمهورية الرومانية عمد اغسطس قيصر ، اول الاباطرة الرومان (العام ٦٣ ق . م و ١٤ ب . م) الى تنظيم الجيش على اساس جعله ثلاث فئات : الفرق

النظامية ، الفرق المساعدة ، الحرس البريتوري . وقد ضمت الفئة الاولى المواطنين الرومان ،والفئة الثانية المحاربين الاجانب وكان منهم الفرسان وحملة الاقواس ؛ اما الحرس البريتوري فقد كان يتألف من عشرة افواج قوام كل منها الف رجل .ومنذ العام ٧٠ ب.م بطل التجنيد في ايطاليـــا نفسها ، وبقي الانتماء الى الفرق النظامية وقفاً على المواطنين . ومجمل القول ان اغسطس قيصر انشأ دولة عسكرية وحصر القيادة بشخصه . وكان عليه وعلى الذين ارتقوا العرش بعده حتى سنة ٢٥٠ ميلادية الدفاع عن سلامة الامبراطورية ، وهو دفاع يتطلب الاكثار من انشاء التحصينات على الحدود . وقد انشأ اغسطس جيشاً ضخماً قوامه ٣٨٠ الف رجل نصفهم من المواطنين والنصف الآخر من المساعدين ، ووزعهم على ٢٥ مجموعـــة ترتكز كل واحدة منها على قاعدة عسكرية سميت «كاستلوم» ، وعمل على تحصين الحدود ، وربط بينها بشبكة من الطرق .

وهكذا تبدلت مهمة الجيش الروماني، فبعد ما كان معداً للحرب وبسط سيطرة روما، بات معداً للحفاظ على السلم والاوضاع الراهنة . وتلاشت الشجاعة الرومانية يمليها حب الوطن او الرغبة في احراز الغنائم . وقد ترتب على هذا التحوّل الخطير انتشار الروح السلمي وجعل الامبراطور تحت رحمة الجيش .

وفي هذا يقول الشاعر « بترون » واصفاً تأثير زوال روح الشجاعة :

« ... لقد كان حب المال وراء ذلك التحوّل الخطير . وبعد زوال الخوف (يقصد حرب الفتوحات) انصرفنا نحن الرومان الى الخمرة والنساء ، وفقدنا القدرة على تعهد الفنون التي ازدهرت في عهد اسلافنا . لم نتعلم سوى الرذيلة ، ولم نتقن سوى ممارستها وتعليمها . فهل من عجب بعد هـذا ان ينحط فن التصوير والرسم ؟ ان سبيكة ذهبية هي اثمن ، في نظر الآلهة والبشر ، من كل مـا انتجته عبقرية الاغريق امثال فيدياس وابيـل واضرابهما [1] » .

وفي العام ١٧٥ اعطى المفكر الاغريقي اريستيد عن واقع عصره الوصف الآتي : « يبدو الكون وكأنه في اجازة ، فهو قد نزع عنه ثوبه الفولاذي القديم واختـار بديلاً عنه ثوب الاستمتاع الفضفاض . والمدن التي كانت في نزاع مستمر دفنت احقادها، واضحى هاجسها الوحيد توفير اسباب السلوى والرفاهية لابنائها. ففي كل مكان ميادين للالعاب ، وعيون ماء ،وانصاب، وهيا كل،ومحترفات، ومدارس ... ان العالم المريض منذ الخليقة

١ عندما اثيرت في مجلس العموم البريطاني، بعد ظهر ٢٦ ايار ١٩٤٤، مسألة منع الولايات المتحدة من شراء النتاج الفني البريطاني ، صرح النـائب ماكلارين بقوله : « لقد تبدلت عقلية الناس خلال السنوات الاخيرة بحيث اضحت الفنون موضع الهزء والسخرية، وصار مواطنونا يفضلون عليها مشاهدة سخافات هوليود مرتين في الليلة الواحدة » .

قد تعافى ... فلكي تحيا حياة هانئة يكفي ان تكون رومانياً » .

وقد تأثر بهذه النزعة السلمية، اكثر من تأثر، الفرق الرومانية والحرس البريتوري ، فضعفت حركة الانخراط في الجيش ، وازدادت الحاجة الى تجنيد البربر بالالوف . وسرعان ما زالت عن الجيش صفته القومية ، واضحى الاباطرة تحت رحمة الجنود غير الرومانيين .

وفي تلك الاثناء (٢٥٠) اجتاح الالمان والفرنجة بلاد الغول ، فكان ذلك بداية الغزوات الكبرى . ولما وجد الامبراطور ديوكليسيان ان لا سبيل الى الاعتماد على وسائل الدفاع وحاميات الحدود (٢٥٠ الف راجل و ١١٠ آلاف فارس) ، انشأ جيشاً احتياطياً قوامه ١٥٠ الف جندي و ٤٦ الف فارس. ورغبة منه في جعل الفرقة اكثر مرونة، خفض عدد رجالها الى الالف ، وضاعف عدد حملة السهام والمقاليع وآلات الحرب الاخرى. الا ان القبائل الجرمانية واصلت زحفها في عهد ديوكليسيان . وبين الاعوام ٣٦٤ ـ ٣٧٥ اوقفها الامبراطور فالنتنيان الذي عهد الى اخيه فالنس بادارة شؤون المناطق الشرقية جاعلاً منه شريكاً له في الملك . وقد سمح فالنس للقوط بعبور نهر الدانوب طمعاً بضمهم الى جيشه . ولكن المعاملة السيئة التي عومل بها هؤلاء جعلتهم يثورون ، ويمعنون في تراقيا سلباً ونهباً .

وقد وصف البروفسور اومان تسلح القبائل الجرمانية ، فقال ان الجنود كانوا يحملون تروساً ذات طارات من الحديد ، ورماحاً وسيوفاً قصيرة محددة الرؤوس ، وسيوفا طويلة قاطعة. وكان فريق منهم مسلحاً بفـــأس صلبة يمكنها اختراق الترس والدرع الرومانيين .

وكان اسلوب القوط في القتال شبيهاً باسلوب قبائل الهون (وجماعات البوير في القرن التاسع عشر) . كانوا يتخذون من المركبات متاريس . اما سلاحهم الرئيس فقد كان خيالة مدرّبة على الصدام . ولم يكن لدى القوط مدفعية صالحة لحرب الحصار ، فرأينـــاهم يرتدّون عاجزين عن المدن الحصينة ، وقلما احرزوا انتصاراً حاسماً .

ولما اجتاح القوط تراقيا كان فالنس في انطاكية ، فعـاد مسرعاً الى القسطنطينية ، وسيّر حملة على القبائل الثائرة بقيادة سبستيانوس الذي هاله « ما لمس من تدهور معنويات الجيش ، فاختار الفي رجل قابلين للاصلاح ، وانطلق على رأسهم يناوش العدو ويعرقل زحفه » . وبعد اسابيع لحق به فالنس على رأس جيش لجب . ولدى وصوله الى ادرنة نصح له سبستيانوس بالاعتصام وراء اسوار المدينة ، ولكن فالنس لم ينتصح ، ومشى الى لقاء العدو ، فتواجها في ٩ آب ٣٧٨ .

كان جيش فالنس هو البادىء بالهجوم ، فتصدت له الخيالة القوطية بقيـــادة ألاتوس وسفراكس منحدرة من الجبل

« وانقضت عليه انقضاض الصاعقة » ، ولم تلق كبير عناء في افناء الجيش الروماني المتفكك ، غير القابل للتنظيم ، فهلك منه اربعون الفاً ، فكانت كارثة فريدة في تاريخ روما . ويقول البروفسور مارتان بانغ في صدد هذه الكارثة ان الامبراطورية اهتزت من اساسها « وقد شاع الذعر في كل ما يحمل شعار روما ، وبدا على قوة الامبراطورية وامجادها انها استحالت هباء بفعل قبائل البربر . لقد رفعت معركة ادرنة الستار عن الفصل الاخير من المأساة الكبرى » .

وقد ابرزت موقعة ادرنة :

١ ـ ان الشجاعة هي الميزة الاولى في الصدام ، وان العودة الى القوة البربرية لم يكن منها بد لانعدام القواعد المنقبية ؛

٢ ـ ان تكتية الكتيبة والفرقة قد استنفدت اغراضها وباتت الحاجة ماسة الى تكتية جديدة .

كان المشاة العنصر المتفوق ايام كانت اسلحة الصدام وافية بالمرام ، ولم تكن الخيالة خطراً كبيراً على مشاة متماسكي الصفوف . بيد ان انتشار استعمال المقذوفات ادى الى اشاعة الفوضى وانعدام اللحمة ، فبرزت الخيالة عنصراً اساسياً في المعركة بعد ما تعذر على الرماة بالقوس والمقلاع حماية انفسهم لاستحالة حملهم التروس في الوقت ذاته . وهكذا واجه المتحاربون مسألة معقدة هي تنسيق قوة النيران والصمود في وجه الخيالة . وسنرى في فصل آتٍ ان هذه المسألة لم تحل الا في

منتصف القرن التاسع عشر .

وعندما خرّب القوط روما بقيادة ألاريك بعد مضي ٣٢ عاماً على موقعة ادرنة ، اوحت الكارثة الى القديس اوغسطينوس ، وقد آلمه النبأ ، كتابه العظيم « مدينة الله »، وهو الكتاب الذي بعث روح الشجاعة في عصر الفروسية خلال حقبة من الانحطاط والفراغ .

الفصل الثالث

عصر الفروسية

لم يكن تأثير تباين الحضارتين الاغريقية واللاتينية في مجرى التاريخ اقل من تأثير الغزوات الكبرى . فبينا كانت الحروب تقوّض ، في الغرب ، التنظيم العسكري الروماني (اي الوحدات العسكرية المنظمة) وتقوّض معه النظام الوثني المرتكز عليه ، ملجئة بذلك الكنيسة اللاتينية الى البنيان على انقـــاض الصرح البربري ، لم يشهد الشرق انهياراً عسكرياً كاملاً ، فظل النظام الوثني قائماً في الامبراطورية الشرقية ، ولكنه اخذ يتطور نحو النصرانية . وبزوال التنظيم العسكري في الغرب، غدت الشجاعة بشكلها البدائي غاية ما يطمح اليه الجندي، بل غدت مثله الاعلى؛ اما في الشرق فتقدمُ التنظيم العسكري أحلّ ذكاء الجندي المحل الاول . وبقدر مـــا تضاءل في الغرب شأن التكتية والتسلح ، تعاظم شأنهما في الشرق،فبلغا درجة من الكمال لم يبلغاهـــا مرة اخرى قبل القرن التاسع عشر .

في الغرب اضطر الرومان،تحت ضغط غزوات البربر،الى اعتماد استراتيجيا دفاعية قائمة على الحركة ، مستبدلين الخيالة من المشاة .

وفي منتصف القرن الخامس توارت الفرقة الرومانية (اللجيون) وغدت الخيالة السلاح الفعّال الوحيـــد . وهكذا ترك السيف والمزراق مكانهما للرمح والقوس . وفي موقعة حقول قطلونيـــة العام ٤٥١ بين الرومان والهون اقتصر القتال على مصادمـــات عنيفة بين خيالة الفريقين ، ووقف المشاة يتفرجون وكأن الامر لا يعنيهم . وبات دور المشاة مقصوراً على التموين ، وعـــلى القتال في المناطق الجبلية والحرجية كوحدات خفيفة . وبَطُلَ استعمال الزرد لانه كثير التكاليف ويعوق حركة الفـارس . وعندما استرد الزرد اعتباره في القرن السادس بدا بشكل جديد ، محكم الصنع ، مرناً ، لا يزعج المتدرع به ولا يعوق حركاته .

كان المجتمع الغربي في ذلك الحين غارقاً في الفساد . يقول في هذا ويليام ليكي : « لا يمكن اعطاء صورة عن مجتمع هذا العهد تفوق ببشاعتهـــا الصورة التي اعطاها عنه غريغوار دو تور (٥٨٣ – ٥٩٤) ، ولكن عالم الاجرام ذاك لم يخلُ من ملوك وملكات واساقفة جعلوا شعارهم في الحياة اغاثة الملهوف وإطعام الفقير » .

ووسط هذه المفارقة بزغ فجر عهد جديد ما لبث ان اتخـذ اتجاهين يكمل احدهما الآخر على كونهما متعارضين : الاتجـاه الاول تمثله كنيسة المسيح وقد اكتشف فيها فريق من الناس ، في بحثهم عن مثل اعلى يستندون اليه ، نظاماً منقبياً رائعاً ؛ اما الاتجاه الآخر فيمثله مجتمع جديد انشأه النظام الاقطاعي ، مجتمع

لا يمكن ان يونع بدونه الاتجاهُ الاول ويبقى ، لانه كفل له السلامة والطمأنينة . ولكن لما كانت الكنيسة وكيل الله على الارض والدولة تجسد السلطة الزمنية ، فسيطرة الدين سيطرة مطلقة لم تكن ممكنة بغير اخضاع الحرب والسلم لقوانين الكنيسة وتعاليمها .

ومن سعي الكنيسة الى فرض هـــذه السيطرة نشأ مفهوم للحرب جديد . فقـــد اعتبرتها القرون الوسطى احتكاماً الى السلاح ، وجعلت الكنيسة الحـَـكـَم الاخير ، تصدر قراراتها باسم الله . وعملاً بهذه النظرية لم تعد الحرب شراً كلهـــا ، بل اعتبرت ظاهرة طبيعية ، وثمرة من ثمار الخطيئة الاصلية، احدى دعائم قوة الكنيسة . وعلى هذا غدت النصرانية الوسيلة الوحيدة القمينة برسم حدود الحرب ، وتلطيف اساليبها ، وتقصير امدها ، وجعل حرفة السلاح روحانية الى حد ما .

الحرب تعلم البشر ان يموتوا ابطـــالاً ، فهي اذاً مدرسة للبطولة : ذلك كان المثل الاعلى الوثني . اما والموت هو باب الحياة الابدية ، فالحرب يجب ان تكون مـدرسة الصدق والاستقامة ، وإلا كان الموت طريق اللعنة الابدية : تلك كانت وجهة النظر المسيحية .

ولقد صار الجندي التقليدي ، الفارس المسيحي الامثل ، « فارساً يقرن الى قوة محارب العهود القديمة واندفاعه شيئاً من عذرية القديس المسيحي واتضاعه » ، على حـــد تعبير ادوارد

هرتبول ليكي . « وغني عن القول ان هذا المثل الاعلى – وهو وليد المخيلة ككل مثل اعلى – قلما تحقق في الحياة كما يجب ان يتحقق . الا ان ذلك لم يمنع بقاءه امنية اجيال عدة ، حتى اننا لنلمس تأثيره الملطف في طباع الرجل الخلوق المعاصر » .

اما وقد اتسمت حرفة السلاح بطابع روحاني ، فلم يبق الا الحد من نشاطاتها بعقوبات وضوابط معينة . واول تدبير اتخذ في هذا الباب هو فرض « سلم الله » العام ٩٩٠ ، وكانت غايته حماية ممتلكات الكنيسة والاكليروس والحجاج والنساء والفلاحين ، فضلاً عن المواشي والادوات الزراعية . وفي العام ١٠٢٧ فرض مجمع ايلن ، على ما جاء في دائرة المعارف البريطانية : « هدنة الله ، محظراً كل عمل حربي من السبت ظهراً حتى فجر يوم الاثنين . ثم امتد اجل الهدنة من الاربعاء مساء حتى صباح الاثنين . وفي مجمع كليرمون الذي التأم العام ١٠٩٥ اعلن البابا اوربانوس الثاني ، صاحب فكرة الحملات الصليبية ، هدنة اسبوعية في العالم المسيحي كله ، وزاد عليها ضمانة خاصة لمصلحة كل من يلجأ الى مكان يعلوه صليب او من يكون وراء سكته » .

ولإعطاء هذا القرار طابعاً جدياً فرض المجمع عقوبات دينية على المخالفين (كالحرم والحظر الموقت ، الخ ...) ومع ان النتائج لم تكن مشجعة ، فقد كان للعقوبات مفعولها ، لانها وسمت المعتدي بسمة الخارج على تعاليم الكنيسة ، فبات في نظر المؤمنين مجرماً .

وحدّ نظام الاقطاع من ويلات الحرب وفظاعتها ، فظهر في القرن العاشر اتجاهان جديدان : الاول يقضي بجعل حرفة السلاح مقصورة على النبلاء ، وباخضاعها لقواعد مستمدة من تقاليدهم ؛ اما الاتجاه الآخر فقد تمثل بالفدية التي اتاحت للاسير ان يفتدي حياته او حريته بالمال ، وللمدينة ان تدفع ثمن امتناع الغزاة عن اعمال النهب والسلب فيها . واعترفت الشرائع بحق الفدية الذي استحال مع الايام تجارة حقيقية ، وغدا همّ المحاربين لا ان يقتل بعضهم بعضاً ، بل ان يأسر كلٌ منهم اكبر عدد من الاعداء طمعاً بالفدية .

اين الحرب الشاملة ، الحرب المدمرة في عصرنا ، من تعليمات هنري الخامس ملك انكلترا الى جيشه ؟ قال : « محظور على المقاتلين دخول مسكن امرأة منصرفة الى العناية باولادها بقصد الاستيلاء على ما لديها من مواد غذائية . ويعاقب عقاباً شديداً من يأتي افعالاً من شأنها اشاعة الرعب في نفس الام والولد او التسبب في وقوعها فريسة المرض .

« لن يجرؤ مقاتل ، اياً كانت مآتيه في ساحة القتال ، على مصادرة سكة رجل يحرث الارض او يسلفها (يمهدها للزرع) ، او جواده او ثوره او حيوان آخر اليف في حوزته .

« ولن تمتد يد مقاتل الى مسكن لحرقه ، ولن تمتد بسوء الى شجرة تفاح او خوخ او جوز وسائر الاشجار المثمرة » .

ويمكن القول ان المحاربين عموماً تقيدوا بهذه التعليمات

واشباهها ، وما اهملوا العمل بها الا في الحرب المذهبية ، وحرب الثلاثين سنة ، وبعد انهيار السلطة البابوية .

ونشأ من روحانية الحرب عاملان اضافيان ساعدا على تخفيف ويلاتها . فمن جهة انحصر اقتناء عدة القتال بالاثرياء والنافذين مما اضفى على الحرب طابعاً ارستوقراطيـــاً ، ومن جهة اخرى فرضت طبيعة العدة القتال صدرا لصدر ، ففقدت اسلحة الرماية اهميتها ، وتدنت بالتالي نسبة القتلى . ويقول مؤرخو العصر ان المعارك استحالت مناوشات بين مجموعات صغـــيرة من الفرسان المدرعين ، همهم اظهار جدارتهم في مضايقة العدو اكثر من اظهار قدرتهم على الفتك به . وفي حالات كثيرة اتخذت المعارك شكل مبارزات اسلحتها مفاولة ، والغلبة فيها لمن يلقي بخصمه ارضا او يقتلعه عن صهوة جواده بطريقة ما .

وقد فقدت اسلحة الرماية اهميتها بعد ما دعت الكنيسة الى الحد من استعمالها . وحظرت الكنيسة صراحة استعمال القسي التي شاع استعمالها في القرن الحادي عشر ، والتي كانت اشد اسلحـة الرماية فتكاً قبل ظهور القوس الانكليزية . وعنـد التئام مجمع لاتران الثاني اثير موضوع اسلحة الرماية ، فحظر المجمع استعمال القسي تحت طائلة الحرم، ولكنه اجاز استعمالها ضد غير المؤمنين . ووصفهـــا بانها السلاح « الذي لا يحسن في عيني الله ، ولا يليق بالنصارى ان يقتتلوا به » .

وحظر المجمع كذلك الاستعانة بجملة قسي اجانب . وكان

ريكاردوس قلب الاسد يعتبرها سلاحاً حربياً ممتازاً ، وقد ضمّن حملته الصليبية الف مقاتل يحسنون الرماية بها[1] . وحذا حذوه قادة آخرون ، فما خلت حملة من الرماة بالقسي ، سواء اكان الاعداء مؤمنين ام غير مؤمنين ، بحيث ظل قرار مجمع لاتران الثاني حبراً على ورق .

وشذت انكلترا التي كان شائعاً فيها استعمال القوس الانكليزية او العادية[2] .

ولادراك اهمية العوامل التي اسهمت في تلطيف اساليب الفتك والدمار ، لا بد لنا من الاحاطة بتلك الاساليب .

ففي القرن الثامن دشن شارلمان عهداً جديداً في فن القتال ، عهداً رومانطيقياً على حد تعبير « اومان » ، او كما يقول « ليكي » : « لم يعد الناسكُ بطلَ المخيلة الاوروبية ، فقد انتزع منه هذا

١ جدير بالذكر ان الصينيين استعملوا القسي على نطاق واسع في الحرب الصينية اليابانية التي استمرت من ١٨٩٤ — ١٨٩٦ .

٢ لم ترق الاختراعات الجديدة في اعين المحافظين والمتدينين « فالمؤمن كان ولا يزال يعتبر الآلة اختراعاً شيطانياً » ، على حد قول اشبنكلر .

وحتى الامس كانت الشعوب الآرية تفضل اساليب القتال المتعارف عليها على الاساليب التي تتنافى والقواعد المنقبية كالتي تقوم على الخداع والتضليل ، وشاهدنا على ذلك ما يقوله « مانو » في قانون الحرب ، الفصل السابع ، ص ٩٠ : « لن يعمد الملك الى اهلاك اعدائه باسلحة مضللة او مسمومة ، ولا باسلحة تحمل شفراتها النار او تطلى بمواد حارقة » . وعملا بهذا المبدإ رفض التوتون الأول استعمال القسي (السهام المعدنية) في حروبهم .

الامتياز الملك والمحارب والفارس » . فقد ولى عهد الزهـــد والاستشهاد ، واطل عهد الصليبية والفروسية .

واينع طابع الحرب الرومانطيقي مع فتوحات شارلمـــان الذي بدأ عهده بتنظيم الاقطاعات القـــائمة رغبة منه في دعم امبراطوريته [1] .

وللحفاظ على سلامة امبراطوريته الممتدة من نهر الايلب حتى جبال البرانس ومن بحر المانش حتى روما ، استخدم شارلمـان المراكز المحصنة على نطاق واسع ، فانشأ في كل منطقة مدنـــاً مقفلة تصلح محوراً لمناورات القوات المتحركة المؤلفة من الخيالة المدرعة. وعني شارلمان بالمشاة، فجهزهم بالسيوف والرماح والقسي. وفرض على كل نبيل ان يسلح فرسانه بالزرد والرماح والسيوف

١ يمكننا اكتشاف جذور نظام الاقطاع في وصف تاسيت للقبائل الجرمانية ؛ انه يقول : « في ميدان القتال كان من العار على المرؤوس ان يقصر عن بلوغ شأو رئيسه في المضمار نفسه . لقـــد كان على المرؤوسين ان يساعدوا رئيسهم ويحموه ، بل كانت مهمتهم الاولى تقوية دعائم اعمـاله المجيدة بمآتيهم الرائعة. فالرئيس يقاتل من اجل النصر، والمرؤوسون من اجل رئيسهم. يطلب المرؤوس من رئيسه عدة القتال والسيف القاطع ، ولا يطمع في اجر ، بل يطمع في غذاء بسيط ، ولكن سخي » .

وفي روح الشرائع يتحدث مونتسكيو عن نشوء الاقطاع والتبعية فيقول : « بدأ الامير باعطاء النبلاء السلاح والمؤن. ثم راحوا يطالبونه بالمال والارض يستغلونها ، ومع الايام تملكوا الارض وحولوها الى اقطاعات . وهكذا نشأ نظام الاقطاع » .

والخناجر والقسي .

وادرك شارلمان ان جيشاً معداً للحركة والمناورة يجب ألاَّ يعتمد في تموينه على البلاد التي يعمل فيها وحسب ، بل على ما يتلقاه من المؤخرة ، فانشأ لهذا الغرض دائرتي نقل ، مهمة احداهما مدّ قوات الحصار بما تحتاج اليه ، ومهمة الاخرى نقل مواد غذائية تكفي الجيش ثلاثة اشهر ، والبسة وتجهيزات اخرى تكفيه ستة اشهر .

ووجه شارلمان عناية خاصة الى العدة الوقائية (الزرد والطاسة والدرع ، الخ ...) فأمر باحصاء الموجود منها في مملكته ، وحظر اخراجه منها تحت طائلة العقاب الشديد . وقد اعطى الراهب سان غال الصورة الآتية عن جيش شارلمان :

« ... عندئذ برز الملك وكأنه جسم من المعدن المتحرك : يغطي رأسه ووجهه قناع حديدي ، وذراعيه كمّان من الحديد ذي المفاصل ، وصدره زرد حديدي ، في يده اليسرى رمح معدني ، ويده اليمنى على مقبض السيف . ويغطي ساقيه زرد يصل الى الكاحلين . اما ترسه فقد صنع من الحديد الخام ، وكان بسيطاً لا نقوش عليه ولا شعارات . وقد احاط بالملك رجال غارقون في الحديد . وكانت اشعة الشمس تنعكس على هذا الجيش المدرع ، فيبدو ملتمعاً وكأنه واحة في الصحراء » .

وقد بدأت غزوات النورمنديين بعد ارتقاء شارلمان العرش ببضع سنوات ، واتسع نطاقها بعد وفاته (عام ٨١٤) . وفي

منتصف القرن التاسع ركب البحر جميع السكان الذكور في اسكنديناڤيا، واعملوا في اوروبا السلب والنهب طيلة نصف قرن.

وتحت ضغط غزوات النورمنديين حافظ الذين خلفوا شارلمان على المؤسسة العسكرية التي انشأها وعملوا على تعزيزها، مستعينين على درء الخطر بالمحاربين المحترفين، لان المجندين المحليين عجزوا عن وقف تيار الغزاة. وقد اثبت الفرسان انهم اصلح العناصر لمواجهة الاعداء بالسرعة اللازمة، مما جعل القوة العسكرية تنتقل شيئاً فشيئاً الى ايدي النبلاء. ولوقف الزحف النورمندي، شيّدت القصور واحيطت بنقاط الارتكاز، واقيمت الاسوار حول المدن، والجسور الحصينة فوق الانهار.

ومن ذلك العهد المضطرب الذي جاءت في اعقابه الغزوات المجرية في القرن العاشر، نشأ مجتمع عسكري الطابع، عماده الحصون والاسوار والفارس الغارق في الحديد. ومن هذا المجتمع انبثق النظام الاقطاعي.

وفي انكلترا، ركز الملك الفرد (٨٤٨ — ٩٠٠) دفاعه على القلاع والقصور الحصينة والمدن المسوّرة، ولكنه لم ينشيء خيالة مدرعة يواجه بها النورمنديين، بل انشأ اسطولاً، وهزم الغزاة بمثل سلاحهم. وهكذا ظل المشاة في انكلترا العنصر السائد، بينما كانت القارة تعزز الخيالة على حساب المشاة.

وكانت حملات « غانج رولف » اهم ما قام به ملوك انكلترا بعد انشائهم الاسطول. فقد عبر غانج رولف البحر متجهاً غربا

نحو فالاند (بريتانيا) فاجتاح المقاطعة التي كانت تقطنها جماعات النورمنديين وتحمل اسمهم (نورمندي) . ولا يذكر التاريخ شيئاً عن نشاط غانج رولف قبل العام ٩١١ ، ففي هذا العام استولى على مدينة روان ، واضحى تابعاً لملك فرنسا شارل الملقب بالساذج Charles le Simple الذي منحه دوقية نورمندي.

وغليوم الفاتح هو احد احفاد رولف ، وقد كان انتصاره في موقعة هاستنغس العام ١٠٦٦ على هارولد ملك انكلترا مثالاً حياً على تأثير التاريخ في التسلح .

ففي هذه الموقعة التي فصلت في مصير انكلترا ، تواجه جيشان مختلفا التركيب والسلاح . فالجيش الانكليزي كان العنصر الغالب فيه وحدات راجلة (المشاة) سلاحها السيف والفأس والرمح والدبوس . وكان حرس هارولد الخاص يعتمر بالخوذ ويلبس الدروع ويحمل تروساً لها شكل طيارات الورق . وكانت الفأس السلاح الرئيس . اما جيش غليوم الفاتح فقد كان مؤلفاً من ثلاث وحدات كبيرة: الخيالة ، والمشاة ، وحملة الاقواس. وكان الفرسان والمشاة مدربين ومجهزين بتروس لها شكل طيارات الورق . وكانت اسلحتهم الرئيسة : السيف والرمح والقوس .

ادرك غليوم منذ اللحظة الاولى انه يملك السلاح الاقوى ، فقال مخاطباً قواته : « أليس من المخجل ان يجرؤ شعب اعتاد الخضوع والاذعان ، وليست له معرفة بفنون الحرب ، وحتى السهام لا قدرة له على تدبرها ، - أليس من المخجل ان يجرؤ

شعب هذا شأنه على ان يواجهكم ويدخل معكم في قتال [1] ؟ »

وقد اعتمد كلا الفريقين ترتيباً تكتياً مختلفاً عن ترتيب الفريق الآخر . فهارولد اقام سياجاً من التروس ؛ اما غليوم فقد جعل جيوشه ثلاثة اقسام : ميسرة وقلب وميمنة ؛ وقسّم كلًا منها ثلاثة الوية ، جاعلاً حملة الاقواس في الطليعة ، ويليهم المشاة ، ثم الخيالة .

بدأت المعركة الساعة التاسعة صباحاً ، ومرّت بمراحل اربع :

أ ـ هاجمت خيالة غليوم ، تحت غطاء من السهام ، سياج التروس في جيش هارولد ، ولكنها رُدَّت على اعقابها . واعادت الكرة مراراً ولكن دون جدوى . وانسحبت الميسرة بغير انتظام ، ولحق بها جيش هارولد . إلا انه اضطر الى الانكفاء لاصطدامه ومشاة غليوم ؛

ب ـ شنّ غليوم هجوما عاماً ، فثبت سياج التروس مرة اخرى ؛

ج ـ تظاهر غليوم بالتراجع فلحق به هارولد ، ولكنه لم يحرز تقدماً ما ، وبدا الاعياء على الجيشين ؛

د ـ ادرك غليوم ان لا قِبَل له بالقضاء على خصمه بهجوم

[1] يبدو غريباً ان الانكليز ما اعتمدوا القوس سلاحاً قط ، مع انها كانت احد الاسلحة الرئيسة في جيوش الامم البحرية كآثينا واسكندينافيا وجنوى ، الخ...

جبهي ، فامر حملة الاقواس بان يطلقوا سهامهم في الفضاء بدلاً من رشق العدو بها مباشرة « بحيث تؤلف شبه سحـــابة تنشر الظلام فوق صفوف الانكليز » . فاعطت هذه التكتية نتائج هائلة وسريعة ، « فخرقت السهـــام الخوذ ، واضطر جنود هارولد لحماية رؤوسهم بتروسهم ، مما اعاق حركات ايديهم الممسكة بالفؤوس » . وهكذا انهار سياج التروس ، ففتحت فيه الخيالة ثغرة كبيرة ، وربح غليوم المعركة .

لقد اثبتت موقعة هاستنغس ان خيالة ممتازة تعجز عن فتح ثغرة في صفوف مشاة ممتازة ، وان مشاة ممتازة تعجز عن مهاجمة خيالة ممتازة ، وان مشاة مجهزة باسلحة الالتحام تقف عاجزة حيال صدام تدعمه النيران (اسلحة الرماية) . ولا ريب في ان الرماة بالقوس ما كانوا ليثبتوا في الميدان امام مشاة هارولد لو لم تدعمهم الخيالة .

وفي موقعة هاستنغس اثبتت القوس تفوقها ، وكان غليوم اول فاتح غربي اعتمدها ، مع انهـا كانت السلاح الرئيس في الشرق . ومن هنا كان التساؤل عما حمل الغربيين على اغفال شأن القوس قرنين بل ثلاثة قرون بعد انتصار غليوم الفاتح ، وعما جعل الفرسان الغربيين يترددون طويلاً في استعمالها ؟ يعتقد المؤرخون ان مرد ذلك الى تعارض اسلحة الرماية مع المثالية الغربية . اما الشرق فقد كان اعتماده عليها بالدرجة الاولى .

انتصر جيش يوستنيانوس على القوط بفضل اسلحة الرماية

ولاسيما القوس . وقد قال في هـــذا قائده بليزير Bélisaire :
« نختلف نحن عن اعدائنا القوط بكون فرساننا الرومانيــين وفرسان حلفائنا الهون يتقنون استعمال القوس وهم ممتطون صهوات جيادهم ، اما القوط فجهلهم بهذا النوع من الرمـــاية يكاد يكون تاماً . ان فرسانهم يتقنون استعمال السيف والرمح ؛ اما حملة الاقواس فانهم يؤلفون وحدة مشاة ثانوية تقف وراء الفصائل الثقيلة . وفي المعارك التي نشبت بيننا وبينهم لم تــأتِ خيالتهم عملاً مذكوراً الا عند الالتحام ، ولكن كان من اليسير علينا تشتيت صفوفها قبل بلوغ هذه المرحلة ، لان حملة الاقواس يظلون عاجزين عن حمايتها لاحجامهم عن ترك المراكز المعينة لهم في المؤخرة » .

وقد شبّه بعض المؤرخين موقعة « تاجينا » التي هزم فيها العام ٥٥٢ الخصيُّ نرسيس ملكَ القوط بادولا بمعركة كريسي التي هزم فيها ادوارد الثالث الملك فيليب دو فالوى . فقد حشد نرسيس عشرة آلاف فارس راجل جاعلاً لهم جناحين متقدمين بحيث اتخذ جيشه شكل هلال يعززه اربعة آلاف من حمـــلة الاقواس ، وحشد وراء قلب الجيش احتياطياً قوامه فرسان راكبون .

وبدأت المعركة بانقضاض جيش القوط على فرسان نرسيس الراجلين ، فصده حمـــلة الاقواس وكبدوه خسائر جسيمة . وقبل ان يلم شتاته ليعود الى القتال ، هاجمه الفرسان

الراكبون واجهزوا عليه .

« وهكذا اقترنت بالنجاح التام التجربة الاولى لاستخدام القوس والرمح في وقت واحد » .

ويمكن القول ان الامبراطورية البيزنطية تمالكت نفسها طيلة الف سنة بالرغم من تفسخها وضعفها الداخلي ، لا بفضل بطولة شعوبها ، بل بفضل تنظيمها العسكري الممتاز ، وهو تنظيم كانت اوروبا الغربية تفتقر اليه . وقد ردّ المؤرخون تفوّق الامبراطورية البيزنطية في هذا المضمار الى غناها ومناعة مدينة القسطنطينية التي لا تجارى بصفة كونها قلعة حصينة ، والى تقنين الفن الحربي في عهد الامبراطورين موريس (٥٦٢ – ٦٠٢) وليون الحكيم (٨٨٦ – ٩١١) ، مما كفل لجيوش الامبراطورية استقراراً لم تنعم بمثله جيوش الغرب .

وضع الامبراطوران موريس وليون الحكيم قواعد الاستراتيجية والتكتية ، فبطلت النظرة البطولية الى الحرب ، وحلت محلها نظرة محض تطبيقية ، وبات همّ القادة تفادي المعركة بعد ما كان همهم استدراج العدو الى خوض غمارها ، وغدت التضحية بالرجال في سبيل احراز انتصارٍ يمكن احرازه بالحيلة دليلاً على جهل القيادة وعجزها .

وقد كانت جيوش الامبراطورية مؤلفة من الخيالة والمشاة والمدفعية . وكان الفرسان يعتمرون بالخوذ الفولاذية ، ويلبسون الدروع ، ويحملون تروساً مستديرة . اما اسلحتهم فكانت

الرماح والسيوف والفؤوس ، واحياناً الدبابيس . وكانت المشاة المنظمة على اساس الفصائل فالسرايا فالافواج مقسومة قسمين : مشاة خفيفة ومشاة ثقيلة . فالفئة الاولى كانت تلبس الدروع ، وتقاتل بالرمح والسيف والفأس ، وتدفع الخطر بالتروس المستديرة ؛ اما المشاة الثقيلة فقد كانت مهمتها القيام على خدمة المدفعية ، اي الآلات القاذفة للحجارة والسهام والمواد الملتهبة . وكان هناك ثلاثة انواع من المدافع اهمها المنجنيق [١] . وكان لدى الجيش البيزنطي ، فضلاً عن ذلك ، سلاحٌ فريد سماه العقيد « هايم » بحق « ديدبان الامبراطورية » ، هذا السلاح هو « النار الاغريقية » ، او « النار البحرية » ، وهي مزيج من مواد تلتهب حالما تلامس الماء .

يقول العقيد « هايم » ، استناداً الى ما ورد في التواريخ القديمة ، ان مهندساً يدعى كالينيكوس فرّ من سوريا العام ٦٧٣ ولجأ الى القسطنطينية حيث توصل الى اختراع « النار البحرية » التي اتاحت للبيزنطيين تدمير الاسطول العربي عندما

١ للاحاطة بالتنظيم الكامل والتكتية في الجيش البيزنطي يمكن الرجوع الى شارل اومان في :

A History of Art of the War, pp. 169 - 226.

ويمكن العثور على وصف شامل لاسلحة القذف والرماية في :

The Projectile - Throwing of the Ancients, Sir Ralph Payne - Gallewey, (1907) .

حاصر المسلمون عاصمة الامبراطورية للمرة الاولى . ولم تعرف بالضبط المواد التي ألـّف بينها المهندس السوري جاعلًا منها « النار الاغريقية » . ويغلب على الظن ان اختراعه كان مادة زيتية تقـــذف بانبوب اعقف او محقن Seringue . وقـد عرفت قاذفات المواد الملتهبة في القرن الثاني او الثالث بعـــد المسيح ، ووصفها هيرون الاسكندري ، وذكر العقيد « هايم » نقلًا عنه ان الآلة التي استعملت في مطلع القرن الثالث لقذف المواد الملتهبة كانت مصنوعة من الخشب المبطن بالنحاس .

وورد ذكر « النار الاغريقية » في تاريخ بيزنطة المعروف باسم Alexiade [١] .

ونقل عنه العقيد « هايم » ان قائد الاسطول البيزنطي كان يضع في مقدم كل سفينة رؤوس سباع مصنوعة من البرونز او الحديد ومطلية بماء الذهب ومعدة لتخويف العدو . ومن بين اشداق هذه الحيوانات كانت قاذفات المواد الملتهبة تنفث حممها بواسطة الجهاز الخاص .

ولم يكن مستطاعاً دفع خطر « النار الاغريقية » او اتقاؤه في المعارك البحرية التي تنشب بين خصمين متقاربين ، لان اخماد النيران كان مستحيلًا . وقد اجمع النقاد العسكريون على

١ كتبت هذا التاريخ حنة كومنين ، وهو يشتمل على احـــداث ثلث قرن (١٠٨١ – ١١١٨) .

اعتبار « النار الاغريقية » سلاحاً حاسما . فبفضل استعمالها ارتدّ الاسطول الاسلامي عن القسطنطينية (٧١٧) ، وخسرت روسيا اسطولها مرتين (٩٤١ و ١٠٤٣) .

على ان بعض المؤرخين يخلط بين « النار الاغريقية » و« النار الطائرة » المركبة من النفط والكبريت والبنزين والزفت او القطران ، الخ ... وهو سلاح عرفه الشرق منذ عهد بعيد . ويلاحظ العقيد « هايم » ان مقطعاً واحداً ، من المخطوطات القديمة التي انكب على مطالعتها ، يميز « النار الطائرة » من « النار الاغريقية » ، وهو وارد في ملحمة نظمت في عهد ريكاردوس قلب الاسد ، وهذه ترجمته :

كان الملك ريكاردوس
يطلق نحو الاعالي نيراناً طائرة
ونحو البحر ناراً اغريقية
فتشتعل مياه البحر ...

وقد استخدم الملك ادوارد الاول « النار الطائرة » على انها « النار الاغريقية » في حصار استرلنغ كاستل عام ١٣٠٤ ، وفي مناسبات اخرى . وفي عصرنا يمكن ان نسمي ناراً طائرة النيران التي تنطلق من قاذفات اللهب [١] .

١ اجريت في الهافر العام ١٧٥٨ تجربة بواسطة مضخة تقذف زيت النفط ولها عند فوهتها ذبالة مشتعلة ، فيشتعل الزيت عند قذفه . وذكر برتلو =

وجدير بالذكر ان سر تركيب « النار الاغريقية » كان في حرز حريز . ولما احتل الصليبيون القسطنطينية بقي السر سراً بالنسبة اليهم ، إما لانهم لم يقدروا اهمية هذا السلاح ، او لانهم كانوا يحتقرون الاسلحة السرية ويترفعون عن استعمالها .

كانت هزيمة الامبراطورية البيزنطية في موقعة مانزيكرت العام ١٠٧١ اولى الهزائم ذات الاهمية الحاسمة . وقد اجمع المؤرخون على القول ان البيزنطيين خسروا الجولة ، لان الامبراطور ديوجينوس رفض اعتماد التكتية التي اعتمدها قبله الامبراطوران موريس وليون . وترتب على انتصار الاتراك تحسس اوروبا بالخطر الداهم ، فسارع البابا اوربانوس الثاني العام ١٠٩٥ الى استنفار العالم المسيحي معلناً الصليبية الاولى ، ولكن الحرب التي دعا اليها كانت مغامرة عجائبية اكثر منها مغامرة عسكرية ، لان الكنيسة عقدت حلفاً مع الله ، ووعدت جميع المؤمنين الذين ينضوون تحت راية يسوع بمغفرة الخطايا وبالحياة الابدية . وبهذا بلغت الفروسية قمة المجد .

وكما هي الحال في كل حرب عقائدية ، طغت الدعاوة في الحرب الصليبية الاولى على الاستراتيجية التي كانت غايتها

= في «مجلة العالمين» الصادرة في ١٥ آب ١٨٩١ ص ٨٠٠ انه امكن حرق قارب من مسافة متوسطة. وفي حصار تشارلستن عام ١٨٦٣ استعملت النار الاغريقية مجمدة وموضوعة في مواسير من الحديد الابيض ، كما استعمل زيت النفط موضوعاً في مواسير ذات مضخات او في قذائف مجوفة .

التدمير قبل احراز النصر [1] . وخلال هذه الحملات تفاقم انحلال النظام الاقطاعي ، فقد كان هناك العديد من الرؤساء ، ولكن الحملة الصليبية كانت تفتقر الى قيادة موحدة .

وفي جيوش ذلك العهد فقدت المشاة قيمتها التكتية . الا ان ذلك لم يمنع من سير عشرات آلاف الجنود الراجلين في اعقاب الفرسان ، لا ليؤلفوا صفاً من صفوف القتال ، بل ليعملوا على خلاص نفوسهم ، لان الفقراء والاغنياء باتوا متساوين روحياً .

اجتاز الصليبيون اراضي الامبراطورية البيزنطية ، ولكنهم لم يستخرجوا امثولة ما من الحروب التي كانت هذه الاراضي مسرحاً لها . وفي طريقهم الى آسيا الصغرى وجدوا في الفرسان الاتراك حملة الاقواس عدواً رهيباً تتكسر نصاله على الزرد المعدني ، ولكنها توقع بالمطايا خسائر جسيمة .

وفي موقعة دوريله العام ١٠٩٧ حيث دارت رحى معارك

١ يقول في ذلك كنسي رايت : « عندما تنشب الحرب من اجل فكرة او عقيدة يصعب تعيين حدود العمل التخريبي . فاذا كافح فريق من اجل الديموقراطية ، يكون من المناسب القضاء على البلاد المعادية وابادة سكانها او معظمهم بحيث تونع الديموقراطية في جو خلو من العراقيل . واذا نشبت حرب بين النصرانية والاسلام ، فقد يصمم كلاهما على ابادة خصمه ابادة تامة ، غير مكترث لخسائره هو ، اذ المهم في نظره ان ينجو بعض اتباعه ليتابع الدعوة للدين الحق ».

جدية ، ابتسم الحظ للصليبيين وتفانى فرسانهم في القتـــال ، ولكن خسائرهم كانت باهظة ، فاضطروا في معركة انطاكية العام ١٠٩٨ الى تغيير تكتيتهم ، اذ جعلوا سلاح المشاة سرايا خاضعة لامرة رؤساء اكفياء ، وسلحوها بالاقواس والقسي ، ونشروها صفوفاً امام الفرسان . فاعطت هذه التكتية نتائج باهرة ادهشت المعسكرين . فعزا المسلمون هزيمتهم الى مشيئة الله التي لا تُرد ، وعزا النصارى انتصارهم الى الحربة المقدسة التي كان جنودهم يضعونها على جباههم . بيد ان الصليبيـــين ادركوا شيئاً فشيئاً انهم يربحون الجولة في كل مرة يخوضون غمار المعركة بفرسانهم المدرعين، ومشاتهم حملة الاقواس والقسي، ويقاتلون على ارض غير ملائمة لتكتيـــة اعدائهم ، كما لاحظوا انهم يخسرون الجولة اذا قاتلوا في ما خلا هذه الحالات . يقول البروفسور اومان في هذا الصدد : « كان هناك تكتية مضمونة النجاح تقريباً، وهي استخدام المشاة سنداً للفرسان ونقطة يتألبون حولها ويجمعون شتاتهم . وقد كسب المشاة الجولة الاولى في معارك نادرة جـداً ، ولكنهم كانوا دائماً يسهلون للفرسـان احراز النصر » .

وقد امتاز ريكاردوس قلب الاسد بين الرؤساء المسيحيين بكفاءته التكتية وبعد نظره . ففي العام ١١٩٢ رفع الحصار عن عكا ، واقام معسكره على مقربة من المدينة . وفي الخامس من آب، ترامى اليه ان سبعة آلاف مملوك يزحفون نحوه بسرعة.

ولم يكن لديه لمواجهتهم سوى خمسة وخمسين فارسا والفين من حملة القسي ، فنشرهم على النحو التالي :

في الطليعة صفٌ من الرجال الجاثين ، وقد سلّحهم بالحراب والرماح ؛ ويليهم صف من حملة القسي احتلوا نقاطاً مواجهة للشواغر الفاصلة بين حملة الحراب ، وأُرفقوا بجنود مهمتهم تقديم السهام لحملة القسي بحيث لا تتوقف الرماية لحظة واحدة . وقد ادى استعمال الرماح والسهام الثقيلة دفعة واحدة الى احباط هجوم المماليك ، فارتدوا تاركين في الساحة ٧٠٠ جندي بين قتيل وجريح ،وهلك من جيادهم الف وخمسمئة . وقد شق ريكاردوس قلب الاسد طريقه وسط صفوف الاعداء المشوشة،عائداً الى معسكره، يحميه سبعة عشر فارساً . ولم يفقد من جنوده في تلك المعركة سوى رجلين اثنين .

أليس من الغرابة بمكان ألا تفيد اوروبا الغربية من دروس تكتية قيّمة كالدرس الذي يمكن استخراجه من خطة ريكاردوس قلب الاسد امام عكا ؟

لقد علمّت الحروبُ الصليبية الغربَ اشياء كثيرة في الحقل العسكري ، ولكن دروسها ذهبت في وادٍ غير ذي زرع . ويمكن رد العقم الى سببين رئيسين : اولهما كون الحرب اقطاعاً للنبلاء ، والآخر انصراف الفكر العسكري الى الناحية الدفاعية المحض . ومن هنا كان عقل العسكريين يركز نشاطه على تحسين العدة الدفاعية وتشييد القصور المحصنة .

وفي اواخر القرن الثاني عشر ظهرت عدة المقاتل المؤلفة من لوحات معدنية . ثم ظهرت العدة المزدوجة وبلغت من الثقل درجة بات معها المقاتل عاجزاً عن الحركة . ففي موقعة تاليا كوتزا العام ١٢٦٨ استطاع فرسان شارل دنجو انتزاع خصومهم من على ظهور جيادهم ممسكين بهم من اكتافهم دون ان يبدي هؤلاء مقاومة لفرط ما نالهم من عياء . وفي القرن الرابع عشر اختفت العدة المزدوجة ، واستردّت الدرع المصنوعة من لوحات معدنية اعتبارها السابق ، وجعلت بالامكان الاستغناء عن التروس الكبيرة والاكتفاء بتروس عادية الحجم والشكل .

وازداد مع الايام ثقل العدة زيادة مطردة حتى غدا الجواد يحمل نحواً من ٢٠٠ كيلوغرام . وكثيراً ما كان الفرسان يقاتلون راجلين على الارض حين تنوء تربتها بحمل الجواد، او حين ينوء الجواد بحمله . وكانوا يخوضون غمار القتال ، لا كمشاة ، بل كفرسان راجلين ، لان العدة تحول بين المشاة واستعمالهم اسلحتهم برشاقة . وقد قاتل الفرسان المدرعون راجلين في معارك تنشبره (العام ١١٠٦) ، وبريمول (١١١٩) ، وايتنذار (١١٣٨) ، ولنكولن (١١٤٦) .

وفي معركة تنشبره التي تواجه فيها جيش هنري الاول ملك انكلترا وجيش شقيقه روبرت ، قذف هذا الى ساحة المعركة بجميع فرسانه ليقاتلوا راجلين . اما هنري فقد احتفظ بفيلق من خيالته ، فكانت هزيمة روبرت على يد فرسان شقيقه الراكبين الذين

حمتهم دروعهم ، فما اصيب واحد منهم باذى .

وفي بريمول خاض هنري الاول غمار المعركة باربعمائة فارس راجل ومائة فارس حقيقي ضد سبعمائة فارس راكب واجهه بهم ملك فرنسا لويس السادس ، فخسر هذا المعركة ، لان فرسانه وجيادهم ناؤوا بثقل الدروع .

وجدير بالذكر ان ظهور الفرسان الراجلين ظل مقصوراً على جيوش انكلترا وفرنسا . اما الامم الاخرى فقد اغفلت شأن المشاة اغفالاً تاماً ؛ وظل هذا شأنها الى ان ازداد الميل الى استخدام الجنود المرتزقة . وساعد ازدهار المدن الكبرى ، بفضل تمويلها الحملات الصليبية ، على ظهور ميليشيا محلية حسنة التجهيز .

وقد ازداد عدد المرتزقة زيادة هائلة منذ ظهور القسي . وفي ذلك الحين اطلق على المقاتل المأجور اسم الجندي . وبات استخدام المرتزقة امرا لا غنى عنه في الحروب التي لا صفة محلية لها .

ولم يكن المرتزقة مدينين بالولاء لمن يستخدمهم ، بل كانوا يقاتلون لحساب الاكثر بذلاً .

اما الميليشيا فقد ظهرت اول ما ظهرت في البلاد المنخفضة التي سلمت من الاجتياح ، ولكنها انشأت ، مبالغةً منها في الحيطة ، جيشاً من المشاة الى جانب خيالتها الاقطاعية . وفي القرن الثاني عشر سلحت الميليشيا بالرماح ، وجهزت بالدروع والخوذ

الفولاذية ، ثم استبدلت القسي من الرماح . وقد اشترك الوف من رجال الميليشيا في موقعة بوفين العام ١٢١٤ ، ولكنهم لم يبلوا فيها بلاء حسناً . وفي موقعة كورتره العام ١٣٠٢ تمت على ايديهم هزيمة جيش روبر دارتوى ، وادهشت مآتيهم اوروبا بأسرها . وكتب فياني Villani معرباً عن هذه الدهشة بقوله : « كان مدعاة للدهشة ان يهزم عشرون الفاً من البورجوازيين جيشاً اقطاعياً قوامه خمسون الف مقاتل بينهم سبعة آلاف وخمسمائة فارس وعشرة آلاف من حملة القسي » . بيد ان حدث كورتره لم يعد الى المشاة اعتبارهم . ففي العام ١٣٠٤ لم تستطع الميليشيا الفلمنكية الصمود في موقعة « مون آن بويل » امام جيش اقطاعي يقوده رجال اكفياء . وتكررت هزائم الميليشيا في كاسل (١٣٢٨) ، ثم في روزبك (١٣٨٢) .

وكما كان توافر العدة شرطاً لوجود المولى او التابع الاقطاعي ، كذلك كان وجود الحصن او القصر الحصين شرطاً لقيام النظام الاقطاعي ، لان القصر يضمن استمرار طبقة الفرسان . وقد حمل الصليبيون من الشرق فكرة المدن المحصنة ، متخذين من القسطنطينية نموذجاً .

كانت القسطنطينية محاطة بسد مواجه للبحر طوله ١٥ كيلومتراً ، وبسور مثلث شيّد في القرن الخامس طوله ستة كيلومترات . وكان ارتفاع السور الداخلي ١٢ متراً ، وعليه يقوم ٢١٢ برجاً بعلو عشرين متراً . وقد اشتهر من قادة الحملات

الصليبية بتشييد القلاع والحصون ريكاردوس قلب الاسد ، واشهر حصونه حصن غايار . وشيّد الصليبيون في فلسطين قلاعاً وحصوناً منيعة جداً لا تؤخذ الا بالحصار الطويل الامد الذي يقطع عنها المؤن .

وكان تشييد الحصون في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من الاحداث النادرة ، ولكن الحال تبدلت في اواخر القرن الثالث عشر ، فقام بين الامارات والولايات تنافس حقيقي في مضمار تشييد القصور المحصنة والقلاع المحاطة بالاسوار والابراج. ويقول تشارلز اومان ان التحسينات التي ادخلت على اساليب الهجوم لم تبلغ الشأو الذي بلغته التحسينات التي ادخلت على اساليب الدفاع ، بحيث باتت المجاعة سبيل المهاجم الوحيد لاخضاع حصن يرفض التسليم . وقد ادى الاكثار من اقامة الحصون والقلاع الى تضاؤل شأن المعارك على الارض المكشوفة ، لان الخصم الاضعف راح يتهرب من النزال مؤثراً الدفاع عن نفسه داخل معقله الحصين . وترتب على رفض الفرسان حفر الارض وقطع الاشجار ولغم الاسوار ، اعادة الاعتبار الى المشاة ، فغدوا عنصراً لا غنى عن استخدامه في حرب الحصار ان لجهة الاعمال التي يأنف الفرسان القيام بها ، ام لجهة تأليف حاميات الحصون ، ناهيك بان حرب الحصار ادت الى تعميم استعمال القسي .

وظهر من اسلحة الحصار في القرن الثاني عشر منجنيق جديد « تقوم طاقته ، لا على انفتال حباله كما هي الحال في المنجنيق

العادي ، بل على ثقل الجسم الذي يقذفه . ولم يكن لقوته حدود متى توافرت فيه المتانة والمرونة » . وقد تحدث مؤرخو تلك الايام عن منجنيق قذف الهدف بصخر زنته خمسمائة كيلوغرام[1] .

وكما كان الحصن اهم معتصمات الصليبيين في الشرق ، كذلك كانت الحصون اهم مرتكزات الدفاع في ظل النظام الاقطاعي . وقد كان عجز المحاربين عن تموين جيوشهم لمدة طويلة من العوامل التي تحول دون اطالة امد العمليات في ميادين القتال المكشوفة ، فاذا ارتد الفريق الاضعف الى قلاعه ومدنه المحصنة ، ظل مصير الحرب معلقاً ما دامت المعتصمات موصدة

١ كانت ادوات الحصار تقذف ، فضلاً عن الحجارة ، مقذوفات حارقة وجثثاً دب اليها النتن،ورجالاً احياء . وقد روى « فروسار » ان جان ، دوق نورمنديا ، نشر وباء الطاعون في احدى مدن البلاد المنخفضة وذلك بقذفه جواداً ميتاً في حالة التفسخ والانحلال . وقذف آخرون المدن المحاصرة بجثث جنود ميتين.وفي حصار انطاكية قذف الاتراك المدينة برؤوس الاسرى الذين ذبحهم آسروهم ذبح النعاج. واحياناً كان الرسل – رسل الهدنة والتسليم– يربطون بالحبال ويقذفون الى معسكر العدو بواسطة المنجنيق .

ويروي فارياس ان كوريبوت Coribut امر بادخال جثث الفين من جنوده الى مدينة كارولشتين بواسطة آلات الحصار المختلفة « فسبب وجود الجثث انتشار الحمى في المدينة وهلاك معظم سكانها . اما الذين نجوا فقد ارتد الوباء عن ابوابهم بفضل علاج توصل اليه احد السكان ووزعه على مواطنيه مجاناً » .

الابواب في وجـــه المهاجم ، مع العلم ان بضع مئات من المعتصمين في قلعة كانوا يقاومون آلاف المهاجمين اشهراً واحياناً سنوات .

تقدم لنا هذه الظاهرة تفسيراً معقولاً لاستمرار امبراطورية الشرق حقبة طويلة ، ولطول نفس المقاومة التي ابدتها الاقطاعية للسلطة المركزية. وقد رأينا الحضارة في بلاد الاغريق تقوم حول المدينة ، امـا في اوروبا الاقطاعية فكانت تقوم حـول الحصن او المدينة المحصنة ، وظل هذا شأنها الى ان ظهر المدفع .

مهد الطريق لظهور المدفع اسلحة الرماية ، وفي مقدمتهـــا القوس الانـكليزية . وكان استعمال هذه الاسلحة نذيراً بانهيـــار الاقطاعية. والقوس الانـكليزية كانت تصنع من الدردار، وتقذف سهاماً طول الواحد منها متر . وكانت قوتها اضعاف قوة قوس النورمنديين[1] .

واول من تنبّه لاهمية القوس الملك ادوارد الاول (١٢٧٢ـ

١ شجعت انـكلترا الرماية بالقوس في منتصف القرن الثالث عشر . وحتم الملك هنري الثالث على كل رجل يملك اربعين شلناً ان تكون لديه قوس . وكان السهم يخترق درعاً ذات كثافة مزدوجة . وفي العـــام ١٥٥٠ اجريت تجارب بحضور الملك ادوارد السادس، فاخترق السهم لوحاً خشبياً يابساً لا تقل كثافته عن بوصة .

وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ،بلغ مدى السهام مسافة تراوح بين ٢٦٠ متراً و ٣١٠ امتار .

١٣٠٧). فقد كانت الاقواس سلاح المشاة الرئيس في بلاد الغال الجنوبية عندما اجتاح ادوارد هذه البلاد ، واعطى استعمالها كسلاح مساند للخيالة المدرعة نتائج باهرة . وفي موقعة فالكيرك جرّبَ هذا السلاح للمرة الاولى ضد الايكوسيين فهزمهم به هزيمة شنعاء . وفي العام ١٣١٤ خاض ادوارد الثاني معركة بانوكبورن بثلاثين الفاً من حملة الاقواس فضلاً عن الفرسان المدرعين، ولكنه باء بالخسران لانه لم يحسن استخدام الاقواس. الا ان ذلك لم يمنع الانكليز من اعتماد القوس سلاحاً رئيساً طيلة القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وقد كانت موقعة كريسي امتحاناً جازماً لتعاون الاقواس والخيالة في الدفاع الهجومي، او في الهجوم وحده .

ففي كريسي تلاقى ، في ٢٦ آب ١٣٤٦ ، الجيش الفرنسي بقيادة فيليب دو فالوى وكان جيشاً محض اقطاعي ، والجيش الانكليزي بقيادة الملك ادوارد الثالث وكان قومي الطابع الى حد ما [١] . ولم يكن في الجيش الاول مشاة ، لان الفرنسيين كانوا يحتقرون هذا السلاح ، في حين كان الجيش الانكليزي يتألف معظمه من المشاة حملة الاقواس (كان قوام جيش ادوارد ١١ الفاً من حملة الاقواس ، والف فارس ، و ٣٩٠٠ راجل مسلحين

١ كان الملك قد استغنى عن خدمات الجيوش الاقطاعية ، لان الاقطاعية في انكلترا كانت قد اضمحلت عملياً سنة ١٣٥٠ .

بالرماح والسيوف والفؤوس ؛ وكان قوام الجيش الفرنسي ٥٠ الف مقاتل منهم ستة آلاف جنوي من حملة القسي، يضاف اليهم ١٢ الف فارس من النبلاء) .

وقد جعل ادوارد جيشه ثلاثة صفوف : اثنين في المقدمة ، والثالث في المؤخرة ؛ وحشد بين الصفين الاماميين حملة الاقواس بشكل مثلث يواجه رأسه الفرنسيين ؛ وعزز طرفي الجناحين بحملة الاقواس .

بدأ الهجوم بتقدم الجنويين، فحصدتهم السهام الانكليزية لانها ابعد مدى من اسلحتهم ، فاضطروا للانكفاء مذعورين؛ وخيّل للفرسان الفرنسيين ان في الامر خيانة ، فشقوا طريقاً في صفوف الجنويين المتراجعين ، ولكن السهام الانكليزية حصدتهم بدورهم . وتكررت هجمات الفرنسيين وتكرر حصدهم، الى ان انتهت المعركة بانتصار خصومهم . وقد بلغت خسائر فيليب دو فالوى ١٥٤٢ نبيلاً وفارساً، وعدداً كبيراً من الجنود. اما ادوارد الثالث فقد خسر فارسين ، ومرافقاً ، واربعين جندياً ، وعشرة من حملة الاقواس .

وجدير بالذكر ان الفرنسيين رفضوا في كريسي استعمال القوس ، بحجة انها سلاح الضعيف والخائف . ولكنهم استعملوها في معركة بواتيه سنة ١٣٥٦ دون ان يتبنوها نهائياً .

ومذ ذاك ، فقدت الاقطاعية معالم بقائها ، لا لان القوس غدت السلاح الرئيس ، بل لان الحروب ابرزت الحاجة الى قيام

جيش قومي محترف يسوده شعور وطني وتتوافر له اللحمة ، وليس فيه حملُ سلاحٍ معينٍ وقفاً على الخاصة . ويعود الفضل الى السويسريين في جعل الحرب ديموقراطية . فقد القى فلاّحوهم من حملة القسي والرماح على الفرسان النمسويين دروسا قاسية وضعت حداً لتبجح الخاصة بان الله والطبيعة اختصاها بحمل العدة وباستعمال اسلحة معينة من دون سائر البشر .

ان نموّ الميليشيا الوطنية وفساد نظام المرتزقة من جهة، وشيوع استعمال الرمح والقوس من جهة اخرى ، قد وضعت حداً لعهد الفروسية . وفقدت الاقطاعية علة وجودها كما فقدت مثاليتها . ولم يبقَ لتصفية حساب الفارس نهائياً، بعد هزيمته في ساحة القتال، الا وجود سلاح قادر على هدم حصنه[1] .

[1] يقول مكيافلي : « ان المرتزقة ما كانوا يحسنون القتال ، لان الاجور التي كانوا يتقاضونها لا تكفي لاغرائهم بالموت في سبيل من حملوا السلاح لحسابه » .

الفصل الرابع

عصر البارود

باكتشاف البارود تدخل المرحلة التقنية في فن الحرب، وهي مرحلة امتازت بنزعة كامنة نحو ازالة العنصر البشري لمصلحة العقل، او كما يقول «ليكي»: «في عصر البارود غدا تقدم المجتمع او تقهقره احدى نتائج الاختراعات الكبرى قبل ان يكونا احدى نتائج مآتي الرجال العظام».

وترتب على اكتشاف البارود تنازلُ الشجاعة عن مركزها للسلاح. فالذي يشهر السلاح الاقوى هو الخصم الذي يحسب له حساب اياً كان وضعه الاجتماعي ودرجة شجاعته، او كما يقول كارليل: «كان نفع البارود، نفعه الحقيقي، انه حقق المساواة بين البشر»، اي انه اكسب الحرب طابعاً ديموقراطياً.

والبارود، بتحويله طابع الحرب، حوّل مجرى الحياة المسيحية في القرون الوسطى، لان السعي الى تحسين الاسلحة ووسائل الدفاع قد ادى الى شحذ الفكر، وتفتح العقول والاذهان. فمن البارود، وليس من الحروب الصليبية وسقوط القسطنطينية العام ١٤٥٣، انبثقت النهضة، لان الاكتشاف

الجديد عجّل بانهيار نظام الاقطاع ماديا ومعنوياً .

وبعد ما كانت الحرب امتحاناً تقضي به مشيئة الله ، اضحت وسيلة لتحقيق غايات سياسية ، وغدت القوة العامل الحاسم فيها. وسرعان ما أخلت المثالية مكانها للواقعية ، مما حمل جنديين ذائعي الصيت هما جيان بادلو فيتلـّي وبروسبيرو كولونا على القول : « توبح الصناعة والحذق الحروب بقدر ما توبحها الاسلحة » .

ولم يؤد اكتشاف البارود الى انهيار القلاع الاقطـاعية وحسب ، بل ادى الى انهيار مُثُل اسياد هذه القلاع . فتلاشى احتقار النبلاء للمقاتل الراجل بعد شيوع استعمال الاسلحة النارية الفردية ، وغدت اهمية المشاة التكتية موازية لاهمية الفارس . اما الحيلة ، وحرب الكمين ، والاجهاز على العدو ، ومطاردة فلوله ، التي كانت اعمالاً غير مشرّفة في العهد الاقطاعي ، فقد انقلبت بعد اكتشاف البارود جزءاً من الفن الحربي لا يتجزأ . وكتب مكيافيلي يقول: « الغش امر مكروه ومنكر الا في الحرب ، فهو عمل مجيد » . وقد بلغ « هذا الانحطاط الخلقي حده الاقصى في القرن السادس عشر عندما حالف فرنسيس الاول وهنري الثـاني الاتراك ، اعداء النصرانية ، ليتسنى لهما التغلب على الامبراطور شارلكان[1] » .

[1] يقول السر تشارلز اومان بهذا الصدد : « قامت حركة في اوساط النبلاء الفرنسيين ضد هذا التطور ، ولكن شعور رجل الشارع قد عبر عنه =

تلك كانت نتائج البـــارود الذي اكتشفه روجه باكون (١٢١٤ — ١٢٩٢) في مختبره المزعوم سحرياً . وجدير بالذكر ان باكون هذا لم يفكر باستخدام اكتشافه في الاسلحة النارية ، فقد كتب عنه في مذكراته يقول : « ان مزج سبعة اجزاء من البورق وخمسة اجزاء من الفحم العـــادي وخمسة اجزاء من الكبريت يؤلف مركباً متفجراً من شأنه تخويف العدو واشاعة الفوضى في صفوفه [1] » .

= اصدق تعبير « مونلوك » بقوله : « سفّه الامراء المسيحيون المؤيدون للامبراطور استنجاد ملكنا بالاتراك ، وقد فاتهم ان الانسان يمكنه ان يصنع سهامه من مختلف الاخشاب دفاعاً عن نفسه . وانا مستعد لمحالفة ابالسة الجحيم اذا كان في ذلك قضاء على عدوي الذي يريد بي شراً » . وقد ابدى مونلوك رأيه هـــذا في وقت كان قراصنة باربروس ينقلون آلاف النصارى الى القسطنطينية ليبيعوهم في سوق النخاسة . وكان الفرنسيون يشجعون هـــذه التجارة، لان الارقاء كانوا يقتلعون من مدن اعدائهم، فتضعف بذلك مقاومة هذه المدن » .

١ يتساءل العقيد هنري ل. هايم : « لمـــاذا لم ينشر روجه باكون معلوماته عن البارود ? لقد اجاب هو عن هذا السؤال بقوله : « ان العـــلوم يجب ان تظل بعيدة عن متناول السواد لانها تؤذيه ، فالشعب يسيء استعمال العلم ، والجواهر لا تلقى للخنازير » .

وقال باكون في مناسبة اخرى : « تسخر الجماهير من الفلاسفة وتزدري الحقائق العلمية ؛ واذا اتيح لها وضع يدها على مبدإ ذي قيمة فانها تفسره على هواها ، وتطبقه تطبيقاً غير سليم . وعندي ان السر المكتوب يجب ان يسلم الى المتعلمين دون سواهم . اما الجاهل فلا بأس من ائتمانه عليه لانه يجهـــل اهميته » .

ترى مَنْ فكر قبل الجميع باستخدام البارود في قذف القنبلة خارج الماسورة المعدنية (المدفع او البندقية) ؟ ليس لدينا معلومات راهنة بهذا الشأن ، ولكن اول من استخدم البارود في هذا الوجه ليس الراهب برثولد شوارتز على كل حال . ويبدو ان اقدم وثيقة تشير الى المدفع هي وثيقة مكتوبة بالعربية ومؤرخة ١٣٠٤ . وتليها وثيقتان محفوظتان في مدينة « غاند » ومؤرختان ١٣١٣ و ١٣١٤. وفي اوكسفورد مخطوطة تشتمل على مصور للمدفع القديم ، له شكل قدر ، وقد استعمل للمرة الاولى العام ١٣٢٤ في حصار متز ، وفي العام ١٣٢٧ في ايكوسيا .

ويقول السر تشارلز اومان انه ظهر في العام ١٣٣٩ سلاح ناري جديد تصح تسميته رشاشاً ، لانه كان مدفعاً ذا مواسير عدة ، تنطلق من فوهاتها المقذوفات دفعة واحدة . واول من استعمل هذا السلاح ادوارد الثالث في حربه ضد فرنسا ، واستطاع ان يقذف ١٣ قذيفاً دفعة واحدة من فوهات ١٢ ماسورة . وهكذا بدأوا يشددون على اهمية النيران الكثيفة .

وبالرغم من بطء التطور الصناعي في القرن الرابع عشر ، ومن شجب الكنيسة لاستعمال السلاح الناري ، فقد انتشرت صناعة البارود في اوروبا ، واستخدم المدفع على نطاق واسع في حصار كاليه ، فقذف المدينة بحجارة ضخمة ، وهدم مساكن عدة ، ولكنه لم يسبب خسائر في الارواح . ولم يظهر القذيف الحديدي

الا في العام ١٣٩١ ، وشاع في الوقت نفسه استعمال المدفع الصغير الذي ظهر العام ١٣٤٦ يحمله رجل ويستعمله دون مساعدة احد. وكانت قذائفه مصنوعة من الرصاص. وفي اواخر القرن الخامس عشر حلت البندقية ذات الفتيل محل المدفع الحملي او المدفع الصغير . ويبدو ان مخترع البندقية الماني لانها سميت عند ظهورها للمرة الاولى «هاكنبوخه». وتميز القرنان الخامس عشر والسادس عشر بالاختراعات العظيمة في حقل التسلح . ولا يدخل في هذا الباب ما تصوره ليورنار دو فنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) من طائرات ودبابات وغواصات لم يكن تطور العلم ليساعد على تحقيقها . اما الاختراعات التي تحققت فهي التالية : رمانات يدوية (١٣٨٢) ، قذائف ذات دخان (١٤٠٥) ، ذؤابة للتأخير (١٤٠٥) ، بارود مبرغل (١٤٢٩) ، مدافع لها شكل القدر (١٤٠٠ - ١٤٥٠) ، بندقية (١٤٥٠) ، قذائف متفجرة من البرونز (١٤٦٣) ، قنابل متفجرة (١٤٧٠) ، مدافع تجرها عجلات (حوالى ١٤٧٠)، غدارات (١٤٨٣)، قذائف حارقة (١٤٨٧) ، مدافع حلزونية الجوف (١٥٢٠)، بنادق قصيرة اسبانية (١٥٢١) ، رمانات يدوية متقنة الصنع (١٥٣٦) ، خرطوش مصنوع من الورق المقوّى (١٥٦٠) ، قذائف عادية (١٥٨٨) ، خرطوش يحتوي على البارود والرصاص معاً (١٥٩٠) .

كانت مهمة المدفعية ، حتى الثلث الاول من القرن السادس

عشر ، تقويض اسوار المدن والحصون . ولم تتعد دورها هذا الا في الحروب التي خاض التشيك غمار معاركها (١٤٢٠ — ١٤٣٤) ، ومعركة فورميني التي وضعت حداً لحرب المئة سنة . وجدير بالذكر ان حروب التشيك تميزت بتكتية حاذقة قضت على الهالة التي كانت تحيط بخيالة العهد الاقطاعي .

فقد واجه التشيك ، وهم جماعات منظمة ، جيش الامبراطورية الذي لا يغلب . وادرك قائد التشيك ، جان زيسكا ، ان قواته لا تصلح للهجوم ، فحوّلها الى قلاع متحركة جاعلاً من سكك الحراثة متاريس (سبقه الى ذلك الروس التتر) ، وجهز رجاله بمدافع حملية . وقد قامت تكتيته على ترك خيالة العدو تنقضّ على حصونه المتحركة حتى اذا نال منها التعب ، خرج هو من مكمنه وشنّ هجوماً مضاداً . وبفضل هذه التكتية الدفاعية احرز التشيك انتصارات باهرة في معارك دوتشبرود (١٤٢٢) واوسيغ (١٤٢٦) وتاشو (١٤٢٧) .

اما في موقعة فورميني (١٤٥٠) فقد كانت الغلبة للمدفع مسانداً الهجوم . كانت القوات الانكليزية مصطفة خلف حاجز من حملة الاقواس تنتظر ان يهاجمها الفرنسيون ، فامر الكونت دو كليرمون قائد الفرنسيين مدفعيته بان تقذف حملة السهام بحممها ، فاوقعت فيهم خسائر جسيمة اضطروا معها للانقضاض على المدفعات غير مكترثين للخسائر ، واستطاعوا الاستيلاء على ستة مدافع من عشرة . بيد ان مجازفتهم لم تجدِ نفعاً ، لان

الصفوف الخلفية لم تساندهم، فما كان من الفرنسيين الا ان انقضوا على اعدائهم ومزقوا صفوفهم .

اثبت المدفع تفوقه للمرة الاولى العام ١٤٥٣ . ففي ٥ نيسان عسكر محمد الثاني على رأس جيش لجب امام اسوار القسطنطينية، ونصب مدافعه تجاه السور المثلث . وفي ١٢ نيسان بدأ اول قصف مدفعي كبير في تاريخ الحروب وسط قرع الطبول والهتافات . وقال مياتوفتش في وصف ايام الحصار : «لم يشهد العالم منذ بدء الخليقة ما شهدته ضفاف البوسفور في ذلك اليوم »، مع ان عملية القصف المدفعي كانت بطيئة جداً لان تلقيم المدفع كان يستغرق ساعتين بحيث لا يطلق قذائف الا سبع مرات في اليوم .

وكانت اضخم مدافع محمد الثاني – وقد صنعها له مجري يدعى اوربانوس – تطلق حجارة قطر الواحد منها ٧٥ سنتيمتراً، وزنته تراوح بين ٥٠٠ و ٧٠٠ كيلوغرام[1] . ويقول المؤرخون ان هذه المدافع كانت ثقيلة جداً يجرها ستون ثوراً، ويحيط

١ في القسطنطينية آثار من هذه المعركة اهمها حجران قطر الواحد منهما متر و ١٦ سنتمتراً . وقد ظهرت في موقعة زارا العام ١٣٤٦ آلات تقذف ما زنته ١٤٥٠ كيلوغراماً . وفي العام ١٣٧٣ قصف الجنويون قبرص بمقذوفات زنة الواحدة منها ١٤٠٠ كيلوغرام . وعندما حاول السر جون ديكوورث دخول المضايق التركية العام ١٨٠٧ قصفت المدفعية اسطوله بحجارة ضخمة جداً .

بها في اثناء جرّها مئتا رجل ، ويتقدمها مئتان مهمتهم تمهيد الطريق امامها. وكان لدى محمد الثاني اربع عشرة مَدفعة مؤلفة من ١٣ مدفعاً ضخماً و ٥٦ مدفعاً اصغر عياراً .

وفي اليوم الثالث الواقع فيه ٢٩ ايار ، فتحت مدفعية محمد الثاني ثغرة في الاسوار ، فتدفق عبرها جنوده واحتلوا القسطنطينية. وهكذا انهارت الامبراطورية البيزنطية، ووضعت تركيا قدمها في اوروبا .

☆

في الغرب ، كما في الشرق ، احرز المدفع ، وهو في طور بدائي ، نتائج لم يحرزها بعد تحسينه . فقد اعتمد ملك فرنسا شارل السابع المدفع سلاحاً رئيساً ، واستطاع بفضل استعماله اياه في حرب الحصار القضاء على مقاومة المعتصمات الانكليزية الحصينة بسرعة مدهشة . وفي هذا يقول السر تشارلز اومان : « خلال معارك نورمنديا استطاع الفرنسيون في سنة واربعة اشهر محاصرة ستين معتصماً حصيناً واحتلالها » .

ويقول اومان كذلك : « لقد تجلى تفوق المدفع على التحصينات التقليدية في حرب الوردتين » (١٤٥٥ – ١٤٨٧). ولم تكن نتيجتها الوحيدة اجلاس هنري تودور على العرش الانكليزي ، بل ترتب عليها نفور الانكليز من الجندية نفوراً ادى الى بقاء البلاد بدون جيش طيلة نصف قرنٍ ، بينما كانت القارة الاوروبية جادة في جعل التنظيم التقني العسكري

علما وفنا .

وقد مثلت المدفعية دوراً حاسماً في تدمير القلاع والمعتصمات المحصنة في عهد ملك فرنسا شارل الثامن (١٣٨٣ - ١٤٩٨) الذي جهز جيشه بمدفعية قوية ، وعمل على تحسين هذا السلاح ، فاستبدل المدافع المصنوعة من الحديد من المدافع البرونزية ، وانشأ مدارس لتخريج المدفعيين .

ويقول تايلور ان الحصون التي كانت تقاوم اشهراً وسنوات لم تصمد امام المدفعية الفرنسية في الحملة الايطالية سوى بضع ساعات . وقد صور الخوف للجميع ان التحصينات لم تعد وسيلة دفاعية ناجحة ، فباتوا مقتنعين بقلة جدواها .

ولم تقم المدفعية بدور حاسم في الميدان قبل العام ١٥١٢ . ففي موقعة « رافين » التي هزم فيها غاستون دوفوى جيش « العصبة المقدسة » ، فتح الجيشان نيران المدفعية منذ اللحظة الاولى ، وراحت مدافع الجناح الايمن الفرنسي تقصف الجناح الايسر الاسباني ، بينما كانت مدافع الجناح الفرنسي الايسر تقصف الجناح الاسباني الايمن ، مما اضطر الاسبانيين للخروج من خنادقهم ، ولكنهم لم يلقوا السلاح الا بعد ما هاجم الفرنسيون مؤخراتهم .

ولمواجهة خطر المدفعية أكثر المحاربون من حفر الخنادق في ساحات القتال . وهذا ما حدث في موقعتي بيكوك (١٥٢٢) وبافي (١٥٢٥) . وعلى اثر النتائج الباهرة التي احرزتها

مدفعية شارل الثامن في ايطاليا ، ظهر نظام جديد للتحصينات يحل محل الاسوار والابراج حفراً وخنادق ملأى بالمياه ، واوكاراً ذات سقوف للمدفعية الثقيلة . وبفضل هذا النظام تضاءل خطر المدفعية الى حد كبير . ففي العام ١٥٠٩ لم تحرز مدفعية الامبراطور مكسيميليان النتائج المرجوة ، مع انها كانت اقوى من المدفعية الفرنسية التي دكت الحصون الايطالية . وقد اوحى عجزها الى مكيافلي قوله في كتابه « الامير » : « اذا كان شارل الثامن الفرنسي قد اجتاح ايطاليا والقلم في يده – اي اذا كانت مدفعيته قد قادته الى كل نقطة رسمها قلمه على الخريطة – فقد غدت حرب الحصار بعد العام ١٥٢٠ غير مضمونة النتائج بفضل تقدم وسائل الدفاع [١] » .

وادى تحسين وسائل الدفاع – الى جانب تضاؤل شأن الفرسان بعد تقدم الاسلحة النارية – الى اعادة الاعتبار لسلاح المشاة . وشجعت انتصارات الرماحة السويسريين على زيادة عدد المجهزين بالحراب ، ولاسيما في صفوف الفرسان ، لان السيف ،

١ اجري الحفر المنظم تحت الاسوار والحصون للمرة الاولى في اثناء حصار بادو (١٥١٣) ، واستعمل شارل الثامن الالغام المتفجرة في حصار نابولي العام ١٤٩٥ ، وحسّن هذه الالغام المهندس الاسباني بيدرو نوفارو. ثم ظهرت الوسائل المضادة للالغام . ولاكتشاف عمليات الحفر تحت الاسوار والتحصينات ، استعمل فيليب دو كليف الابرة معلقة فوق دسوت ملأى بالماء ، واستعمل سواه اجراساً موضوعة على طبول .

الذي استطاع التفوق على الحربة في موقعة بارليتـــا حيث هزم كونزالف دوكوردو الرماحة السويسرية الراجلة ، ظل عــاجزاً عن الحد من خطر الرماحة الراكبة ، ممــا ادى الى اغفــال شأنه والبحث عن سلاح اقوى . وفي موقعة مارينيان (١٥١٥) اثبت السلاح الناري انه السلاح المؤهل لانزال الحربة عن عرشهـــا . وسرعان ما استعيض عن البندقية البدائية ببندقية تطلق بفتيلــة ملتهبة (موسكه) . واستعمل الاسبانيون هذا السلاح للمرة الاولى في اثناء حصار « بارم » العام ١٥٢١. وكان طول البندقية الاسبانية مترين ، ووزنها سبعة كيلوغرامات ، وقــد جهزت بمركنة (او مسند) لها شكل المذراة . اما مدى البندقية فقد كان ٢٢٠ متراً ، وتأثيرها اضعاف تأثير البندقية البـــدائية (اركبوز) .

وكان المركيز دو بيسكر اول من اعتمد تكتية ناجحة للبندقية ذات الفتيلة . ففي موقعة بيكوك العام ١٥٢٢ حشد دو بيسكر الرماة بالبنادق في اربعة صفوف ، وحشد وراءهم الرماحة حملة الحراب ، وامر الرماة باطلاق النار حالما يغدو السويسريون على مسافـــة قصيرة ، على ان يبدأ الصف الاول بفتح النار ، ويليه الثاني فالثالث فالرابع . وقد افلحت هــذه التكتية ، فحصدت النيران السويسريين ، والجأت الذين سلموا الى القاء السلاح .

وفي معركة سيزيا العام ١٥٢٤ مثل رماة دوبيسكر الدور

الرئيس ، وكانت الرماحة مؤازرة لهم. وفي « بافي » (١٥٢٥) كرس انتصار الجيش الامبراطوري المشاة المسلحين بالبنادق . وقد غدت البندقية والحربة مذ ذاك السلاحين الرئيسين ، فكانت المدفعية تمهد للمعركة ، ويتولى حملة الحراب حماية الرماة بالبنادق وقد كان عليهم ان يشقوا لاولئك الطريق ليندفعوا ويندفع معهم الفرسان المسلحون بالسيوف والرماح .

وقد كان الانتقال سريعاً من اسلوب القتال القديم الى الاسلوب الحديث ، كما يدل على ذلك التغيير الذي طرأ على تكوين الجيوش . ففي العام ١٤٩٤ كانت الخيالة تؤلف ثلثي الجيش الفرنسي ، فاضحت العام ١٥٢٨ تؤلف عشر هذا الجيش ؛ وكانت في الجيش الاسباني العام ١٥٠٣ تؤلف خمس مجموع المقاتلين ، فاضحت العام ١٥٢٥ جزءاً من اثني عشر . ذلك ان الايمان بطاقة الخيالة على الصدام قد ضعف تبعاً لتقدم السلاح الناري . وقد حدد جان دو مدتشي (البابا لاون العاشر) قبيل وفاته (١٥٢١) مهمة الفرسان فحصرها بحماية المشاة ، والبحث عن المؤن ، ومراقبة حركات العدو ، وجمع المعلومات ، وتجميد الجناحين المعاديين .

ومن تحصيل الحاصل القول ان انصار القديم شجبوا استعمال البندقية ذات الفتيلة. فكان القائد جيان باولو فيتلّـي يسمل عيون الاسرى من الرماة بالبندقية القديمة (توفي هذا القائد العام ١٤٩٩) . وكان القائد الفرنسي بايار يقتل اسراه بالاسلحة النارية ، لان

قطع رؤوسهم بحد السيف شرف لهم . وشاء القدر ان يسقط صريعاً في موقعة سيزيا برصاصة بندقية . اما بليز دو مونلوك (١٥٠٢ – ١٥٧٧) ، مارشال فرنسا ، فقد اعترف بتفوق الاسلحة النارية . الا ان ذلك لم يمنعه من وصف البندقية بانها « اداة من صنع الشيطان الذي يشوقه ان يرى البشر يقتتلون » . ولا ريب في ان قول المارشال ينطوي على بعض الحقيقة ، لان السلاح الناري اتاح – على حد قول « سرفانتس » – « للجبان الرعديد ان يصرع اشجع الفرسان » ، ولان « رصاصة طائشة يطلقها كيفما اتفق رجل يفزعه دوي الطلقة يمكن ان تفسد اعظم الخطط والمشاريع » . ويقول اورلنـدو فوريوزو بلسان اريوست : « البندقية هي اداة موت اخترعها عقل مجرم بوحي من الشيطان الذي يشوقه افناء البشر » .

وعزا ميلتن الى ابليس اختراع المدفعية ؛ وانطق شكسبير احد ابطال مسرحياته بهذه الكلمات : « يجب انتزاع هذا البورق اللعين من احشاء الارض المسالمة ، لانه قضى غدراً على الوف الشجعان » .

وقد خالفهما توماس فولر (١٦٠٨ – ١٦٦١) فزعم ان الاسلحة النارية اخف وطأة من الاسلحة المعدنية ، كما خالفهما ليكي (في القرن التاسع عشر) عندما قال : « ان البارود جعل مستحيلاً انتصار البربرية » . ولو ان ذينك القائدين شهدا مجازر القرن العشرين لما اختلف رأيهما عن رأي ميلتن وسرفانتس وشكسبير .

وجدير بالذكر ان نفراً من الكتّاب الانكليز تطوع لشجب الاسلحة النارية مطالبـــاً باعتماد القوس سلاحاً رئيساً . وتزعم اصحاب هذا الرأي السر جون سمث (١٥٩٠) ، فـــانبرى له همفري باروبك الذي روى انه اوصى عندما كان في خدمة ملك فرنسا باستعمال القوس ، فقال له الملك : « لا ايها الانكليزي ، انك تدافع عن قضية خاسرة ، فقد فتح الله اعيننا وهدانا الى اداة نحاربكم بها غير الادوات التي اعتدنا استعمالها [١] » . وقـــد الغي استعمال القوس في انكلترا العام ١٥٩٥ بقرار اصدره المجلس الملكي الخاص .

وادى شجب بعض الاوساط للسلاح الناري الى التعجيـــل

١ A Brief Discourse concerning the Force and Effect of All Manual Weapons of Fire, etc... (1594), p. 14.

وفي العام ١٦٢٥ نشر « نايد » كتابه Double Armed Man مقترحـــاً العود الى استعمال القوس . وفي العام ١٧٩٨ دافع ريتشارد اوسوالد ماسون عن الابقاء على الحربة في كتابه «الاسباب التي تملي علينا العود الى الحربة». وبعد ١٧ عاماً (١٨١٥) اوصى السر صموئيل اوكموتي باستعمال الحراب . وفي العام ١٨٥٠ حذا حذوه الماجور جنرال السر ويليام موريسون في كتابه :

Notes Explanatory of advantages of the Pike - Musket an Pike - Rifle as compared with the Arms at Present in Use.

ومما تجدر الاشارة اليه ان القيادة البريطانية وزعت حراباً على الحرس الاهلي خلال فترة الذعر من العام ١٩٤٠ .

بتطوير هذا السلاح وتحسينه ، كما ادى السلاح الجديد ، بالغائه اساليب القتال القديمة ، الى ايجاد نظام جديد للسلم . وفي اجماع المؤرخين ان البارود احدث ، منذ القرن السادس عشر ، ثورة في العادات وبالتالي في الحضارة ذاتها ، لانه اوجد مفهوماً للاشياء يختلف اختلافاً تاماً عن مفهوم القرون الوسطى . ويمكن القول اننا بظهور الاسلحة النارية لم نكتف بفتح صفحة جديدة في التاريخ ، بل بدأنا مجلداً جديداً عنوانه « الطموح الى القوة » .

وكان اول مظاهر هذا الطموح حصر السلطة بين يدي الملك. وقد كانت هذه السلطة في العهد الاقطاعي موزعة بين النبلاء الذين كان عليهم ان يؤمنوا نفقات التسلح . فلما استأثر الملك ، بالسلطة ، بات تأمين النفقات واجباً على الدولة ، وترتب على حصر السلطة بالعلمانيين جعل مرتبة الملكية فوق مرتبة الكنيسة ، لان الحرب غدت اداة سياسية ، وبطل كونها عقاباً معنوياً .

وفي القرن السادس عشر شهد العالم طلائع السباق الى التسلح ، وظهرت سياسة التوازن بين الدول الكبرى . امـــا الخدمة العسكرية فقد اضحت وظيفة عامة بعد ما كانت امتيازاً لطبقة اجتماعية معينة . وكانت دوقية توسكانا اسبق الدول الى فرض الخدمة العسكرية الجبرية على الرجال الذين تراوح اعمارهم بين ١٨ و ٣٠ سنة .

وقد اجمع المؤرخون على القول ان تزايد قوة انكلترا البحرية مرده الى تطور السلاح الناري وتقدمه المضطرد . وكان الانكليز

اسبق الامم الى الافادة من هذا التطور، لان «حرب الوردتين» في انكلترا قد قضت على بقايا الاقطاعية ، وقضت بالتـــالي على النظريات القديمة التي كانت تناهض كل جديد في حقل التسلح . ويمكن القول ان تفوقها منذ ذاك كدولة بحرية يعود الى التوسع في استعمال الاسلحة النارية بقدر ما تعود سيطرتها الاقتصادية على العالم الى نهضتها الصناعية في القرن التاسع عشر ، هذه النهضة التي كان الفحم في مقدمة مرتكزاتها .

والملك هنري السابع (١٤٨٥ – ١٥٠٩) هو اول من ادرك اهمية الاسطول ، فعني عناية خاصة بتسليح السفن الانكليزية ، واشرف بنفسه على بناء السفينتين الحربيتـــين « ريجنت » و « سوفرين » . اما الملك هنري الثامن فقد ادرك ان الاشرعة يجب ان تقوم مقام المجاذيف في السفن الحربية التي تعمل في مياه البحار الشمالية ، وان القتال في البحر يمكن ان يجري من مسافات بعيدة نسبياً اذا جهزت السفن بمدافع بعيدة المـدى . وبتشجيع منه أنشئت في انكلترا معامل دائمة لصنع المدافع مهمتهـــا تجهيز سفن الملك بحاجتها . وقـــد اتاحت مصادرة ممتلكات الكنيسة لهنري الثامن ان يتوسع في الانفاق دون مـــا حاجة الى طلب الاعتمادات الاستثنائية من البرلمان .

وكانت السفينة الحربية « غريت هاري » مجهزة باربعة مدافع كبيرة (٦٠ ليبرة)، وبتسعة مدافع متوسطة (٣٢ ليبرة)، فضلاً عن المدافع الصغيرة . ذلك ان الحرب البحرية بمفهومهـا الجديد

صارت تتطلب وسائل تتيح القتال من بعيد . وفي ذلك يقول السر تشارلز اومان : « ان تحول السفينة الى اداة قتال بالمدفعية ، بعد ان كانت حصناً عائمـــاً يتعين على حاميته استدراج العدو الى الاقتحام ، قد قلب مفهوم الحرب البحرية رأساً على عقب » .

وفي عهد الملكة اليصابات انتزعت انكلترا من اسبانيـــا ، بفضل هذا التحول ، السيطرة على البحار ، وغدا المدفـــع في اسطول الملكة اداة القتال الرئيسة . « اعتمد البحارة الانكليز على المدفع سلاحاً رئيساً في القضاء على الزعامة الاسبانية في البحر ؛ وقد دحروا الاسبانيين العام ١٥٨٨ ، لان هؤلاء رفضوا استعمال المدفعية بحجة كونها سلاحاً غير شريف » .

وقد وصف اللورد هوارد اوف افنغهام معارك ٢٣ تموز ضد الارمادا الاسبانية ، قـــال : « استمرت المعركة من الفجر الى الهزيع الاول من الليل ، واشرف عليها الاميرال (هو نفسه) من البداية الى النهاية ... كانت النيران هائلة ، ولم يشعر البحارة بنشاط المدفعية الصغيرة التي لم تتوقف عن العمل لحظة واحدة ، لان المدفعية الكبيرة كانت من الكثافة بحيث حجبت نشاط ما عداها . وقد استطعنا طيلة الوقت البقاء بعيدين عن مرمى بنادق العدو » .

وامتدح السر « والتر رالي » (١٥٥٢ — ١٦١٨) من تكتية الاميرال هوارد ، قال : « لا يغربنّ عن بال القائد النابه ان القتال من مسافة بعيدة نسبياً يختلف عن الاقتحام الذي يسبقه الصعود

الى سفن العدو . ومن يقترب بسفنه حتى محاذاة سفن العدو ، قبل ان يفكر ملياً في الامر ، هو متهور بل مجنون . فقد انهزم بيار ستروسي في جزر اسور ، لانه اقدم على مغامرة جنونية من هـــذا النوع ضد سفن المركيز دو سانتا كروز (معركة توسيريا ١٥٨٣) . وعرف الاميرال لورد تشارلز هوارد كيف يتفادى المصير نفسه عندما واجه الارمـــادا الاسبانية . كان للاسبانيين جيش على ظهور سفنهم ، امـــا هو فلم يكن لديه شيء من ذلك ؛ وكانت لديهم سفن ضخمة ، امـــا هو فلا . ولو انه اقترب من الارمادا لتسبب في هزيمة شنعاء لبلاده ، لان عشرين رجلاً يدافعون عن سفينة يفضلون مائة رجل يهاجمونها ، فضلاً عن انه كان لدى الاسبانيين مـــائة رجل للدفاع مقابل ٢٠ انكليزياً للهجوم . ولكن الاميرال الانكلـــيزي كان حكيماً ، فما جازف بسفنه ورجاله ، بل راح يقذف بقنابـــل مدفعيته سفن الارمادا حتى قضى على امكاناتها الدفاعية والهجومية معاً ، ثم اقترب منها واستثمر نجاحه المبدئي على اوسع نطاق » .

وقد ترتب على هزيمة الارمـــادا انطلاق الانكليز بحراً واستعمارهم اميركا الشمالية .

ولم يقتصر تأثير البارود على العالم الزمني ، بل تعداه الى العالم الديني ، فاتاح للنصرانية نشر ايمانها ، باعثـــاً الصليبية بشكل جديد هو الاستعمار . يقول ماكس جانس في كتابه « تاريخ

الفن الحربي » ان الهند كانت فريسة الشيطان قبـــل اكتشاف البارود ، يعيش سكانها في الظلام وهم اقرب الى الحيوانات منهم الى البشر بطراز معيشتهم وبمعتقداتهم الغريبة . فلما ظهرت المدفعية امكن نشر الايمان في هذه البـــلاد المتأخرة . ويقول القديس لوقا : « ارغموهم على الدخول ليمتلىء بيتي » .

وبفضل البارود والخيل استطاع الفاتحون ولاسيا كورتز وبيزارو اخضاع الاميركتين بسرعة وقلب الحضارة المحلية رأساً على عقب . فبدلت القبائل نظام معيشتها ، واختل التوازن بينها ، وغدت الحرب شبه دائمة . وقد شهدت اوروبا مثل هذا التبدل العظيم غداة ظهر فيها السيف والحصان خلال الالف الثاني قبل المسيح [١] .

وكان اهم تحول ترتب على اكتشاف البارود والمدفع ذاك الذي طرأ على الصناعة . فاستعمال المدفع ادى الى استهـــلاك كميات كبيرة من الحديد ، وبالتالي الى تنشيط العمـــل في المناجم . فكان ان تضاعفت النفقات ، مما اضطر ملوك اوروبا للاقتراض من المتمولين ، فكان اقتراضهم وعجزهم عن تسديد

١ يقول كينسي رايت في كتابه A Study of War, vol. I, p. 86. نقلا عن والتر ديك : ان ظهور الاسلحة النارية في اميركا قد تسبب في القضاء على تقاليد القبائل المحلية ، فتضاءل شأن قبيلة ماسي وتعاظم شأن قبيلة اكيكو ، وتخلت قبائل عن الارض وحراثتها لتحمل السلاح الجديد وتتخذ من الحرب حرفة .

ديونهم سبباً في نشوء الراسمالية . يقول لويس ممفورد : « كان الدائن يضع يده على المناجم الملكية تأمينـــا على دينه ، فيغدو استثمار المنجم مشروعا مالياً تعود معظم فوائده الى مقدم رأس المال ، لان الربى الفـــاحش الذي يفرضه كان يجعل تسديد الدين امراً مستحيلاً . فلا يلبث الملك المدين ان يتخلى عن المناجم المرهونة ليبحث عن سواها . وهكذا دواليك ».

وازدهرت في انكلترا صناعة صهر الحديد، وانتشرت معامل صنع المدافع في « سوسكس » و « قنت » ومناطق اخرى . واستهلكت الافران كميات كبرى من الاحطاب حتى كادت انكلترا تتعرى من الشجر ، وحتى اضطرت الملكة اليصابات الى اصدار قانون يحظر على اصحاب الافران سرقة اخشاب النجارين العاملين في الترسانات البحرية ليجعلوا منها وقوداً ...

وكان ظهور المدفع حافزاً عـــلى تقوية التحصينات، وشق الطرق والاقنية، وانشاء الجسور. « اوجدت الحرب فئة جديدة من الصناعيين الى جانب البنائين والحدادين ، اوجدت المهندسين العسكريين . ويمكن القول ان الآلة مدينة بالكثير للمهندسين العسكريين الايطاليين الذين تعـــاقبوا منذ القرن الخامس ، والمهندسين المخترعين البريطانيين الذين عمـــلوا في عهد جايمس وات » .

ومن هذه التحولات وتلك ــ وقد نشطها ظهور الذهب في العـــالم الجديد ــ خرجت صوفية جديدة لا هي دينية ولا

عسكرية ، بـــل اقتصادية . فقد انبرى لوثيروس (١٤٨٣ — ١٥٤٦) يعنّف المرابين والمتكالبين على المال . وجاء كالفينوس (١٥٠٩ — ١٥٦٤) فتساهل مع هولاء واولئك . وكانت اوروبا قد سقطت فريسة المنازعات الداخلية ، وزاد في الطين بلة النزاع الديني في فرنسا الذي سبب حروباً بدأت في منتصف القرن السادس عشر وانتهت في القرن السابع عشر بمعـــاهدة وسفاليا (١٦٤٨) .

وفي اجماع المؤرخين ان حروب ذلك العهد كانت حروباً شاملة تخللتها فظائع واعمال بربرية . امـــا الامثولة السياسية التي يمكن استخراجها من النزاع الطويل ، فهي انه عندما يكون مدار النزاع مثالية او عقيدة او فكرة ، يظل النزاع نفسه عبثاً في عبث ، عقيماً ، لانه لا يمكن هدم الافكار بالمقذوفات النارية ، ولا تعديلها ما دام اصحابها يدعمونها بقوة .

اما من الناحية العسكرية البحتة فلم تقدم لنا الحروب الدينية في فرنسا امثولة ما . على ان الثورة في البلاد المنخفضة قد ابرزت مواهب موريس دوناسو في الحصار والتنظيم العسكري . ولكن حرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) حملت مع غوستـــاف ادولف تحسينات جمة الى التسلح وقوة النيران .

ادرك غوستاف ادولف ، على ضوء الحروب التي استعرت نارها في عهده ، ان البندقية اضحت السلاح الرئيس ، فعزز الرماة بالبنادق على حساب المقاتلين بالحراب والرماحين ، وجعـل من

البندقية سلاحا خفيفا نسبياً بما ادخله عليها من التحسينات ، وجعل خيّالته قسمين : الخيالة المدرعة والخيـــالة العادية ، وكانت هذه عبارة عن مشاة راكبين . وفي الميدان كانت الخيـــالة المدرعة تنتشر صفوفاً ثلاثة بدلاً من عشرة ، وقد دربت على الانقضاض شاهرة السيوف ، اما البنادق فتلجأ اليها في الالتحام .

وبالرغم من تفوق خيالة غوستاف ادولف ومشاته ، فقد احرز اكبر انتصاراته بفضل قوة مدفعيته . ففي موقعتي بريتنفـــلد (١٦٣١) ولوتزن (١٦٣٢) استخدم مدفع الميدان على نطاق واسع بعد ان جعله متحركـــاً واكثر مرونة بالحد من طوله وتخفيف عياره . وكان لدى غوستاف ادولف ثلاثة انواع من المدافع : مدافع الحصار ، ومدافع الميدان ، والمدافع العادية التي تساند المقاتلين في ساحة المعركة . وكان وزن مدافع الحصار يراوح بين ثلاثة آلاف و ١٥٠٠ و ٧٥٠ كيلوغراماً ، امـــا وزن مدافع الميدان فكان يراوح بين ١٣٥٠ و ٩٠٠ و ٦٠٠ كيلوغرام . اما المدافع العادية فكانت توزع على الالوية بمعدل مدفعين لكل لواء ، ويوضع على مقربة من كل مدفع صندوق خشبي يحتوي على الذخيرة . وقد استعاض غوستاف بهذه المدافع عن تلك التي استخدمها في بولونيا قبل اربعة اعوام [١] . امـــا

١ استخدم غوستاف ادولف في بولونيا مدافع من اختراع الزعيم وربرانت ، وهي كناية عن انبوب نحاسي تلتف عليه خواتم حديدية وحبال مغطاة بالجلد .

المقذوفات فكانت قنابل مستطيلة في مدفعية الميدان والمدفعية العادية ، وقنابل مستديرة في مدفعية الحصار . وبفضل وضع القنابل في صناديق خشبية على محاذاة المدفع ، كان هذا يطلق ثماني طلقات قبل ان يطلق الرامي بالبندقية ستاً .

وظهرت البندقية ذات الحجر في القرن السابع عشر (١٦٣٥) ، وسرعان ما فضلها المحاربون على البندقية ذات الفتيل [١] . وفي موقعة « دون » كان ثلث الرماة في جيش « تورين » مسلحاً بالبندقية ذات الحجر .

اما الحربة القصيرة فقد ورد ذكرها للمرة الاولى في يوميات بوسيغور التي نشرت العام ١٧٤٧ [٢] ، فهو يروي ان جنوده ثبتوا في معركة ايبر خناجر في رؤوس بنادقهم [٣] . وفي العام ١٦٧١ جهز

١ كان استعمال البندقية ذات الحجر سهلا نسبياً ، وقد توصل المحاربون في مطلع القرن الثامن عشر الى اطلاق طلقة واحدة كل دقيقة . وكان من عيوب البندقية ذات الفتيل تعذر استعمالها تحت المطر او عندما تهب الرياح. وفي الليل كان احتراق الفتيل باستمرار يفضح المكامن ويسهل مهمة العدو . يضاف الى ذلك كله ما كان من اضطرار الجيش لحمل كميات هائلة من الفتيل ، لانه يستهلك بسرعة . وقد روى البروفسور فيرث ان حامية « لالم » المؤلفة من ١٥٠٠ رجل استهلكت ٢٥٠ كيلوغراماً من الفتيل في اربع وعشرين ساعة.

٢ يبدو ان اسم Baïonnette مشتق من مدينة Bayonne حيث ظهرت الخناجر القصيرة في اواخر القرن الخامس عشر .

٣ يعتقد المؤرخ « غايا » في كتابه Traité des Armes ان الحربة القصيرة استعملت للمرة الاولى العام ١٦٤٣ .

الرماة الفرنسيون بالحراب ، وجهز بها الرماة الانكليز العام ١٦٨٥ . وقد ظهرت عيوب هذا السلاح الجديد في موقعة كليكرنكي (١٦٨٩) اذ حال وضع الحربة القلق دون احكام التسديد ، لانها كانت مشدودة الى البندقية بخيط معدني .

وبعد هذه الامثولة اخترع « ماكاي » حربة ذات مقبض مثبتة برأس البندقية بواسطة حلقتين . وعقيب عقد معاهدة روزيك (١٦٩٧) تخلى الانكليز والالمان عن الحربة الطويلة واستعاضوا عنها بالحربة القصيرة ذات المقبض ، وحذا حذوهم الفرنسيون العام ١٧٠٣ [١] . وقد ادى شيوع استعمال الحربة على النحو المتقدم الى قلب تكتية المشاة رأساً على عقب :
١ — بات في وسع المشاة تلقيم البنادق تحت حماية الحراب ،
٢ — صار في وسع المشاة مواجهة الفرسان ، ٣ — صار في امكانهم مواصلة القتال تحت الامطار ووسط العواصف ، اي عندما يتعذر عليهم اطلاق النار .

وذهب الزعيم « هايم » الى حد القول : « بظهور الحربة القصيرة بزغ فجر ما تصح تسميته الحرب الحديثة ، واستطاع خنجر طوله ثلاثون سنتيمتراً قلب التكتية رأساً على عقب » .

ورافق هذا التحول الاساسي في التسلح تحولٌ اساسي آخر تناول مفهوم الحرب نفسها . فقد ادرك البشر ان المجتمع زائل

١ ظل استعمالها في الجيش البريطاني الى العام ١٨٠٥ . وبعد هذا التاريخ جهز الجيش المذكور بحراب ذات رباط نبّاض .

حتماً ما لم تتداركه انظمة تحد من ويلات الحروب . وقام بين الجيوش شبه اتفاق قضى باقصاء ابناء الشعب عن العراك ، باعتبار الحرب بين الملوك لعبة شطرنج يقوم فيها الجنود بدور الحجارة . ولما كان تدريب المقاتلين وتجهيزهم يكلفان نفقات باهظة فقد اكتفى الملوك بجيوش صغيرة، وصاروا يتفادون المعارك الدموية ضناً منهم بحياة جنودهم ، وحلّ نظام الميرة والتموين محل نهب البلدان المحتلة .

وكان اهم مظاهر هذا التحول اقتناع المحاربين بانه لا يجوز بحال من الاحوال جعل محور النزاع عقيدة شعب ما او مثاليته او دينه ، لان المقذوف الناري لا يصلح حجة تقرع بها حجة الخصم ، وليس بالتالي حلاً لمسألة متنازع عليها . وقد رأينا الفكر العسكري يتخلى في القرن الثامن عشر عن التكتية القائمة على الاختبار الطويل (تكتية غوستاف ادولف وكروموبل وفوبان) ليعتمد تكتية نظرية وجدلاً لا نهاية له حول طريقة حشد القوى وانتشارها في الميدان . وتميز القرن الثامن عشر بقادة عظام خاضوا غمار المعارك على رأس جيوش موحدة التنظيم والسلاح. وكانت الغلبة للجيش الذي يقوده رئيس نابه كشارل الثاني عشر، ومارلبوروغ، والامير اوجين، والمارشال دو ساكس، وفريدريك الكبير . اما اشهر معارك القرن الثامن عشر فمعركة بلنهايم (١٧٠٤) ، ومعركة راميلي (١٧٠٦) ، وبولتافا (١٧٠٩) ، ولوتن وروسباخ وبلاسي (١٧٥٧) ،

وكيبيك (١٧٥٩) .

ومن سنة ١٧٠٣ حتى حرب الاستقلال الاميركية ، سجل سلاح المشاة خطوة وحيدة الى الامام هي جعل قضيب البندقية من الحديد بعد ان كان من الخشب . اما المدفعية فقد تقدمت تقدماً عظيماً .

فمن الوجهة التقنية اوصى بنجمان روبنسن (وهو انكليزي) في كتابه « مبادىء جديدة في المدفعية » باستعمال المدفع المخطط الذي يمكن تلقيمه من مؤخره ، ولكن لم يعمل بتوصيته الا بعد انقضاء مائة عام عليها . اما ابرز اختراعات روبنسن فجهاز يتيح للمدفعي معرفة مدى سرعة القذيفة .

ولم تظهر دراسات بشأن القذائف الا في الربع الاخير من القرن الثامن عشر . فاخترع مرسيه « قنبلة الاختراق » التي استعملت للمرة الاولى خلال حصار جبل طارق (١٧٧٩-١٧٨٣) وهي قذيفة ذات صاروخ سريع يطلقها مدفع عيار ٢٤ ليبرة ؛ وقد ترتب على ظهورها اختفاء السفينة المصنوعة من الخشب . واخترع الملازم هنري شرابنل « القذيفة الكروية » التي ادخلت تعديلات اساسية على تكتية القتال في البر .

وفي الحقل التكتي كان ابرز تجديد هو انشاء المدفعية المجرورة (تجرها الدواب) [1] . ويعود الفضل في هذا التجديد

١ تبنى الفرنسيون والاسوجيون المدفعية المجرورة العام ١٧٩١ ، ثم تبناها الانكليز سنة ١٧٩٣ .

الى فريدريك الكبير (١٧٥٩) . ثم ظهر مـــدفع الميدان الهولندي ، وقد حشد منه فريدريك في معركة بوركسردورف ٤٥ في مدفعة واحدة .

وسجلت المدفعية في فرنسا اعظم خطوة تقدمية باشراف غريبوفال الذي عينه الملك العام ١٧٧٦ مفتشاً عاماً للمدفعية . وقد جعل مدفعية الميـــدان الخاصة بالالوية من اربع ليبرات ، والمدفعية الخاصة بالفرق من ١٢ ليبرة ، ومن مدافع الهاون عيار ٢٠ و ٢٥ و ٣٠ سنتيمتراً من ١٨ ليبرة .

وادى تزايد اهميـــة المدفعية الى زيادة مضطردة في عدد الخيول والمركبات وبالتالي الى تطويل الارتال في اثناء سيرها ، مما طرح مسألة حماية هذه الارتال ، واستدعى انشاء وحدات من الخيـــالة والمشاة الخفيفة وفيلقاً من القناصة وكتيبتين جهزت احداهما بالبنادق .

وترتب على تقدم المدفعية في الوقت نفسه زيادة هائـــلة في نفقات الجيوش مردها بالدرجة الاولى الى ازدياد الطلب على الاسلحة والذخيرة . وترتب على هذه الظاهرة انشـــاء مصانع السلاح بكثرة ، ونمو الراسمالية ، وحلول فكرة الكمية محـــل فكرة النوع . وبزغ فجر عهد البخـار ففتح فصـلاً جديداً في التاريخ بفتحه امام الامم مجال التسابق الى التسلح .

الفصل الخامس

عصر البخار

وراء نظام الملكية المطلقة في القرن الثامن عشر ، كانت تتململ قوى متفجرة هائلة . وقد نشأت هذه القوى اول ما نشأت في انكلترا عندما قامت فيها حركة كروموبل وقضت على مبدإ الملكية المستمدة من الحق الالهي . ثم جاء قانون الملاحة يعزز نزعة الكسب التي جعلت من الربح اساس التجارة الخارجية . وفي العام ١٦٩٤ اسس فريق من رجال الاعمال الانكليز مصرف انكلترا . وبعد اربعة اعوام اخترع توماس سافيري الآلة التي تتحرك بقوة البخار .

وقد ادى نظام المصارف واكتشاف البخار كقوة دافعة الى تقوية نزعة الكسب على حساب السلم العالمي ، لان هذه النزعة تقوم على اساس ابتزاز ثروات الامم من طريق غزو الاسواق الخارجية وارغام الاجانب على الشراء ومنعهم من البيع . وقد لاحظ آدم سمث في كتابه « طبيعة ثروة الامم وعوامل تكوينها » ان مطامع الملوك والوزراء لم تلحق بمصلحة السلم الاوروبي الأذى الذي ألحقه بها تنافس التجار والمنتجين .

كان العالم يدور في حلقة مفرغة . فنزعة الكسب تجر الى الحرب ، والحرب تتطلب انشاء المصانع ، والمصانع تحتاج الى مال ومواد اولية لا بد للحصول عليها من حروب جديدة . وحتى انتصار « كليف » في « بلاسي » العام ١٧٥٧ ، وهو الانتصار الذي سهل الوصول الى كنوز البنغال ، كانت انكلترا غارقة في الديون ، لان المعامل كانت تلتهم الملايين ... ومنذ سنة ١٧٦٠ بدأ الفحم يحل محل الحطب في تذويب المعادن وصهرها . ثم قامت الثورة الصناعية الجبارة ، فانشأ هرغريفز صناعة الغزل (١٧٧٩) ، وكارتريغ صناعة النسج (١٧٨٥) ، وجهز « وات » معمله بآلات يحركها البخار (١٧٦٨). وساعد تدفق الذهب والتعامل به على نطاق واسع على ازدهار الصناعة بسرعة. الا ان ظهور هذا المعدن الثمين في بعض البلدان كان من بواعث الحروب[١] .

ورافق الثورة الصناعية ظهور فلسفة جديدة حمل لواءها مونتسكيو ، وبورلاماكي ، وفولتير ، وروسو ، وبيكاريا ، وكوندورسه وآخرون . وكان الجديد في العقائد التي طلعوا بها

١ كان اكتشاف الذهب او تداوله بغتة بكميات كبيرة يعقبه دائماً اضطرابات خطيرة . ومن الامثلة التاريخية على ذلك تدفق الذهب والفضة الاميركيين في القرن السادس عشر وما سببه من اختلال في ميزان القوى في اوروبا ، واكتشاف مناجم كاليفورنيا العام ١٨٤٨ ، واوستراليا العام ١٨٥١ .

تأسيسهم المجتمع على الحرية والمساواة . وقد طالبت الفلسفة الجديدة بأن يكون للشعوب جيش يحميها من الظلم والاستبداد. وذكر « غيبر » في كتابه « محاولة عامة في التكتية » ان السيطرة على اوروبا مضمونة للامة التي تسبق الى انشاء جيش قومي . وذهب كوندورسه الى ان نمو المشاة هو رهن بنمو الديمقراطية (مع العلم ان البندقية هي التي اوجدت الجندي الراجل ، وهذا اوجد الديموقراطية) . ويرى كوندورسه ان فرض الحرية يتطلب توافر القدرة على القتل .

وكانت اميركا المسرح الاول لهذا الشكل من اشكال الحرب (حرب الاستقلال كما يسميها التاريخ) . فمن وجهة النظر العقائدية كانت هذه الحرب ثورة على الظلم ، بل حرباً شعبية اقرب الى المناوشات منها الى الحرب ذات المناورات الواسعة . وكان شعار المقاتلين كسب المعركة بمختلف الوسائل والاساليب ، ومنها الرماية بقصد القتل ، واعتماد الحيلة ، وتضليل العدو ، وهي اساليب يتقنها الهنود ، ولكن قواعد الحرب في القرن الثامن عشر كانت تشجبها .

ويمكن ايراد غير مثال مما كان يحدث في الحرب خلافاً لقواعد الحرب . ففي « همبرتن » تظاهر فريق بالقاء السلاح ، ثم باغت خصمه بهجوم عنيف . وفي بنينغتن تصافى الخصمان وتآخيا ، وفي اليوم التالي استأنفا العمليات بشراسة . وجورج واشنطن نفسه ألم يأمر جنوده بان يتزيّوا بزي الجنود الانكليز ليتسنى

لهم المرور عبر الخطوط المعادية ويأسروا القائد كلنتن ؟

وفي هـذه الحرب تجلت النزعة الوطنية الديموقراطية التي انبثق منهـا جيش الشعب . ومن اميركا انتقلت فكرة الحرب الاستقلالية الى فرنسا حيث انتزع السواد زمـام المبادرة من الطبقات المميزة . وفي عهد اليعقوبيين بات الارهاب سلاحاً ، وغدت الحرب، ولو نظرياً، حرباً شاملة وبالتالي فظة، واضحت غاية الحرب ، لا تصحيح حدود بين مملكتين او تصفية تركة ، بل القضاء على العدو بافناء اكبر عدد من جنوده ما دامت مصلحة الحرية تتطلب ازالة الذين يقفون في طريقها . وقد حدد كارنو في شباط ١٧٩٤ مهمة جيش الشعب ، فخاطب المجندين بقوله : « استدرجوا العدو الى معركة فاصلة ، ولا تنثنوا الا وقـد افنيتموه » . ومنع روبسبير ايواء الاسرى الانكليز والالمان ، مما يوازي ايعازاً بافنائهم .

وكان اول تدبير سجل العودة الى الحرب الشامـلة اقرار التجنيد الاجباري في فرنسا العام ١٧٩٨ . ولم يعدُ الزعيم «مود» الحقيقة عندما ذكر في الموسوعة البريطانية (الطبعـة الحادية عشرة) ان « نابوليون مدين بانتصاراته الى الخدمة العسكرية الاجبارية » . ففي شنبرون العام ١٨٠٥ قال الامبراطور لمترنيخ على سبيل المباهاة : « انا قادر على المجازفة بحياة ثلاثين الف رجل في الشهر » . وهذا الاسراف بحياة المحاربين قد حدد مجرى الحوادث لا في ميادين القتال فحسب ، بل في المعامل والمصانع .

وجدير بالذكر ان المجندين الفرنسيين كانوا ينزلون الى ساحة المعركة عزلاً من كل خبرة : فالتعليم كان معدوماً ، ولم يكن للتكتية قواعد ثابتة ؛ وكان الرماة يمتازون بالخفة وبسرعة الحركة ، او كما يقول سر روبرت ويلسن « كانت لهم عينا الفهد وخفة السنجاب » . وكتب احد مرافقي دوق ديورك يقول ان المقاتلين الانكليز كانوا يلجأون الى حيل كالتي يلجأ اليها الثعلب المطارَد ليتمكنوا من الافلات وتفادي حركات التطويق . وسرعان ما تأثرت سائر الامم خطى فرنسا ، فاقتبست من اساليبها ، وعززت في جيوشها عناصر المشاة الخفاف .

وفي عهد نابوليون ازداد عدد المقاتلين اضعافاً مضاعفة ، وغدت المعارك مذابح فعلية ، وقام بين الدول شبه سباق الى تكبير الوحدات . وفي هذا يقول جوميني : « ان الحرب باتت عراكاً دموياً لا يتعرف الضوابط ، تلتقي في ساحته جحافل مجهزة باسلحة ذات قوة تفوق حد الوصف . وقد يأتي يوم نشهد فيه حروباً كالتي شهدها القرن الرابع ، فتقوم بين الامم مجازر تذكرنا غزوات الهون والتتر » .

وقد تحققت هذه النبوءة بعد مئة عام . يقول اشبنكلر : « ها نحن نعيش في عصر الجيوش المعبأة باستمرار والخدمة العسكرية الاجبارية . فمذ نابوليون ومئات الالوف بل وملايين الرجال على اهبة خوض غمرات القتال . وغدت الحرب حرب ارقام وسرعة وتقنية ، ولم تعد البلاطات تتولى المفاوضات

الدبلوماسية ، بل تتولاها هيئات اركان الحرب » .

ووجد عصر القوة في نابوليون نبيّه . وبعد الكورسيكي ساد العالمَ الغربي نظامُ الفتح . وجاء القائد البروسي كارل فون كلاوزويتز (١٧٨٠ – ١٨٣١) يدوّن آراء نابوليون وتعاليمه . ونشرت هذه الآراء بعد موت القائد البروسي في مؤلف عنوانه « في الحرب » . وبفضل هذا الكتاب ربحت الجيوش الالمانية حرب ١٨٦٦ وحرب ١٨٧٠ . وباتت آراء كلاوزويتز من ثم قانون ايمان الامم كافة .

وقد اعتمد كلاوزويتز رأي نابوليون في تقديم العدد على الجودة ، وبنى فلسفته الحربية على المبدإ الآتي : الجندي رجل يقاتل ، والامة جحافل من المقاتلين ، فلاجل زيادة طاقة الامة على القتال يجب ان يتلقى جميع ابنائها الذكور تعليماً عسكرياً .

وفي ما يلي بعض نظريات القائد البروسي :

١ – لا تدخل الحرب في حقل العلم او الفنون ، بل تدخل في نطاق الحياة الاجتماعية . وهي تنمو في حضن سياسة الدولة ، وفي حضن الدولة تختبىء مبادئها .

٢ – ليست الحرب سوى براز على نطاق واسع .

٣ – يجب ان تدخل الامة الحرب بكل ما تملك من قوى .

٤ – الحرب هي متابعة سياسةٍ ما بوسائل جديدة .

هذه الفلسفة الجديرة باسبرطة كانت تهدف لتحويل الدولة

الى آلة حربية في وقت كان البخار قد بـــدأ يدفع الدولة نحو التصنيع . وما لبثت الجيوش والصناعات ان تخلت عن دورهـا الاساسي ، وهو خدمة الشعوب ، لتغدو سيدة هذه الشعوب .

ولولا البخار لما طرأ تبدل اساسي على مجرى الحياة ، ولمـا وصل الكفاح في سبيل الوجود الذاتي الى المعامل وانتقل منهـا الى ميادين القتال . وحتى العام ١٧٣٠ كانت بريطانيا تعتمد عـلى الاختراعات الاجنبية في نشاطها الصناعي . وفي منتصف القرن الثـامن عشر استغنت عن الفحم العـــادي لتستعمل الفحم الحجري في صهر المعادن . ونشّطت العمـــل في استخراج الحديد ، فقفز الانتاج الخام من ١٧ الف طن سنويـاً الى ١٥٠ الفاً ، وذلك في اقل من نصف قرن (من الغام ١٧٥٠ الى العام ١٨٠٠) . وفي العام ١٨٤٠ بلغ مليوناً ونصف المليون طن . ومنذ منتصف القرن الثـامن عشر بدأت الآلات تصنع آلات اخرى ، فكان ذلك ايذاناً بقيام الثورة الصناعية الحقة .

ومما يجدر ذكره ان الفرنسي كونيو اخترع مركبة تسير بقوة البخار العام ١٧٦٩ ، وهو العام الذي شهد مولد نابوليون وولنغتن . وفي العام ١٨١٥ – وهو عام هزيمة نابوليون امـــام ولنغتن – تحرك اول مركب بخاري من غرينوك متجهـاً الى لندن [1] . وبعد اربع سنوات اجتازت السفينة البخارية « سافانا »

[1] جرب الانكليز البخار كقوة دافعة منذ العام ١٧٨٥ . وسبقهم الى =

المصنوعة في نيويورك المحيط الاطلسي [1] بطريقها الى اوروبا . وفي العام ١٨٢٥ انشأ جورج استفنسن الخط الحديدي الاول الجدير بهذا الاسم .

وحتى منتصف القرن التاسع عشر ظل تأثير البخار ضعيفـا نسبياً في حقل التسلح ، وكان مرد ذلك في الغالب الى السـلم الذي ساد العلاقات بين الدول الكبرى .

وكان اهم الاختراعات العسكرية في النصف الاول من القرن التاسع عشر الكبسولة والرصاصة الاسطوانية المخروطة . ولم يكن اختراع الاولى ممكناً قبل اكتشاف مادة متفجرة تشتعل بالضغط ، وهذه المادة هي فولمينات الفضة التي صنعهـا برونياتلي العـام ١٧٩٨ . وبعد عامين اكتشف ادوارد تشارلز هوارد فولمينات الزئبق . وفي العام ١٨٠٧ حصل فورسيث على براءة اختراع ذخيرة من نوع جديد [2] . وبعد اربـع سنوات اخترع توماس شاو من فيلادلفيا الذخير الفولاذي، وما لبث ان

= اجراء التجارب في هذا الحقل الاميركي جايمس رامزي الذي صنع مركباً بخارياً وجربه في ولاية فرجينيا (سنة ١٧٧٥) .

١ كان طول السفينة سافانا اربعين متراً، وزنتها ١٨٥٠ طناً، وسرعتها ست عقد . وقد استغرقت رحلتها من نيويورك الى ليفربول ٢٥ يوماً .

٢ كانت هذه المادة المتفجرة خليطاً من كلورات البوتاس والكبريت والفحم وفولمينات الزئبق والزجاج المسحوق .

استبدل منه ذخيراً من النحاس [1] .

وبفضل هذا الاختراع امكن صنع البندقية بمفهومها الحديث . وما وافى العام ١٨٣٩ حتى حلت البندقية الحديثة (بالنسبة الى اسلحة ذلك العصر) محل البندقية ذات الحجر [2] .

اما الاختراع الاخير ، اي الرصاصة الاسطوانية المخروطة ، فقد تحقق العام ١٨٢٣ على يد النقيب نورتن البريطاني [3]، ولكن حكومة بلاده لم تشجعه . فلما حسّن الاختراع الفرنسي « مينيه » اعتمدته الحكومة البريطانية[4] (١٨٥١) وما لبثت ان جهزت جيشها ببنادق مصنوعة بموجب تصميم « مينيه » . وقد استعملت البنادق الجديدة للمرة الاولى سنة ١٨٥٢ وامكن الحاق الاذى

١ اخترع الزعيم بيتر هوكر في الوقت نفسه كبسولة نحاسية كما يدل على ذلك مؤلفه : Instructions to Young Sportsmen الذي طبع في منتصف القرن التاسع عشر .

٢ ظهر تفوق البندقية ذات الذخير في معركة دارت بين الجنود الانكليز والصينيين وتغلب فيها مئتا انكليزي مسلحين بالبندقية ذات الذخير على الف صيني مسلحين بالبندقية ذات الحجر .

٣ استوحى نورتن اختراعه من سهم كان يستعمله سكان الهند الجنوبية .

٤ دفعت الحكومة البريطانية العام ١٨٥٢ عشرين الف ليرا ذهبية للمسيو « مينيه » ثمناً لاختراعه .

بالعدو الى مسافة تراوح بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠[1] ياردة . وبفضل هذا الاختراع عدت البندقية اشد الاسلحة فتكاً .

واتاح اختراع الذخير تحقيق تحسين آخر هو تلقيم البندقية من مؤخرها بعد مـا كانت تلقم من فوهتها[2] ، ممـا حال دون تسرب الغاز من مؤخر البندقية .

وترتب على اكتشاف اهمية البخار كقوة دافعة قيـام سياسة القوة على اسس عسكرية جديدة بدلت وجه التاريخ . فالسفينة البخارية اتاحت لبريطانيا العظمى توسيع نطاق سيادتها على البحار ، واتاح البخار لبروسيا ان تطبق نظريات كلاوزويتز .

وكان المهندس الامـــيركي « روبرت فولتن » اول من بنى سفينة مصفحة تمخر عباب اليم بقوة البخار (بناها العام ١٨١٣) ، وقد جعل لها غطاء خشبياً بسماكة متر وخمسين سنتيمتراً . وبعـد

١ يبدو ان البندقية استعملت للمرة الاولى كسلاح حربي العام ١٦٣١ ، ولكن اهميتها لم تظهر للعيان قبل حرب الاستقلال الاميركيـة . ففي العـام ١٨٠٠ جهزت الحكومة البريطانية لواء القناصة ببنادق من طراز « بيكر » التي كانت تصيب الهدف من مسافة مئة متر . فلما ظهرت بندقية « مينيه » ذات الذخير توارت بندقية « بيكر » لان افضلية الاولى كانت واضحة منذ الاختبار الاول .

٢ ان تلقيم البندقية من مغلاقها فكرة قديمة وقد حال دون تحقيقها شيوع استعمال الخرطوشة المصنوعة من الورق المقوّى (الكرتون) مما يترتب عليه تسرب الغاز من مغلاق البندقية بكميات كبيرة .

عشرين عاماً ادخل ف. ب. سمث والنقيب جون اريكسن على هذا الاختراع تحسيناً كبيراً باحلالهما الفراش محل العجلات ، ثم استعيض عن الصفائح الخشبية بصفائح حديدية[1] . وجدير بالذكر ان الاميرالية البريطانية وقفت في وجه هذه « البدع » . فعندما طلبت وزارة المستعمرات العام ١٨٢٨ من وزارة البحرية سفينة بخارية تتولى نقل البريد بين مالطة والجزر الايونيـــة ، تلقت الجواب الآتي : « يرى السادة ... (لعله يقصد قادة الاسطول) ان من اقدس واجباتهم احباط كل محاولة ترمي الى استعمال السفن البخـارية ، اقتناعاً منهم بان استخدام البخار غايته القضاء على سيطرتنا البحرية[2] » .

وعندما اشتركت بريطانيا العظمى في حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) ، كان اسطولها يتألف من سفن شراعية خشبية ما عدا سفناً صغيرة ذات دور ثانوي كانت تسير بقوة البخار ، مع العلم ان المدافع الجديدة من طراز « بيهان[3] » كانت منذ ١٨٢١ قد

١ بدأ تصفيح الزوارق بالحديد في انكلترا في اواخر القرن الثامن عشر .

٢ كتب الاميرال اللورد داندونالد يقول : « اذا أعطيتُ سفينة بخارية صغيرة مجهزة بمدفع ثقيل بعيد المدى في مقدمتها وبمدفع مماثل في مؤخرها ، فاني اهاجم اضخم سفينة حربية » .

٣ كان الجنرال هنري جوزف بيهان قائداً لسلاح المدفعية في الجيش الفرنسي وقد اخترع المدفع المعروف باسمه ، وتبنته الحكومة الفرنسية عـام ١٨٢٧ .

جردت السفن الخشبية من قيمتها الحربية . وقد تنبه السر ويليام كونغريف منذ ١٨٠٦ الى وجوب تغطية جـــدران السفن الحربية بصفائح من الحديد ، ولكن حكومته لم تقم وزنـــاً لآرائه .

ثم اتضحت اهمية الصفائح الحديدية والبخـــار في موقعة « سينوب » التي هزم فيها الاسطول الروسي الاسطول التركي[١].
فقد التقى الاسطولان في تشرين الثاني ١٨٥٣ وكان الروس قد جهزوا سفنهم المزنرة بالحديد بمدافع ذات مقذوفات متفجرة ، فاستطاع اسطولهم اغراق اكثر سفن الاتراك لان هذه كانت خشبية ومجهزة بمدافع ذات مقذوفات لا تنفجر . وعلى الاثر امر نابوليون الثالث ببناء سفن مدرعة بالحديد ، ومسلحة بمدافع ذات مقذوفات متفجرة ، فتم في بضعة اشهر بناء خمس سفن لا تقـــل سماكة دروعها عن عشرة سنتمترات .

وكانت السفن الخمس مجهزة بآلات بخارية مساعدة ، ومسلحة بستة عشر مدفعاً ذات مقذوفات متفجرة . وقد سجلت هـــذه السفن انتصارات باهرة .

وبعد انتهاء حرب القرم بنت فرنسا وبريطانيـــا العظمى

١ لم يسلم من الاسطول التركي سوى سفينة بخـــارية صغيرة . وقد روى ثقاة ان اربعة آلاف تركي قتلوا . اما الذين لم يقتلوا وعددهم ٤٠٠ فقد اصيبوا بجراح .

دارعتين تسيران بقوة البخار هما « لاغلوار » و« فاريور »، وكان طول هذه ١١٥ متراً وحمولتها ٨٨٣٠ طناً وسرعتها ١٤ عقدة ونصف العقدة، وقد جهزت بثمانية وعشرين مدفعاً عيار ١٧٧ مليمتراً. اما دروعها فكانت بسماكة احد عشر سنتيمتراً [1].

وفي ٩ آذار ١٨٦٢ اقتتلت الدوارع للمرة الاولى في الحرب الاميركية. فقد التقت الدارعة الشمالية مونيتور الدارعة الجنوبية ميريماك ونشب بينهما قتال مرير استمر ثلاث ساعات دون ان تترتب عليه نتيجة حاسمة[2]. وبعد هذه المعركة ادرك الجميع ان لا قبل لسفينة خشبية بمنازلة اصغر السفن المدرعة. وصرح الاميرال البريطاني السر جون هاي بقوله: « مجنونٌ من يذهب الى القتال على سفينة خشبية، ومجرمٌ من يرسله في مثل هذه السفينة ».

ويمكن القول ان جميع سفن الحرب الخشبية في العالم قد

١ العام ١٩١٠ حولت الدارعة « فاريور » الى مصلح عائم وسميت « فرنون رقم ٣ ». اما تصفيح الدارعة الفرنسية « لاغلوار »، فقد كان بسماكة اثني عشر سنتيمتراً ونصف، اما سماكة الخشب فكانت خمسة وستين سنتيمتراً.

٢ كان طول الدارعة « مونيتور » ٥٢ متراً وعشرين سنتيمتراً، وسماكة دروعها ١٢ سنتيمتراً ونصفاً. اما حمولتها فقد كانت ١٢٠٠ طن. وكان للدارعة « ميريماك » دروع بسماكة عشرة سنتيمترات. اما حمولتها فكانت ٣٢٠٠ طن.

اغرقت معنوياً في ٩ آذار ١٨٦٢ .

ومع ان بريطانيا العظمى تأخرت في الانتقال من الشراع الى البخار ، فان الدول التي سبقتها في هـــذا المضمار لم تتوصل الى انتزاع السيطرة على البحار منها . فقـــد استطاعت انكلترا الاحتفاظ بهذه السيطرة بفضل تفوقهـــا الصناعي الذي اتاح لترساناتها البحرية ان تبني ضعفي ما بنته الدول البحرية المنافسة ، وكانت بحريتا فرنسا وروسيا مجتمعتين قد تفوقتا على البحرية البريطانية بجدارتها منذ العام ١٨٣٨ ، لان بريطانيا احتفظت بالسفن الخشبية حتى ذلك التاريخ [١] . وشاء حسن حظ بريطـانيا ان تدخل على اسطولها التحسينات اللازمة قبل ما احرزت بروسيا السيطرة على القارة بفضل القطار .

كانت بروسيا اسبق الدول الى تقدير اهمية السكك الحديدية في الحرب . فمنذ ١٨٣٣ اعلن المهندس ف. و. هاركورت ان خطاً حديدياً يربط كولونيا بمندن وخطاً آخر يربط مـــايانس بويزل يقويان الدفاع عن رينانيا. وشدد المهندس س. ا. بونيتز على وجوب انشاء شبكة خطوط حديدية تحمي بروسيا من هجوم فرنسي روسي نمساوي محتمـــل . وكتب فريدريك ليست

١ كان لبريطانيا ٨٠ سفينة كبيرة ، و ٩٣ متوسطة ، و ١٢ صغيرة تسير بقوة البخار. وكان لفرنسا وروسيا ٩٩ سفينة كبيرة ، و ٢٥ متوسطة، و ٤٥ سفينة صغيرة تسير بقوة البخار .

الاقتصادي الاشهر يقول ان بروسيا، الدولة العسكرية الثانوية، يمكنها ان تغدو بفضل السكك الحديدية مركزاً دفاعياً من الطراز الاول في قلب القارة الاوروبية. « فسرعة التعبئة وسرعة نقل الجيوش والعتاد والمؤن سيكون لهما شأن واي شأن بالنسبة الى بروسيا » .

و « ليست » هو القائل : « ان كل كيلومتر من السكك الحديدية تنشئه امة قبلنا وكل كيلومتر يكون لها زيادة عما لدينا، نحن ، يجعلانها تتفوق علينا . فلا عذر لنا في الاحجام عن اعتماد هذا السلاح الدفاعي الجديد الذي يضعه التقدم في متناولنا » .

وفي العام ١٨٣٣ اقترح « ليست » انشاء شبكة خطوط حديدية هي الشبكة التي تتمتع بها المانيا اليوم . وبعد ثلاثة عشر عاماً نقلت القيادة الى كراكوفيا بواسطة السكك الحديدية فرقة بروسية كاملة مؤلفة من ١٢ الف رجل ، ومعهم خيولهم ومدافعهم . وبعد نجاح هذه التجربة ، انصرفت هيئة اركان الحرب البروسية الى درس اهمية السكك الحديدية من الناحية العسكرية .

ومثلت شبكات الخطوط الحديدية دوراً عظيم الاهمية في تحديد الخطط الاستراتيجية خلال الحرب النمسوية البروسية (١٨٦٦) . وخلال الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠) ، جعل فون مولتكه من استراتيجية الخطوط الحديدية فناً قائماً

بذاته عندما ناط بمئة الف الماني على الاقل مهمة حماية الخطوط الحديدية في المؤخرة . وعندما حوصرت باريس استطاع الالمان ارسال العتاد والمؤن الى قواتهم بواسطة السكك الحديدية .

ومنذ العام ١٨٦٦ ترك الجيش النظامي ، الجيش المحترف ، مكانه للخدمة العسكرية القصيرة الامد ، واستعيض عن النوع بالكم . وغدت الحرب مهمة « الرجل الوسط » . ومقابل تضاؤل مهارة الجندي ، أُشترط في الضابط ان يكون ذا مؤهلات حرفية وادارية . وانتقلت القيادة من يد الرجل الفرد الى هيئة اركان تعاونها مصلحة الميرة ومصلحة النقل وعدد كبير من الخبراء . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، فبازدياد عدد المجندين ازدادت اعباء الامة ، واعباء مصانع السلاح والتجهيزات . ونظمت الصناعة واجهزة البرق والبريد على اساس حربي . واتضح لكل ذي عينين ان النصر سيكون حليف الامة التي تزيد في السلم امكاناتها الصناعية ويتوافر لديها اكبر عدد ممكن من العمال الاختصاصيين ، والجنود المدربين ، وكميات وافرة من المواد الاولية والاسلحة الحديثة . وكانت بروسيا المجلية في هذه الميادين كلها . وبينما كانت الامم الاخرى غارقة في جدال لا طائل تحته حول ميزات البندقية ذات الحجر وعيوبها ، جهزت بروسيا منذ ١٨٤١ بعض الويتها بالبندقية « دريز » التي تلقم من

مؤخرها والتي اشتهرت باسم « البندقية ذات الابرة [1] » . ولئن يكن بنيامين روبنس هو اول من وضع تصميم بندقية تلقم من مؤخرها ، فجوهان نيقولا دريز هو اول من صنع بندقية من ذلك الطراز تطلق في الدقيقة سبع طلقات ، وكانت ميزتها الرئيسة ان مطلقها يستطيع تلقيمها وهو منبطح [2] .

بيد ان بروسيا لم تكن مجلية في مضمار تحسين المدفعية ، فقد كانت ماليتها اعجز من ان تؤمن نفقات صنع المدافع الضخمة البعيدة المدى التي كان الفرنسيون والانكليز وحتى الاميركيون قد جهزوا جيوشهم بها ، ولاسيما المدفع المخطط والمدفع الذي يلقم من مؤخره [3] . وقد جربت انكلترا المدفع

١ تم تجهيز الجيش البروسي كله ببندقية « دريز » بين ١٨٥٣ و١٨٥٨ ، وكانت تضبط للرمي الى مسافة ٦٠٠ متر .

٢ في ٢٩ حزيران ١٨٦٦ وقع في الاسر ضابط نمسوي فقال للضابط الالماني كيسل : « انهارت معنويات جنودنا لانهم لاحظوا انكم اقدر منهم على تلقيم بنادقكم . لقد كان رجالنا كرجالكم مختبئين في حقول القمح وكان بوسع جنودكم ان يطلقوا النار وهم منبطحون . اما جنودنا فقد كان عليهم ان يقفوا ليلقموا بنادقهم من فوهاتها . فلما لمسوا تفوقكم داخلهم ذعر شديد ، وباتوا عاجزين عن ادخال الخراطيش في البنادق لفرط ما انتاب ايديهم من ارتعاش » . (عن التقارير العسكرية التي وضعها الزعيم البارون ستوفل ، الملحق العسكري الفرنسي في بروسيا بين ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، الطبعة الانكليزية الصادرة سنة ١٨٧٢ ، ص ٦٤) .

٣ اول مدفع يلقم من المغلاق ظهر في القرن الرابع عشر ، واول مدفع مخطط ظهر في القرن السابع عشر .

المشتمل على الميزتين ، دون ان تتبناه ، قبل شيوع استعماله بصورة عام .

ولكن الانكليز لم يعتمدوا المدفع المخطط في ذلك الحين، لان انصار المدرسة القديمة رفضوا استعماله . وبعد مائة عـــام اخترع ضابط ايطالي يدعى كافالي مدفعاً مخططاً يلقم من مؤخره . وفي العام ١٨٤٦ أدخل البارون فاهرندوف تحسيناً كبيراً على هذا الاختراع . الا ان بروسيا لم تفد من جهود البارون الا بمقدار ، لان ماليتها لم تسمح لها بالاكثار من صنع المدافع الجديدة . وفي حرب القرم حوّل الانكليز والفرنسيون عدداً من مدافعهم التي كانت تلقم من فوهاتها الى مدافع مخططة تلقم من مؤخرهـــا (مدافع من طراز لانكستر) ، فكان لها شأن واي شأن في دك حصون سباستبول ، مما شجع الدول العظمى على تجهيز جيوشها بمدافع مخططة تلقم من مؤخرها .

ونشطت الاختراعات في الحرب الاهلية الاميركية، فظهرت بندقية من طراز جديد . ثم توالى ظهور الاسلحة الجديــــدة : المدافع الرشاشة ، الالغام البرية والبحرية ، سلاح الاشارات ، الاشارات المضيئة ، الاسلاك الشائكة ، الرمـــانات اليدوية ، الرمانات المجنحة ، الصواريخ ، القطارات المصفحة ، المناطيد . وقام من يقترح استعمال قاذفات اللهب . واستطـــاعت غواصة صغيرة في ١٧ شباط ١٨٦٤ اغراق الباخرة « هوزاتونيك » .

وقد وجد فريدريك انجلز في الحرب الاهلية الامـــيركية

« مأساة لم يسجل التاريخ العسكري لها مثيلاً » . امـــا كارل ماركس فقد كتب يقول : « في القرن الثامن عشر قرعت حرب الاستقلال الاميركي الناقوس ، منبهةً الطبقات المتوسطـــة في اوروبا ، فجاءت الحرب الاهلية في القرن التـــاسع عشر تقرع الناقوس ، منبهةً الطبقـات الكادحة » . ولكن جندياً ذكيـاً كمولتكه الكبير لم يجد في الحرب الاهلية « غير نزاع بين فئتين من الدهماء لا يمكن ان يستخرج منه درس ما » .

ومع ان الحرب بين بروسيا والنمسا جاءت في اعقاب الحرب الاهلية الاميركية (١٨٦٦) فقد خلت من اي تقدم تقني اللهم الا تفوق البندقية ذات الابرة على البندقية النمسوية « لورانز » التي تلقم من فوهتهـــا . وقد خسر النمسويون الحرب لانهم اعتمدوا على الحراب اكثر من اللازم [١] . ولعل ابرز ما ترتب على انتصار بروسيا زيادة عدد سكانها ٢٤ مليوناً ، مما كفل لها تفوقاً عددياً على فرنسا بنسبة ٣٣ بالمئة . فلمـا شبت الحرب السبعينية مثّـــل التفوق العددي البروسي دوراً كبـيراً بالرغم من تفوق البندقية الفرنسية على البندقية البروسية ذات الابرة . ولكـن الكلمة الفصل كانت دائماً للمدافع البروسية المخططة ، وقد قابلها

١ كتب شاهد عيان اسباني يصف استبسال النمسويين ، قال : « اظهر النمسويون شجاعة خارقة في مواجهة نيران اعدائهم محاولين الدنو من صفوفهم واستعمال الحراب . ولكن نيران البروسيين كانت تحصدهم حصداً من مسافة ٣٠٠ متر » .

الفرنسيون بمدافعهم البرونزية التي تلقم من افواهها . ففي معركة غرافيلوت كان لدى البروسيين ٧٢٦ مدفعاً . وفي سيدان، حيث نشبت المعركة الحاسمة ، حطمت المدفعية البروسية الكرات الفرنسية من مسافة الفي متر . ووصف ضابط فرنسي وقع اسيراً النيران البروسية بقوله : « كان للعدو مدفعية تسد دوننا المنافذ على عرض خمسة كيلومترات » . وفي الحرب السبعينية وضع مدفع الميدان حداً لتفوق البندقية [1] ، ووضعت هذه حداً لتفوق الخيالة كسلاح للصدام .

وبعد الحرب السبعينية نعمت اوروبا بسلم طويل الامد [2] . ونشطت خلال هذه الفترة الاختراعات ، وقام بين الدول سباق في مضمار التسلح بعد ما بسطت سيطرتها على ارض واسعة في آسيا وافريقيا والمحيط الهادىء . وكانت المانيا سبّاقة في هذا المضمار عندما قررت في اواخر القرن التاسع عشر القفز الى المرتبة الثانية بين الدول البحرية متحدية بريطانيا العظمى .

١ يقول الزعيم كولن في مذكراته عن معركة سيدان ان المدفعية البروسية كانت تقذف حممها من المرتفعات المشرفة على الخطوط الفرنسية ، فتنفجر القنابل محدثة فجوات واسعة في الارض ومسببة افدح الخسائر في صفوف الفرنسيين .

٢ اي ان اوروبا لم تكن خلال الفترة الممتدة من ١٨٧١ – ١٩١٤ مسرحاً لحرب عمومية محلية كالحرب الروسية التركية ، والحرب اليونانية التركية ، والحرب التركية الايطالية ، وحرب البلقان .

وقد ظهر قبل انصرام القرن التاسع عشر ثلاثة اسلحة بحرية جديدة هي : اللغم البحري ، والرعاد ، والغواصة . واستعمل الاميركيون هذه الاسلحة الثلاثة في الحرب الاهلية ، مع العلم ان الغواصة جرّبت للمرة الاولى العام ١٧٧٦[1] ، ولكن نتائج التجربة لم تكن مشجعة ، ومع ذلك ففي العام ١٨٧٥ كان ج. ب. هولند قد وضع تصميم الغواصة « نوردنفلدت » التي نزلت الى البحر العام ١٨٨٣ . ومنذ ذلك الحين اخذت الدول تعنى بامر السلاح الجديد . ومـــا وافى القرن العشرون حتى كانت الدول البحرية قد تبنته .

وفي البر حققت صناعة الاسلحة خطى واسعة ، فعمّ استعمال البندقية الحديثة والرشاش والمدافع السريعة الطلقات . وظهور الرشاش قـــديم يرقى الى القرن الرابع عشر ، ولكن الدول لم تقدر اهميته ، فاهمل . وظهر للمرة الاولى في الحرب الاهليـة الاميركية . وفي العام ١٨٦٦ اخترع المقدم « ريفي » الرشاش الفرنسي واطلق عليـه اسم المدفع الرشاش ، وهو يطلق ١٢٥ رصاصة في الدقيقة . إلا ان ارتداد المـدافع والرشاشات حفظ

١ صنع هذه الغواصة دافيد بوشنل وكان يقودها رجل واحـــد . وقد حاولت هذه الغواصة نسف السفينة الحربية البريطانية « ايغل » ، ولكن خطأ حسابياً سبب اخفاق المحاولة . وفي العام ١٨٠١ بنى فولـــتن لحساب فرنسا غواصتين تستطيعان البقاء تحت الماء اربع ساعات .

للبندقية مركزها الاولي . فلما تمكن المخترعون من ابتكار اسلحة ثقيلة غير مرتدة ، تركت البندقية مكانها للمدفع . وظهر ذلك جلياً في الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ – ١٩٠٥) . وفي هذا كتب المقدم ج. م. هوم يقول : « اثبتت الحرب الروسية اليابانية ان المدفع هو السلاح الرئيس ، وان الفريق الذي يملك المدفعية القوية هو الفريق الرابح حتماً [١] » .

ورافق تقدم صناعة الموت نشوء تكتية جديدة بدلت وجه الحرب وحولت مجرى التاريخ . فقد كان ابرز ما تميزت به هذه الحقبة نشوء نظام اقطاعي اقتصادي حلت فيه المصالح المالية والصناعية والتجارية الكبرى محل بارونات القرون الوسطى . وفي ظل هذا النظام ارتكز المجتمع على الصناعة وليس على الزراعة ، ولم يعد للدين شأن في تحريكه ، بل حرّكه البخار ... واذا كان الحقل مصدر اسلحة الانسان الاولى ، فاسلحة اليوم تأتيه من المعامل ... وبديهي ان يؤدي تزايد الحاجات العسكرية الى تنشيط الانتاج ، والميل الى المغامرة ، واحتكار صناعات جديدة . وعندما لوّح نابوليون بجائزة سنية لمن يبتكر طريقة لحفظ المواد الغذائية في الميدان ، ابتكر « نيقولا أبرت » اوعية زجاجية لهذا الغرض ، وسمي بحق منشيء صناعة

١ كان القائد الروسي اوكانوف قد اعلن قبل ٣٠ عاماً ان المدفعية ستغدو المنجل الذي يحصد البشرية ، والسلاح الرئيس الذي لا يجارى .

المحفوظات . وعندما لوّح نابوليون الثالث بجائزة لمن يبتكر طريقة كفيلة بدرء خطر القنابل المتفجرة ، سارع « بسمير » الى ابتكارها .

وقد ترتب على ازدياد الطلب على المدافع والصفائح الفولاذية انتشار افران صهر الحديد في اوروبا ، وازدهار الصناعات الثقيلة ، كما ترتب على توسع الدول بفرضها سيطرتها على الاقطار المستضعفة تسابقها في مضمار مد الخطوط الحديدية وانشاء الموانيء والقواعد البحرية لاغراض محض استراتيجية . وقد كتب « ممفورد » في « تقدم الفن الحضاري » يقول : « كان المجتمع يعيش في حالة حرب دائمة ، فاجهزته كافةً كانت تعمل في خدمة الموت . ويمكن القول ان الحرب كانت مرتكز هذا المجتمع وغايته ، وكان هاجسه الوحيد اخضاع سائر المجتمعات لسيطرته ، مما اوجد تسابقاً هائلاً في مضمار استغلال الخوف » .

والحرب التي بات يخشاها الناس حرب كلية تشمل الحقول الدبلوماسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والنفسية ، والعسكرية . وكان انجلز وماركس بحق واضعي اسس الحرب الكلية المعاصرة . وجاء بعدهما المناضل النقابي جورج سوريل يؤكد ان اضراباً عاماً يمكن ان يستحيل معركة نابوليونية ، وان حرباً كحرب القرم يمكن اعتبارها طليعة نزاع اهلي اممي .

فمن كان وراء هذه النزعة الشريرة ؟ لم يكن وراءها الملوك ولا الرؤساء ولا الحكومات ولا البرلمانات ، بل كان وراءها

المصالح المالية الكبرى . وقد لمس هذه الحقيقة الشاعر الانكليزي بيرون في عصره اذ قال في قصيدة له شهيرة : ان من يمسك بخيوط السياسة ليس نابوليون بونابرت، بل اليهودي روتشيلد وزميله المسيحي بارنغ . وبعد الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠ — ١٨٧١) كتب مولتكه يقول : « لقـــد بلغ نفوذ البورصة في ايامنا حداً تستطيع معه دعوة الجيوش الى التذابح حفاظــــاً على مصالحها هي . فمصر والمكسيك قد اجتاحتها الجيوش الاوروبية نزولاً على رغبة المؤسسات المالية الكبرى » .

وقال المارشال فوش في محاضرة له القاها في تلاميذ المدرسة الحربية العليا : « تستخدم الامم الحرب وسيـلة للاثراء وتحقيق الرغبات . فانتصارات الالمان العام ١٨٧٠ قد سببت اثراء دعـاة القومية الالمانية . ونحن كدنا نشتبك مع الانكليز في نزاع من اجل فاشودا . لماذا ؟ لان الدولتين تتسابقان في مضمار احراز المواد الاولية وايجاد اسواق جديدة لصناعة تنتج اكثر ممـــا تستطيع تصريفه محليا . وحرب البوير لم تسببها الملكة فكتوريا، بل يجب ان يُسأل عنها تجار الحيّ المالي » .

وكان البولوني « بلوخ » ابعد الكتّـاب والمفكرين نظراً حين كتب منذ ١٨٩٧ في الحرب وعلاقتها بالتقنية والاقتصـــاد والسياسة ما نصه :

« قبل اكتشاف البخار واختراع السكك الحديدية كانت كل امة تؤلف وحدة قائمة بذاتها ، مكتفية بما لديها . اما اليوم

فمصالح الامم باتت متداخلة ، متشابكة ، وقد اغرت سهولة الانتقال الامم القوية بخيرات الامم المستضعفة ، وراحت المصالح المالية ذات النفوذ الواسع تستغل هذه النزعة الجشعة لمصلحتها هي » . وتنبأ « بلوخ » باشكال الحرب المقبلة ، حرب ١٩١٤ ، فاكد ان القتال نفسه لن يضع حداً للمجزرة ، فالكلمة الحاسمة ستكون للجوع وافلاس الامم وانهيار النظام الاجتماعي ، كما اكد ان كل مقاتل سيقبع في خندقه ، وان المعول لن يقل شأناً عن البندقية .

كل ذلك كان نتيجة اكتشاف البخار . ولكن قدرة الانسان على الاختراع لا تعرف حدوداً . فهو ما ان يخترع وسيلة مدمرة حتى يباشر البحث عن وسيلة جديدة . وقبل ما تتحق تنبؤات « بلوخ » ظهر في الافق البعيد طلائع بحر جديد لم يستغله الانسان هو اوقيانوس العصر البترولي .

الفصل السادس

عصر البترول الاول

في اواخر القرن التاسع عشر دخل التسلح في طور جديد ، واضحى « للامـــة المسلحة » مفهوم مستوحى من اكتشافين عظيمين همـــا : الآلة المتحركة بالقوة المستمدة من البترول ، واللاسلكي . وكان الاكتشاف الاول نتيجة مباشرة لنمو انتاج النفط في الولايات المتحدة الاميركية [1] . اما اللاسلكي فيمكن القول ان مخترعه هو صموئيل مورس الذي اجرى تجاربه الاولى العام ١٨٤٢ .

والدكتور ن. ا. اوتو هو الذي جعل من المحرك البترولي اختراعاً تجارياً [2] ، وذلك في اواخر العام ١٨٧٦ . وبعد تسع

١ بلغ انتاج النفط الخام الفي برميل العام ١٨٥٩ ، واربعة ملايين وربع المليون العام ١٨٦٩ ، و ٢٠ مليوناً العام ١٨٧٩ ، و ١٢٨ مليوناً العام ١٩٠٦ .

٢ عرف المحرك الغازي نظرياً في اواسط القرن التاسع عشر ، ويبدو ان كريستيان هوغنز صنع محركاً من هذا النوع العام ١٨٦٠ كان يعمـــل بقوة البارود وضغط الهواء .

سنين ادخل غوتليب ديملر على المحرك تحسيناً كبيراً بتجهيزه درّاجة بمحرك صغير ذي وقود يشتعل داخلياً ، فصنع بذلك المركبة الاولى المندفعة بقوة الوقود النفطي [١] .

ومنذ العام ١٨٩٥ اجري اول سباق للسيارات بين باريس وبوردو ، فقطعت السيارة المجلية مسافة ١١٩٠ كيلومتراً بمعدل اربعة وعشرين كيلومتراً في الساعة . وفي ١٧ كانون الاول ١٩٠٣ احرز المحرك انتصـــاره الثوري ، ففي هذا اليوم حلق « اورفيل رايت » فوق هضبة كيل ديفيل بكارولينا الشمالية على متن طائرة ذات محرك ، واستمر تحليق الطـــائرة اثنتي عشرة ثانية . وبعد ست سنوات اجتاز الطيـار الفرنسي بليريو بحر المانش بين كاليه ودوفر على متن طـــائرته الصغيرة في احدى وثلاثين دقيقة .

وهكذا غدت الاسطورة واقعاً ملموساً . فصواعق جوبيتر صار بالامكان انقضاضها من السماء .

اما اللاسلكي فيعود اختراعه ، نظرياً ، الى رودولف هرتز الذي اثبت في شتاء ١٨٨٧ ان شرارة كهربائية يمكن ان تترك اثراً يمتد امتداد الموجة الاثيرية . وقد اهتم ماركوني مذ ذاك بايجاد الجهاز القادر على التقاط الموجات المذكورة ، وتوصل

١ العام ١٨٨٥ صنع المهندس بوتلر في انكلترا دراجة ذات ثلاث عجلات يدفعها محرك بترولي .

العام ١٨٩٧ الى نقل برقية لاسلكية الى مسافة ١٥ كيلومتراً ، والعام ١٩٠١ نقل البرقية الى مسافة خمسة آلاف كيلومتر .

ومن تحصيل الحاصل القول ان المحرك البترولي واللاسلكي [1] قد اغنيا الحرب بامكانات تفوق بمراحل تلك التي اغناها بهـا البارود والبخار . فالبترول ، الى جانب احداثه ثورة في النقل البري ومن ثم في حقل الحرب البرية ، قد حل مسألة الطيران ونقل الحرب الى الفضاء ، هذا المجـال الثالث . اما اللاسلكي فيمكن القول انه نقل الحرب الى المجال الرابع ، لان نقل البرقيات بدون حاجة الى الاسلاك قد قضى على الوقت والمدى . وهكذا اوجد الاختراعان ميدانين جديدين للحرب هما الفضاء

[1] عزز ذينك الاختراعين اختراعات لا يتسع المجال لذكرها جميعاً ، فنكتفي بايراد اهمها . فالتلفون الكهربائي اخترعه بيل العـام ١٨٧٦ ، واخترع بيرسن التوربين البخاري العام ١٨٨٤ ، واخـترع دنلوب العجلة المعروفة باسمه العام ١٨٨٨ . وفي الوقت نفسه ظهرت في اميركا آلات زراعية مجهزة بسلاسل بدلاً من العجلات . ومن الاختراعات التي كان لها شأنها في تطوير الدعاوة ، في الحرب والسلم على السواء ، تقدم الفن السينمائي في اواخر القرن التاسع عشر . ويقول ممفورد في كتابه « التقنية والحضارة » (ص ٢٦٠) إن تقنية الحد من النسل كانت بالنسبة الى الجنس البشري اعمق اثراً من اي تقدم علمي او تقني سجله القرن التاسع عشر . فـالامة التي تسجل نقصاً في المواليد تخشى الحروب ، وتسقط فريسة مركب الخوف ، وتقعد عن الابتكار والخلق .

والاثير ، يجول الطيران في اولها والراديو في ثانيهما [1] .

وقـــد ترتب على هذه التحوّلات الاساسية استخدام قوى هائلة اين منها القوى التي حرّكها من قبل الفحم الحجري والبخار. ورافق هذه التحولات تقدم شمل العلوم الكيائية والكهربائية والطبية ، الخ ... وانتقل الصراع في سبيل السيطرة من المادة والاشياء الى العقل والفكر والمخيلة... وبدا على العالم انه يوشك ان يتسم بطابع جديد عقلياً وفكريا ومادياً ، طابع ينتقل من الثورة الصناعية الى طور الحضارة التقنية .

والغريب ان العسكريين لم يشعروا بهذا التقدم « المدني » ، وقد فاتهم ان القوة العسكرية مدعوة الى اقتفاء اثر الحضارة التي غلب عليها الطابع التقني ، كما فاتهم ان الحرب الآتية ستكون صداماً بين مصانع وتقنيين اكثر منها صداماً بين قادة وجيوش [2] . وقلائل جداً هم العسكريون الذين ادركوا ان الصناعة والعلم وضعا في متناولهم اسلحة ان هم احسنوا استعمالها استطاعوا تجنب الحرب الطويلة الامد . ومن هذه الفئة ضابط فرنسي بعيد النظر كتب في صيف ١٩١٢ يقول : « ستكون

١ الولايات المتحدة هي اول بلد استخدم الراديو في الاذاعة .

٢ اجمع الكتّاب العسكريون قبيـل الحرب ١٨١٤ – ١٩١٨ على القول بان حرباً تنشب في اوروبا ستكون حرب خنادق وحصار ، وان النصر سيكون حليف من يصمد الى النهاية . ومن اولئك الكتاب اميل ماير السويسري ، والزعيم ريبنتون البريطاني، والزعيم مونتاني الفرنسي .

الحرب المقبلة حرب حركة ، ولن تدور بيننا وبين الالمان رحى معارك خنادق كما حدث في موقدن وبليفنا، لان الجيش الفرنسي سينزل الى الساحة وشعاره هذه المرة الهجوم ، والهجوم دائماً [1] » .
وكان القادة فوش وغرانميزون ولانغلوى يتزعمون في فرنسا مدرسة « الهجوم مفتاح النصر » ، وكانت نظريتهم تقوم على مبدإ كان قد اطلقه الفيلسوف جوزف لومستر وهو « ان المعركة الخاسرة هي معركة تحسبها خاسرة ، لان المعارك لا تخسر ماديا » . وقد استطرد فوش من هذا الى القول : « ان المعركة لا تخسر مادياً ، ولكنها تخسر معنوياً ، وتربح معنوياً كذلك . وعلى هذا تكون المعركة الرابحة معركة نرفض ان نعترف بهزيمتنا فيها » .

وانطلق فوش من هذا المبدإ الى القول ان الهجوم هو الطريق الوحيد المؤدي الى النصر . ولكنه نسي ان الهجوم لا يؤتي ثماره بدون سلاحه الرئيس ، سلاح الهجوم النابوليوني : المدفعية .

اما الكونت فون شليفن فقد تنبه الى ما غفل عنه فوش [2] ،

١ وقد بسط الجنرال هير وجهة النظر الفرنسية في الحرب ، فقال ان النزاع سيكون قصير الامد، تتحرك فيه الجيوش بسرعة، وتمثل المناورة الدور الرئيس ، وستكون المعركة صراعاً بين اسلحة المشاة ، وتقوم المدفعية بدور ثانوي ، ولن يكون ثمة حاجة الى المدفعية الثقيلة .

٢ ادرك اهمية المدفعية الثقيلة الاميرال الانكليزي السر جون فيشر منذ العام ١٩٠٥ .

فضاعف قوة المدفعية الالمانية الثقيلة . بيد انه لم يقدر الرشاش قدره كسلاح تكتي لا يستطيع المدفع الثقيل شيئاً بدون مساندته . وقد اقترحتُ انا ، على ضوء نتائج الحرب الروسية اليابانية ، جعل مدفع الميدان السريع الطلقات والرشاشات محور الحركات التكتية ، وقلتُ ان مدفع الميدان قادر على احلال نظرية فتح الثغرة في جهاز العدو محل نظرية التطويق ، وان تنظيم المشاة يجب ان يتم حول الرشاش ليتسنى لهم استغلال النجاح المبدئي الذي تحرزه المدفعية .

ولو ان الالمان نظموا جيشهم في الحرب العالمية الاولى على اساس تساند مدفع الميدان والرشاش بدل تساند المدفع والبندقية ، لاستطاعوا اجتياح فرنسا بمثل السهولة التي اجتاحوها بها العام ١٩٤٠ بفضل تساند الدبابة والطائرة .

وقد كان من نتائج انعدام التعاون بين الاسلحة في ابان الحرب العالمية الاولى تفوق الدفاع على الهجوم [١] تفوقاً ترتب عليه ، بعد اسابيع من نشوب الحرب ، تخلي حرب الحركة عن مكانها لحرب الحصار . وصار على القادة العسكريين حيال هذا الجمود ان يوجدوا مخرجاً يعود بهم الى حرب الحركة ، وخيّل اليهم

١ ادرك اهمية المدفعية البعيدة المدى الزعيم تيودور ليان في اثناء الحرب الاهلية الاميركية ، فكتب يقول : « ضع رجلاً في خندق ووراءه مدفعة قوية ، فيواجه خمسة رجال ولو لم يكن محارباً شجاعاً » .

انهم واجدوه بجعل نيران المدفعية اكثر كثافة [1] . بيد ان القذائف لم تعطِ النتائج المرجوة، لان المتحاربين افادوا من جمود الجبهة فراحوا ينشئون الاستحكامـات ويحصنون المواقع، فعجزت المدفعية عن دك هذه المنشآت . ومع ان القصف المدفعي الكثيف - الذي سمي القصف المبيد [2] - قـد اتاح على العموم احراز نجاحات اولية بالقضاء على المواصلات في المناطق الامامية، فانه كان في الوقت نفسه سبباً في شل حركة المشاة والمدفعية وتموين السلاحين ، لان القذائف احدثت في قطاع واسع ثغرات لم يقل دورها في العرقلة عن دور الخنادق والحواجز الطبيعية التي ضربتها نيران المدفعية . ويمكن القول ان المدفع الذي غدا سيد ميدان المعركة قصّر عن القيام بدور حاسم لافتقاره الى الحركة

١ اكتشف القادة العسكريون في المعسكر الحليف العلاقة القائمة بين التكتية وانتاج الذخيرة . ففي تموز ١٩١٤ لم يزد انتاج بريطانيا من قذائف المدفعية على ٣٠٠٠ قذيفة ، وفي تشرين الاول ١٩١٥ انتجت مليون قذيفة ، وبلغ مجموع ما انتجته في الحرب ١٧ مليوناً .

٢ اتسع نطاق القصف المدفعي الاعدادي تباعاً . ففي معركة «هوج» العام ١٩١٥ اطلقت ١٨ الف قذيفة ، وفي معركة « الصوم » الاولى اطلق مليونا قذيفة وكذلك في معركة اراس (١٩١٧) ، وفي موقعة « الايبر» الثالثة بلغ عدد القذائف التي اطلقتها المدفعية اربعة ملايين وثلاثمـائة الف . وخلافاً لما توقعه خبراء تلك الايام ، لم تكن معركة العتاد عاملاً من عوامل توفير الارواح البشرية ، بل ضاعفت الخسائر اذ بلغ عدد القتلى والجرحى في صفوف الانكليز في معركتي الايبر والصوم ثمانمائة الف رجل .

والمرونة ، فقد اصطدم كما اصطدم المشاة بقطاع ملأته القذائف حفراً واخاديد .

وحيال هذا الجمود الذي جعل من الحرب عملية حصار، وضع الحلفاء ثقتهم بالحصار الذي كان دائماً السلاح الاقوى في الهجوم الاقتصادي ، وكان رد الالمان على الحصار حرب الغواصات ... ولم يكن تحطيم الحصار مسألة بحرية بل كان مسألة عسكرية . وقد جعل الالمان همهم فتح ثغرة في الجبهة المعادية ليوسعوا منطقة الموارد الغذائية ويخففوا من ثم من فعل الحصار . وجعل الحلفاء همهم فتح ثغرة في الجبهة الالمانية وبلوغ قواعد الغواصات وتدميرها [1] . ولما كانت المدفعية عاجزة عن احداث الثغرة التي وضع الالمان نصب اعينهم احداثها ، فقد قررت القيادة اللجوء الى الغازات الخانقة ، واستخدمت هذا السلاح للمرة الاولى في ٢٢ نيسان ١٩١٥ . الا ان السهولة التي تمّ بها اتقاء خطر الغازات ادت الى احباط الخطة الالمانية [2] . ولجأ الفريقان كذلك الى الاغارات الجوية على المناطق الآهلة بالمدنيين وبالمصانع ، ولكن الطيران لم يكن قد بلغ درجة من النمو تسمح باحراز

١ تلك كانت غاية معركة « الايبر » الثالثة .

٢ اقعد تأثير الغازات ٧٤٧٧٩ اميركياً عن مواصلة القتال ، ولكن معدل الوفيات في صفوفهم لم يزد على ٢ بالمائة .

نتائج حاسمة [1] .

لم تعط الغازات ولا الطائرات الحل المنشود ، لان الفريقين لم يفهما المسألة التي عرضت لهما . فقـــد كان المطلوب القضاء على الخطو الممثل برصاص المشاة . وواضح ان الحل كامن في ايجاد صفائح لا يخترقها الرصاص ، وليس في مضاعفة قوة المقذوفات والقذائف والقنابل او في اللجوء الى الحرب الكيمائية . وقـــد ادرك هذه الحقيقة ، والحرب بعد في ابانها ، الزعيم سوينتن وضباط آخرون في بريطانيا العظمى [2] ، واتضح لهم فيما بعد ان

١ شنّ الالمان مائة واحدى عشرة غارة جوية على انـكلترا، القيت خلالها ثمانية آلاف وخمسمائة قنبلة زنتها ثلاثمائة طن . وقد قتل من المدنيين ١٤١٣ ، وجرح ٣٤٠٧ ، وقدرت الاضرار بثلاثة ملايين جنيه . وسببت الاغارات الحليفة على المانيا قتل ٧٢٠ ،وجرح ١٧٥٤ ،وقدرت الاضرار بمليون و ١٧٥ الف جنيه .

٢ تنبأ جوميني، منذ العام ١٨٣٧ ،بالعودة الى الدرع او ما يشبه الدرع، عندما كتب يقول : « حيال تزايد قوة النيران سنعود فنرى الرجال غارقين بالحديد ، وكذلك المطايا » .

وكتب الزعيم س. ب. براكنبوري يقول : « اذا توصلنا الى صنع سلاح دفاعي مصفح ومتحرك ، تنقله المدفعية بدل الخيالة او المشاة ، نكون قد اوجدنا سلاحاً من شأنه قلب تكتية القتال رأساً على عقب » . وقد كان الالمان السابقين الى تحقيق امنية الضابط الانـكليزي ، فاخترع الزعيم شومان العام ١٨٨٩ مدفعاً عيار ٣٧ مليمتراً تجرّه مركبة خاصة ، وغطاه بصفائح فولاذية لا يخترقهـــا الرصاص ولا القذائف . وقد بلغت زنة الصفائح طناً ونصف الطن . وفي مناورات ١٨٩٠ فوجيء السفراء برؤية المدفع المدرع ، وبعثوا الى حكوماتهم بتقارير مطولة يصفون فيها السلاح الجديد .

الجندي لا يسعه التدرع بالصفائح الواقية ، وان الوقاية المطلوبة يجب ان توفرها له مركبة مدرعة قادرة على التحرك بيسر في ساحة القتال ، مركبة ذات سلاسل تغنيها عن العجلات . ومن هذه الفكرة انبثق تصميم الدبابة . وفي ١٥ ايلول ١٩١٦ استعمل الحلفاء السلاح الجديد للمرة الاولى في معركة « الصوم » .

كان ظهور السلاح الناري قد اثار مسألتين هما تأمين التوافق بين الحركة والنيران ، وبين الحركة والحماية ، فجاءت الدبابة تحمل الحل المنشود بمضاعفتها الحركة ، وباحلالها القوة الآلية محل قوة العضلات ، وامنت الحماية بمواجهتها خطر الرصاص بدروع لا يخترقها الرصاص ، واتاحت للجندي ان يقاتل دون ان يترك مكانه ، اي انها ادخلت التكتية البحرية الى الحرب البرية .

وقد استخدمت الدبابات استخداماً حسناً في معركة كامبري (٢٠ تشرين الثاني ١٩١٧) . ففي هذه المعركة لم تقم المدفعية بعمل تمهيدي ، بل قامت الدبابات بهذه المهمة كما لو كانت مدفعات متحركة ، وكانت تتقدم امام المشاة مجموعاتٍ صغيرة (تضم المجموعة ثلاث دبابات) . وبفضل استعمال السلاح الجديد على نطاق واسع ، تضاءلت الخسائر بالارواح . ففي معركة « الصوم » دفع الانكليز عن كل كيلومتر مربع احتلوه ٥٢٧٧ قتيلاً وجريحاً ؛ وبعد استخدام الدبابات على نطاق واسع هبط هذا الرقم الى ٨٦ .

وانتهت الحرب العالمية الاولى – وقد كانت كونية شاملة وذات اسباب مالية واقتصادية – بالمجاعة والافلاس وانهيــار النظام الاجتماعي في البلدان المغلوبة على امرهــا . وكان الحصار السلاحَ الرئيس في هذه الحرب، لان « حجم » طاقته على الايذاء كان كاملاً ، فنال اذاه كل رجل وكل امرأة وكل طفل ، كما نال كل مصنع في البلاد التي ضرب الحصار عليها . ووراء الحصار جاءت الدبابة التي فاق تأثيرها المعنوي فعلها المادي ، لان الجندي الالماني وجد نفسه حيال هجماتها عاجزاً عن الحركة . ولم يعــدُ لودندورف الحقيقة عندما سمّى انتصار الدبابات في اميان يوم ٨ آب ١٩١٨ « يوم الحداد في الجيش الالماني » .

اما الثورة التي جاءت في اعقاب الحرب فقد كانت شاملة ، وادت ، سياسياً ، الى القضاء على ثلاث امبراطوريات : المانيا ، وروسيا ، والنمسا ؛ وادت ، اقتصاديــاً ، الى خراب الامم المغلوبة على امرهــا ، والى استنزاف الامم المنتصرة (باستثناء الولايات المتحدة الاميركية) .

وكانت الحرب ثورية الطابع بقدر ما كانت ثورية النتائج . فقد ضرب المتحاربون بالمناقب عرض الحــائط ، وهو دركٌ لم تنزل اليه الحروب النابوليونية ولا حرب العام ١٨٧٠[1] . ويمكن

[1] كان في وسع نابوليون ان يستغل حقد الاقنــان الروس والاوكرانيين ، وكان باستطاعته اشعال نار الثورة في فرنسا خلال حكم =

القول ان ارتكاب الاعمال الهمجية كسلاح للدعاوة لم تترفع عنه امة محاربة . « ان غاية القتال المباشرة القتلُ والاستمرار في القتل الى ان يزول كل ما هو قابل للقتل والابادة » : تلك كانت وجهة نظر احد العسكريين الفرنسيين قبيل نشوب الحرب . وقد طبق المتحاربون هذه النظرية بحذافيرها . وكان الضابط الانكليزي تشارلز روس قد كتب يصف شكل الحرب قبل نشوبها بسنوات ، قال : « الحرب هي العودة الى البربرية . وليس في الحرب خروج على المنقبية ، فكل الوسائل معقولة ومقبولة ما دامت تكفل انهاء النزاع بسرعة . وفي الكفاح من اجل الحياة والبقاء ، لا مكان للحب ولا للعاطفة . والاعمال البربرية هي احدث الموارد التي تستخدمها الاستراتيجيا في سعيها الى اركاع العدو » .

وحتى وسائل القتال كانت ثورية . فللمرة الاولى في تاريخ الحروب قام عراك عنيف بين مصانع الاسلحة المتنافسة الى جانب المعارك التي تخوض غمراتها الجيوش . ويمكن القول ان

المائة يوم ، ولكنه لم يفعل. (نابوليون ، تأليف اوجين تارله ، ص ص ٢٨٩ - ٣٨١) . وكان دوق ولنغتون يقول : « كرهت دائماً اثارة الثورات تحقيقاً لاهداف سياسية ، بل كنت اقول لنفسي : اذا ثاروا من تلقائهم فان ثورتهم تأتي في مصلحتنا ويكون ذلك بالطبع امراً مرغوباً فيه . اما اثارتهم فانها تشكل مسؤولية هائلة » . وفي العام ١٨٧١ رفض بسمرك مساعدة ثورة الفرنسيين .

انتاج الاسلحة كان حاسماً في المعركة اكثر من التجنيد ، وان الله حالف الصناعات الكبيرة قبل الوحدات العسكرية الكبرى ، وحالف الدبابة والطائرة قبل البندقية والحربة . وفي ذلك يقول ج. ت. شوتويل : « انتقلت الحرب بين ١٩١٤ – ١٩١٨ الى المرحلة الصناعية من التاريخ الاقتصادي ؛ واجتمعت في صناعة الحرب تقنيتان : تقنية السلم التي تغذي الحرب بمواردها ، وتقنية التدمير والتخريب » . اما الارباح التي كان يحصل عليها قائد الجيش وجنوده « بفضل » نهب الاراضي المجتاحة ، فقد انقلبت ارباحاً « مشروعة » يستأثر بها الماليون والمتعهدون والصناعيون .

وكما يحصل دائماً في الحروب الكبرى تعلمت الامم التي خسرت الحرب اشياء كثيرة ما تعلمتها الامم الظافرة . لقد نظرت هذه الى الحرب نظرها الى خلاف تمت تصفيته . اما الامم التي غُلبت على امرها فقد اعتبرتها نتيجة طبيعية لاخطاء ارتكبت . وقد خرجت المانيا وروسيا وحتى ايطاليا من النزاع مقتنعة بضرورة : ١ – قيام سلطة سياسية للحرب ، ٢ – وجود انضباط حربي قومي ، ٣ – وجود اقتصاد حربي ، ٤ – وجود تقنية حربية . وهذه الامثولات الاربع ، الصالحة لاحوال الحرب ، تصلح كذلك لاحوال السلم ، لان الامة الحريصة على كسب المعركة لا تدع الحرب تفاجئها وهي غير متأهبة .

وقد ادى ذلك كله الى قيام الحكم المطلق ، وتأليه السلطة ، وتجييش الجيوش وجعلها آلية ، وادى بالتالي الى قيام مفهوم للحضارة جديد .

وفي روسيا كما في المانيا لم تبقَ القوة العسكرية حارساً للوجود القومي والكيان الوطني فحسب ، بل عنصر بعثِ الامة وتجديد دمها وشبابها . وهكذا قلبت الامم التي خسرت الحرب مبدأ كلاوزويتز القائل : « ان الحرب هي استمرار لسياسة السلم » ، فجعلت شعارها : « السلم هو استمرار لسياسة الحرب » . وفي هذه الاثناء كان المنتصرون يسعون في سبيل منع نشوب حرب جديدة بالمواثيق والمؤتمرات ، وبمجادلة خطر استعمال الاسلحة الجديدة .

وكانت الاسلحة الجديدة (الطائرة ، الدبابة ، الغاز السام) قد استعملت في الحرب على سبيل التجربة . وكانت غاية التجربة زيادة قوة المدفع ، لان المدفع ظل السلاح الرئيس . ومن هنا كان استعمال الدبابة كمدفع مدرع ذي محرك ، والطائرة كمدفع بعيد المدى او كمدفع رشاش [1] . ولو استمرت الحرب عاماً خامساً لادرك المتحاربون ان الدبابات والطائرات ليست

[1] لم يمنع استخدام الطائرة ، كسلاح مساعد للاسلحة القديمة في عمليات الاستكشاف والمراقبة والتصوير ، من استخدامها في المرحلة الاخيرة من الحرب كسلاح للقصف مستقل تحميه المطاردات ، فكان شأنه شأن المدفعية البعيدة المدى .

اسلحة ، انها مركبات يمكن تحميلها كل شيء ، وان سيرهـا بقوة البنزين يتيح اتخاذها اساساً لقيام جهاز عسكري جديد مؤلف من جيوش مدرعة مندفعة ذاتياً ، وجيوش مجوقلة (منقولة جواً) .

كان البترول العامل الرئيس لهذا التطور كما كان البخار اهم عوامل التطور الذي شهده القرن التاسع عشر . وخلافاً لما ذهب اليه الجنرال دانفيني بعد الحرب من ان « لا استقلال قومي حيث لا وقود قومي » ، ولما ذهب اليه لورد كورزون من ان « من يملك البترول يملك الامبراطورية » — فان البترول لا يمكن الافادة القصوى منه في الاغراض الحربية ما لم تنظم القوة العسكرية بالنسبة اليه ؛ فليس المهم زيادة قوة المدفع ، انما المهم اعادة النظر في تنظيم الجيوش ، ولكن ما من امة محاربة تنبهت الى هذه الحقيقة ، مع العلم اني اقترحتُ لحملة ١٩١٩ تكتية للدبابات لا يمكن ان يقوم بها إلا جيش مدرع يدعمه جيش جوي قوي [١] . وقضى اقتراحي

[١] كان على الطيران ان يقوم بالمهام الآتية : أ – توفير حماية امامية للمدرعات ، ب – تسهيل مهمة المدرعات باشاعة الفوضى في مراكز القيادة المعادية، وبارشاد المدرعات الى اهدافها ، ج – حماية المدرعات من نيران المدفعية المعادية ، د – تموين طلائع المدرعات بالوقود ، هـ – تأمين الاتصال بين المدرعات ومراكز قيادتها ، و – نقل قادة الوحدات المدرعة الى الخطوط الاولى . وقد حدد اقتراحي هذه المهام تحديداً مفصلاً وواضحاً .

بان يتألف الجيش المدرع من : دبابات للقتال ثقيلة ومتوسطة وخفيفة ، سيارات مصفحة لنقل الجنود ، دبابات للتصليح ، دبابات قادرة على تفجير الالغام ، دبابات قادرة على قذف الغازات ، دبابات مستشفيات ، دبابات راديو ، ودبابات مهمتها التموين بالوقود [1] . والسلاح الوحيد الهام الذي لم يرد ذكره في اقتراحي آنذاك هو مدفع الميدان المدرع والآلي .

ذلك كان اول اقتراح بانشاء جيش مشترك جوي بري ، معدّ لمواجهة متطلبات حرب هي وليدة حضارة تقنية متطورة ، جيش يختلف عن جيوش نابوليون اختلاف الجيوش الاقطاعية المدرعة عن جماعات البربر المسلحة . من الناحية التكتية ، تقوم علاقة بين الجهاز الاقطاعي والجهاز التقني هي اوثق من العلاقة بين الجهاز التقني والجهاز النابوليوني . ففي الجهاز الاقطاعي والجهاز التقني كانت العناصر متداخلة : في الاول الزرد والسلاح الابيض (قوة هجومية) يكملها وينسجم معها الجواد (قوة متحركة) ، وفي الثاني الاسلحة المدرعة يكملها وينسجم معها المحرك ذو الوقود الداخلي . وفي الحالين روعيت مسألة زيادة الوسائل الوقائية والقوة الهجومية المتحركة . ومن هنا كان تشديدي على وجوب دراسة حروب القرون الوسطى .

كانت المسألة الاساسية ، اذاً ، معرفة كيفية تعاون العناصر

[1] بلغ عدد مركبات التموين الانكليزية ٨٢٩٦ مركبة سيارة .

التكتية الثلاثة ودمجها بعضها بالبعض الآخر . وهو ما لم تتبينه بوضوح المانيا وروسيا ، الدولتان العسكريتان الرئيستان العام ١٩٣٩ . فهما ، عوضاً عن السير في طريق الدمج ، حافظتا على مبدإ الفصل الذي كان متبعاً في الحرب العالمية الاولى بين ما يمكن تسميته الجيش القديم او جيش السلاح اليدوي، وبين القوى الجديدة الآلية ، مما حملهما على انشاء جيوش قائمة على مبدإ الامة المسلحة . الا انهما الحقتا بجيوشهما مصالح تقنية جديدة تتعاون واياها بدل ان تندمج فيها . بيد ان الروس والالمان لم يقعوا في الخطإ الذي وقع فيه سواهم، وهو فصل قوى الجو عن قوى البر، واعتبار السلاح الجوي سلاحاً حاسماً يغدو معه كلُ سلاح آخر نافلًا وعقيماً (قال بهذه النظرية رجال ثلاثة هم : دويه، وميتشل، وسيفرسكي) .

لا ينكر احد على الطائرة تفوقها بفضل مدى نشاطها . اما القول انها سلاح حاسم كما كانت النار الاغريقية ومدفع شارل الثامن ، او كما هي البندقية اليوم عندما تستخدم في اخضاع الجماعات المتأخرة والمسلحة بأسلحة بدائية _ اما هذا القول فانه يشكل مغالاة واضحة[1] .

١ يمكن اعتبار السلاح الجوي سلاحاً حاسماً اذا هاجمت به امةٌ ، ذات طيران قوي ، امةً اخرى لا طيران لديها ولا تجهيز خاص تواجه به القصف الجوي . ويمكن اعتباره كذلك اذا كان في وسع الطيران المهاجم القاء قنابله بسرعة على كل متر مربع من اراضي العدو . ولكن اين نحن من هذين الاحتمالين في عصر بلغت فيه الحضارة التقنية الاوج ؟

كانت نظرية دويه تلخص بما يلي :

لما كانت القوة العسكرية مرتكزة على الانتــــاج الصناعي ومعنويات المدنيين ، فان انهيار هذين المرتكزين يؤدي آلياً الى انهيار هذه القوة . فالمطلوب ، اذاً ، هو احراز السيطرة على الجو والقضاء على المرتكزين المذكورين ، فيغدو النصر مضموناً . ولم يكن لقوى البر والبحر ولا الدفاع المضاد للاسلحة الجوية شأنٌ في نظر دويه ، لانه كان يعتقد بان الدفاع الوطني لا يمكن تأمينه بغير قوة جوية مستقلة وقوية .

وكان « بلوخ » يعتقد بان قوة النيران من شأنها تجميد العدو وشل نشاطه . اما دويه فقد ذهب الى ان قوة النيران من شأنهـا القضاء على العدو قضاء مبرماً . وقد فاتهما كليهما ان الحرب تتطور باستمرار ، وان كل تحسين يطرأ على السلاح يتبعه تحسين مضاد في وسائل مقاومة هذا السلاح . وفـات بلوخ ودويه ان عبقرية الاختراع لا تقف عند حد متى نشطتها غريزة حب البقاء[1] .

ومن الخطإ القول ان الطائرة هي التي اكسبت الحرب طابعها الكلي الشامل . فالحرب الكلية هي وليدة العلم ، ولـيـدة التقنية التي اجتازت الحدود السياسية واخذت اليوم تمحوها لتجعل من المجتمعات البشرية مجتمعاً واحداً ، وربمــا لتعجّل بانحلال هذه

[1] يكفي ان ندرس نظرية دويه على ضوء احداث الحرب العالمية كي نتحقق من مغالاته في تقدير اهمية السلاح الجوي كسلاح مستقل .

المجتمعات [1] .

ومهما يكن من شأن الطائرة في ايجاد لحمة بين الحضارات، فان مداها وسرعة عملها لا يقاسان بمدى الراديو وسرعة عمله . ويمكن القول ان الراديو يؤمن لنا باستمرار غذاء عقليـــاً سهل الهضم كالمنّ الذي يتحدث عنه سفر الخروج في التوراة . ولا ننسى ان النص المطبوع يقتصر تأثيره على المتعلمين ، اما الراديو فتأثيره يشمل المتعلمين والاميين جميعاً .

وبفضل الراديو اوجد المنهزمون الراغبون في اخذ الثـــأر الامة المسلحة استعداداً للحرب الكلية ، بينما راح المنتصرون الكارهون للحرب يستخدمون الراديو في بث الدعـاوة للسلم . بيد ان تقدم التقنية بعد الحرب بخطى واسعة ادى الى نمو الانتاج نمواً فاق القدرة على الاستهلاك . وما لبثت البطـالة ان عمّت ، فعالجتها البلدان المنتصرة بتقديم المساعدات للعـاطلين عن العمل وبالحد من الانتاج . اما البلدان التي غلبت على امرها فقد جنّدت العاطلين عن العمل ، وانشأت الصناعات الحربية التي لا يمكن استهلاك انتاجها الا في ميادين القتال . وهكذا قام في العـــالم فكرتان ومعسكران : معسكر البلدان القائلة بانشاء نظام جديد وغـايته تمكين البلدان المذكورة من تحقيق اكتفـائهـا الذاتي

٢ غدا مجال الحرب فسيحاً كمجال السلم ، وبات من متطلبات الحرب المجدية جعل السلم مسلحاً .

اقتصادياً وربطها بنظام نقدي قائم على طاقتها الانتاجية ، ومعسكر العالم القديم المتمسك بالوضع الراهن . وكان لا بد من تصادم المعسكرين ، فاندلعت شرارة الحرب العالمية الثانية بانقضاض الجيش الالماني على بولونيا في اول ايلول سنة ١٩٣٩ .

لم تكن الحرب العالمية الثانية حقل تجارب كالحرب السابقة . الا ان ذلك لم يمنع صيرورتها حقل اختبار بضع نظريات متصلة بالتسلح . ومن هذه النظريات نختار ستاً : ١ ـ قيمة الامة المسلحة التي قال بها كلاوزويتز كاداة من ادوات القتال ، ٢ ـ قيمة القوى المدرعة الآلية ، ٣ ـ قيمة الدفاع الثابت المجسم بخطوط متكاملة (خط ماجينو) ، ٤ ـ قيمة الحصار ، ٥ ـ قيمة نظرية دويه في مهاجمة صناعة العدو ومؤخراته ، ٦ ـ دور الطيران في الحربين البرية والبحرية .

وقد وجدت هذه المسائل التقنية التكتية في اطار استراتيجي يجعل نظرية كلاوزويتز ، القائلة بالقضاء على قوى العدو المقاتلة نظرية ، قديمة . ولو قيّض لكلاوزويتز ان يشهد الحرب العالمية الثانية لأدرك ان غاية الحرب يمكن ان تكون اقرب منالاً . ولعل « دابروك » هو الوحيد بين تلاميذه الذي ادرك ان للحرب ذات الشكلين : المحدود وغير المحدود ، استراتيجية ذات شكلين : استراتيجية الابادة واستراتيجية استنزاف القوى ، وان غاية الاولى المعركة الحاسمة ، بينما تكون المعركة في الثانية

وسيلة لبلوغ النتيجة السياسية المتوخاة [1] .

وقد اثبتت الحرب العالمية الثانية بوضوح تام ان ابادة العدو في ساحات القتال لم تكن هدف استراتيجية الابادة التي اتبعها المتحاربون ، بل كان هدفها تدمير المدى الحيوي لعملياته ، اي مناجمه وآبار بتروله وصناعاته ، الخ ... لان الجيوش العاملة في الميدان لا تستطيع الاستمرار في القتال بعد تدمير هذا الجزء الحيوي بالنسبة اليها . وقد تمّ للالمان تدمير المدى الحيوي للجيشين البولوني والفرنسي بسرعة خاطفة ، لان المنطقة المشتملة على المناجم والصناعات محدودة النطاق . اما في روسيا فالمدى الحيوي لنشاط الجيش الاحمر قد امتد من بوغ حتى القوقاز ، بل الى ما وراء جبال الاورال . لذلك اخفقت استراتيجية الابادة الالمانية في الأراضي الروسية واستحالت استراتيجية استنزاف القوى [2] .

اما وقد استعرضنا الاستراتيجية بشكليها : الافنائي والاستنزافي ، فيحسن بنا ان ندرس النظريات الست التي كانت

١ اعتبر دلبروك الاسكندر وقيصر ونابوليون من القائلين باستراتيجية الابادة ، وبركليس وبيليزير وفالنشين وغوستاف ادولف وفريدريك الكبير من القائلين بأستراتيجية استنزاف القوى .

٢ ان المفهوم الروسي للحرب الخاطفة هو وجوب شن هذه الحرب عندما تقرب من نهايتها ، اي ان الروس يفضلون من جهتهم البدء بأستراتيجية استنزاف القوى وانهاء الحرب بأستراتيجية الابادة . وهذا المفهوم يجد مبرراته في اوضاع روسيا الجغرافية .

الحرب بالنسبة اليها حقل تجارب .

أ ــ قيمة نظرية الامة المسلحة : توسع القائلون بهذه النظرية في تفسيرها وحوروها ، فرأينا العمل الاجباري في البلدان الدكتاتورية (وحتى في بعض البلدان الديموقراطية) يشمل الرجال والنساء . وحيال تفاقم خطر الاغارات الجوية تمت في كثير من البلدان تعبئة الامة لاغراض الدفاع السلبي . وحيال خطر الغزو من الجو ، انشئت ميليشيا الحرس الوطني في انكلترا والمانيا . بيد ان القيمة الهجومية في الامة المسلحة قد تدنت ، لان الطائرة والدبابة والمدفع غدت عامل الهجوم الرئيس ، ولم يعد للمشاة شأن يذكر ، اي ان الدور الاول في القتال تولته الآلات عوضاً عن الرجال .

ب ــ قيمة القوى المدرعة : كانت القوى المدرعة عند حسن ظن دعاتها بها ، فاجتاحت بولونيا في ثلاثة اسابيع ، وهولندا في خمسة ايام ، وبلجكا في ١٨ يوماً ، وفرنسا في ٣٥ يوماً ، ويوغوسلافيا في ١٢ يوماً ، واليونان في ١٨ يوماً .

وكانت سرعة الغزو ظاهرة محيِّرة بالنسبة الى القادة العسكريين الذين رسموا خطط الحرب بادمغة من طراز ١٩١٤ . ووجد العسكريون الفرنسيون انفسهم عاجزين عن مواجهة الموجات الالمانية المتدفقة ، لان استخدام المدرعات والطائرات على نطاق واسع امرٌ اسقطوه من حسابهم .

ماذا كان وراء ذلك كله ؟

كان وراءه السلاح الآلي . فالدبابات والطائرات هي التي

حققت المعجزة . فقد سيّر الالمان لغزو هولندا وبلجكا وفرنسا وبولونيا قواتٍ ضخمة من المشاة ، ولكن الاسلحة المدرعة والسلاح الجوي هي التي قامت بالدور الحاسم ، مع ان عدد ضباطها وجنودها كان دون المئتي الف ، ولم يزد عدد القتلى خلال معارك فرنسا على ٢٧ الفاً . وفي بولونيا بلغت الخسائر الالمانية عشرة آلاف قتيل وثلاثين الف جريح ، اي دون ربع ما خسره الانكليز في معركة « الصوم » العام ١٩١٦ .

ومن الناحية التكتية لم يكن نجاح الحملة الالمانية في يوغوسلافيا واليونان اقل شأناً منه في فرنسا. فالبلدان البلقانيّان لا يسهلان مهمة الدبابات لانهما جبليان . ولكن القيادة الالمانية ذللت العقبات التي اعترضت مدرعاتها باقامتها تعاوناً وثيقاً بين الدبابة والطائرة .

ومع ان الدبابة قد اثبتت ، خلال الهجوم الروسي المضاد وفي صحارى افريقيا وبعد نزول الحلفاء في افريقيا وفرنسا ، انها السلاح الحاسم ، فقد حدّ من نشاطها في روسيا العام ١٩٤١ – ١٩٤٢ اختلالُ نظام التموين وتخبط القيادة الالمانية . ففي الاراضي الروسية الشاسعة لم يكن بالامكان الاندفاع مرة واحدة لبلوغ الهدف : اخضاع العدو ، بل كان على الفرق المدرعة ان تتوقف بعد كل مرحلة لتعيد تنظيم تموينها ومواصلاتها . وقد فات القيادة الالمانية ان تتدبر احتياطياً كافياً من الاسلحة والمؤن ليتسنى لها اجتياز المسافات الطويلة دون توقف ؛ وترتب على اغفالها هذا

الامر الحيوي تمكين الروس من التسلل بين خطوط المهاجمين وتطويق الوحدات المصفحة وابادتها ، او عزلها .

ج - قيمة الدفاع الخطّي : في حرب سلاحها الحاسم آلي يجب ان تكون اجهزة الدفاع في الميدان متحركة . وليس يعني هذا ان الاجهزة الدفاعية الخطية غير ذات موضوع ، فهي ضرورية للقوى المدرعة كاجهزة مضادة للدبابات والطائرات ضرورة القلاع للفرسان المدرعين . وحتى خط ماجينو كان بالامكان ان يجعل منه الفرنسيون حاجزاً جباراً بحشدهم قوة مدرعة كبيرة على جناحه الايسر . ذلك انه لا يكفي اقامة الجهاز الدفاعي لعرقلة تقدم الدبابات ، بل يجب ان تهدف اقامته في الوقت نفسه الى تمكين العناصر الدفاعية المتحركة من اداء مهمتها. ففي الحرب المدرعة يكون الدفاع استراتيجياً اكثر منه تكتياً ، اي انه يتوقف على المدى كعامل ارهاقي اكثر مما يتوقف على الحواجز كعامل مقاومة . ولو ان القيادة الالمانية سحبت قواتها المتراجعة في روسيا مرة واحدة الى ما وراء نهر « النيابر » بدلاً من ان تتراجع ببطء وتشن خلال تراجعها هجمات مضادة عقيمة - لو انها فعلت ذلك لاتاحت لدباباتها ان ترتاح وتتجمع استعداداً للكر على القوات الروسية التي يكون قد اتعبها السير وابتعدت عن قواعد تموينها. وفي الصحراء الغربية كان على القائد الالماني شتوم ، الذي حل محل رومل بعض الوقت ، ان يتراجع الى السلوم ليكر منها على

قوات مونتغمري ، بدلاً من ان ينتظر هجوم العدو في العلمين . ففي حرب المدرعات عمليتان يمكن اعتمادهما ، وهما : التقدم في الهجوم ، والانسحاب في الدفاع لارغام العدو على ارهاق نفسه تمهيداً للكر عليه .

د – قيمة الحصار البحري : يعطي الحصار البحري مفعوله الكامل اذا لزم الفريق الذي يفرض الحصار موقفاً دفاعياً في العمليات البرية ، واعترضت حركات قوات البر المعادية عقبات كأداء ، كما كانت الحال في الحرب العالمية الاولى . وتتضاءل اهمية الحصار البحري اذا اتسمت الحرب البرية بطابع الحركة ، فاذا هزم العدو بسرعة ، يغدو الحصار عديم الفائدة ، وكذلك اذا احتل الاراضي الصديقة ووسع رقعته ، كما كانت الحال في الحرب العالمية الثانية . ناهيك بان التقدم في حقل انتاج المواد الاصطناعية قد خفف من وطأة الحصار . فقطع البنزين عن المانيا لم يؤثر في نشاطها الحربي ، لانها توصلت الى صنع البنزين الاصطناعي . وقد سبق لي واوضحت في كتابي Towards Armageddon الصادر العام ١٩٣٧ ان الحصار يجب ان يجاري الحروب المتحركة ، وإلا بطل كونه حصاراً ، واستشهدت برد الالمان على الحصار البحري الذي فرضناه في الحرب العالمية الاولى . فقد وضعنا نصب اعيننا عزل المانيا ومنع وصول المواد اليها ، فردّ الالمان بحصار مضاد سلاحه الغواصات ، وكادوا يربحون المعركة ... ذلك ان حصارنا نحن كان ذا طابع سلبي ،

اما حصارهم فقد كان ذا طابع فعلي ، وكانت امكانيات الغواصة التكتية اضعاف امكانيات سفينة القتـــال العائمة . ومنذ ظهور الطائرة تضاءل شأن الغواصة كسلاح حصار لا يجارى . وهكذا استحال الحصار البحري حصاراً جوياً . وبعد ان كانت غاية الحصار البحري منع السلع من الدخول الى موانىء العدو ، غدت غاية الحصار الجوي تدمير هذه الموانىء واغراق السفن قبل وصولها اليها .

هـ ـ قيمـــة نظرية دويه : اخفق قصف المراكز الصناعية والسكان المدنيين من الجو كوسيلة سريعة لانهاء النزاع ، اذ جعل النزاع يطول ، ونَسَفَ قواعد السلم الممكنة. ومع ان كل هجوم كبير بين ١٩٣٩ و١٩٤٢ قد اثبت ان انهاء الحرب بسرعة يتطلب تعاوناً وثيقاً بين قوى البر والجو ، فقد اعتمد الحلفاء الغربيون منذ ١٩٤٢ القصف الاستراتيجي وسيلة لانهاء الحرب ، عمـــلاً بنظرية دويه ، فكانت النتيجة نشوب معركتين منفصلتين : احداهما في ميدان القتال تدعمها قوات جوية غير كافية ، والاخرى ضد المدن المعادية تقوم بها قوات جوية تفيض عن الحاجة اليها . وترتب على هذه المعركة تدمير المراكز الثقافية ، وقتل الآمنين ، ونسف اسس السلام الذي يجب ان يعقب الحرب ، في حين انه يمكن بلوغ الهدف ، اي اخضاع العدو ، بتركيز الاغارات الجوية على منابع الطاقة لديه ، وعُقَد مواصلاته ، كقصف المصانع التي تنتج البنزين الاصطناعي ، مثلاً ، لان تدمير هذه المصانع من شأنه وقف

العمل في الصناعات الثقيلة ، دون ان يكون ثمة حاجة الى تدمير هذه الصناعات .

و ــ تأثير السلاح الجوي في البر البحر : يمكن تشبيه تكتية الطيران الاستراتيجي ، كسلاح مستقل ، بتكتية الخيّالة في الحروب النابوليونية [1] . وكالخيالة التي كانت تحرز افضل النتائج بتعاونها مع المشاة والمدفعية ، احرز الطيران اعظم النتائج في تعاونه مع قوى البر والبحر (في البر معركة العلمين ، وفي البحر معركة ميدواي والنزول في نورمندي) .

ومنذ العام ١٩٣٩ توافرت لدى الدول المتحاربة اسلحة حديثة وأجهزة جديدة يأتي الرادار في طليعتها ؛ وأدخلت تحسينات جمة على الطائرات والعتاد المضاد لها ، وعلى الغواصات والاسلحة المضادة لها ، والسيارات المصفحة والعتاد الموجه ضدها [2] . ولعل

[1] كانت الخطة المثلى هي التي اعتمدها الالمان فوق روسيا اذ كانت طائراتهم تحلق موجات صغيرة وتتفرق بسرعة حالما يعترضها سلاح الطراد الروسي .

[2] ظهر لدى المتحاربين : دبابات ذات منجل معدة لتفجير الالغام ، ودبابات اميركية ذات منشار معدة لفتح الطرق عبر الادغال والاحراج ، ودبابات مجهزة برافعات لسحب السيارات من الحفر الطبيعية او المصطنعة ، ودبابات لقذف اللهب ، ودبابات تنقل جسوراً نقالة تلقى امام السيارات لتعبر عليها المستنقعات والسهول الرملية ، ودبابات لها ميزات « الجيب » معدة لمواكبة القوات التي تنقل جواً .

القنابل الالمانية الطائرة [1] والصواريخ كانت اعظم الاختراعات شأناً .

والصاروخ الذي نعتبره سلاحا حديثـــا قد يكون اقدم انواع المقذوفات، لان ثمة من يعتقد ان الصينيين استخدموه للمرة الاولى العام ١٢٣٢ في حربهم ضد التتر . والثابت على كل حال، ان تيمورلنك استخدم الصاروخ في معركة دلهي (١٣٩٩) . وبعد اربعة قرون ظهر الصاروخ الهندي في حصار « سيرنغاباتام » (١٧٩٩) واستخدمه السلطان « تيبو » . فاتخذ منـــه القائد الانكليزي السر ويليـــام كونغريف مثالاً وحسّنه . وقد ذكر هذا القائد في كتابه « مقارنة بين الصواريخ وســـلاح المدفعية » انه صنع صواريخ زنة الواحد منها تراوح بين خمسين غراماً (ووصف الصاروخ الصغير بانه « شبيه برصاصة البندقية وله حركة ذاتية ») و ١٥٠ كيلوغراماً [2] .

وقد جربت صواريخ كونغريف للمرة الاولى في حصـــار

[1] القنبلة الطائرة « ف — ١ » هي رعاد مجنح يندفع اندفاعا ذاتياً ، ويشتمل على متفجرات زنتها الف كيلوغرام ، ويحمل كوقود ١٥٠ غالوناً من البترول . وقد بلغ مدى القنبـــلة الطائرة من الطراز المذكور ٢٤٠ كيلومتراً ، وسرعتها التقريبية ٦٤٠ كيلومتراً في الساعة .

[2] استعمـــل الانكليز اربعة انواع من صواريخ كونغريف تراوح زنة الواحد منها بين ٣ ليبرات و ٢٤ ليبرة . وكانت مصنوعة من الفولاذ ، وذات مدى يراوح بين الف وثلاثة آلاف ياردة .

بولوني العام ١٨٠٦ . وقال القائـــد الانكليزي انه لم تمض عشر دقائق على اطلاق الدفعة الاولى حتى شبت الحرائق في المدينة [١] . وتنبأ بان الصاروخ هو السلاح الذي سيقلب نظـــام التكتية العسكرية رأساً على عقب [٢] . وتحققت تنبؤات القائد ، ولكن بعد ان تخلى الانكليز وغير الانكليز عن الصاروخ طيلة سبعين عاماً . وقد مثّل هذا السلاح دوراً بالغ الاهمية والاثر في الحرب العالمية الثانية كقذيفة قصيرة المدى ، وكقذيفة بعيدة المدى ، وكمحرك دافع .

فالطراز الاول يمكن استعماله في الجو والبر والبحر على يد طائرات من طراز تيفون الانكليزية . وقد اتخـــذ الصاروخ القصير المدى في الحرب البوية اشكالاً منوعة : البـــازوق الاميركي ، وقاذف الصواريخ الروسي كاتيوشا ، وقـــاذف الصواريخ الالمـــاني نيبلورفر الذي يطلق ستة صواريخ زنتها ٢٥

١ استخـدم الصـاروخ بنجـاح تام في معـارك فالكرين وكوبنهاغن (١٨٠٧) ، وفي لايبزيك (١٨١٣) ، وواترلو ، واورليان الجديدة ١٨١٥) . وجاء في يوميـــات الماجور لاتور بصددا هذه المعركة ان الصواريخ كانت تتساقط باستمرار طوال الوقت الذي استغرقه الهجوم .

٢ اعتــبر المارشال مارمون الصـــاروخ « سلاحاً مخيفاً يمكن ان يغدو السلاح الرئيس . فهو بحالته الحاضرة يكاد يتحكم بمصير الجيوش » . (نقلاً عن دراسة وضعها النقيب بوكسر بعنوان : « صواريخ كونغريف » ، ١٨٦٠ ، ص ٦٥ — ٦٦) .

كيلوغراما الى مسافة ستة آلاف متر [١] .

واعطى استعمال الصاروخ كسلاح بحري في المحيط الهادىء نتائج باهرة حملت وزارة البحرية الاميركية في شتاء ١٩٤٤ على زيادة انتاج الصواريخ زيادة هائلة . وثبت ان الصاروخ كسلاح تغطية اضحى عاملاً حيوياً في عمليات انزال الجيوش على الشواطىء التي يحتلها العدو [٢] .

واقتصر استعماله كقذيفة بعيدة المدى على الالمان من دون سائر الدول المحاربة . ويبلغ طول الصاروخ البعيد المدى ١٣ متراً، وزنته ١٥ طناً . وثبت انه يعطي افضل النتائج اذا كان المدى لا يزيد على ٣٥٠ كيلومتراً . على ان عيبه الوحيد ضخامته ، واعتماده على الكحول والاوكسجين وسيلة للدفع .

اما امكانيات الصاروخ كوسيلة للدفع ، فانها لا تقل شأناً عن امكانياته كقذيفة [٣] . فقد بلغت سرعة طائرات القتال المندفعة

١ سميت نيبلورفر Nebelwerfer لان مخترعها يدعى الهر Nebel .

٢ ذكرت جريدة التايمس اللندنية الصادرة في ١٤ كانون الاول ١٩٤٤ ان الولايات المتحدة الاميركية انفقت في سبيل صنع الصواريخ المبالغ الآتي بيانها : ٣٠٠ الف دولار العام ١٩٤٢ ، و ٩٨ مليون دولار العام ١٩٤٤ ، ومليار دولار العام ١٩٤٥ .

٣ لا يحتاج الصاروخ الى وقود متفجرة تطلقه كما هي حال القنبلة . ويكون له مفعوله الاشد في الفراغ، لانه يتقدم بقوة الاندفاع الذاتي.

بالصاروخ ستمائة ميل في الساعة ، ويمكن ان تبلغ سرعتها الف ميل واكثر اذا ادخلت على الصاروخ تحسينات جديدة [1] .

حقا اننا نعيش في عصر حافل بكل مدهش . فالحرب في ايامنا صراع بين المخترعين اكثر منها قتالاً بين الجنود . والانسان الذي يؤمن الانسجام بين مختلف الاسلحة ، جديدها وقديمها ، حول السلاح الرئيس، لا يقل عمله شأناً عن الانسان الذي يخترع السلاح الجديد، فاولهما أعمل عقله، والآخر مخيلته . فالرجل الذي اخترع القوس ليواجه بها الرامي بالمقلاع هو رجل ذو مخيلة ؛ اما الرجل الذي حقق الانسجام بين حملة الاقواس وحملة الرماح وجعل التعاون بين الفريقين ممكناً ، فقد توصل الى هذه النتيجة بفضل تفكيره .

وكان تنظيم حملة النزول في نورمندي (حزيران ١٩٤٤) عملية دبرها العقل البشري . فقد كان على الحلفاء ان يعبروا بحر المانش على جبهة عريضة وهم منتشرون كما لو كانوا يسيرون الى القتال ، وان يُنزلوا على اليابسة باسرع وقت ممكن جيشاً آليا ومعه تجهيزاته وعتاده وقواته الاحتياطية ، كما كان عليهم ان يؤمنوا تزويد هذا الجيش بالمؤن والوقود بالسرعة اللازمة .

[1] توقع الزعيم كروسوف، احد ابطال سلاح الطيران السوفياتي ، ان سرعة طائرة القتال المنطلقة بواسطة الصاروخ تفوق سرعة الصوت ، وذلك في مقال نشرته له مجلة « الجيش الاحمر » في تشرين الثاني ١٩٤٥ .

كانت الغزوة من هذا النوع تعتبر ، قبل تدبر وسائلها ، محاولة فاشلة سلفاً للاسباب الآتية :

١ ــ لم يكن ممكنـــاً انتشار قوات الغزو وهي في البحر منقولة على السفن التقليدية المعروفة ، فقـــد كان الجنود ركاباً عاديين عاجزين عن اتخـــاذ وضع القتال قبل نزولهم الى البر .

٢ ــ لم يكن مستطاعاً الانتقال من السفن الى البر مباشرة .

٣ ــ ان تموين الجيوش بالسرعة اللازمة يجب ان يسبقـــه احتلال ميناء كبير حسن التجهيز .

وقد حل الحلفاء المسائل الثلاث بالاختراعات الآتية :

١ ــ صنعوا سفناً لنقل الجنود وهم في وضع القتال .

٢ ــ جهزوا السيارات المصفحة والعادية والدبابات والمدافع بآلات مكنتها من عبور المسافة التي تفصل السفن عن اليابسة .

٣ ــ صنعوا ميناء متنقلاً للنزول [١] .

وفي المحيط الهادىء واجه الحلفاء مسألة معقدة : فقـــد كان عليهم أن يحتفظوا بسيطرتهم على البحر ، وأن يحرزوا السيطرة في البر ، وان يؤمنوا اخيراً تموين عـــدد لا يحصى من السفن والرجال . وقد حلوا هذه المسألة بالجوء الى أداة مثلثة : الطيران

---

[١] بلغت مساحة الميناء ثلاثة ارباع مساحة ميناء دوفر . وكان يتلقى يومياً ١٢ الف طن من المؤن و ٢٥٠٠ سيارة .

حربي ، وجيش عائم ، وقاعدة بحرية عائمة (حاملات الطائرات).
وضمت الاداة المثلثة قوى البر والبحر والجو ، واشترك في ادارتها هيئة اركان عامة مشتركة تضم العديد من المهندسين والتقنيين والآلانيين والعمال .

وبهذا السلاح المؤلف من ملايين الاجزاء المختلفة والعاملة كوحدة تستمد حياتها من البترول، وصلنا الى طور تفوّق التقنية .

الفصل السابع

عصر البترول الثاني

بين منتجات عصر البترول يحتل التسلح المكان الاول . ولم يسبق للانسان ، عبرَ مراحل التاريخ ، ان اهتم بوسائل الفتك والدمار اهتمامه بها في ايامنا . ويقول الخبراء في شؤون الاحصاء ان مــا أُنفق في سبيل الحرب خلال النصف الاول من القرن العشرين قد فاق ما انفق في سبيلها في العصور السالفة مجتمعة .

ولكن اذا كانت قوة التدمير والفتك قد نمت وازدادت مع الايام بشكل يفوق حد التصور ، فتطور السلاح لم ينحرف عن الطريق التي سلكها منذ فجر التاريخ . فـاليوم كما في الامس يسعى البشر لتحسين الاسلحة بزيادة مداها وقوتها ودقتها وكثافة نيرانها ومرونتها . والفرق الجوهري الوحيد بين تطور الاسلحة في الماضي وتطورها في عصرنا هو كون تطورهـــا الحديث ذا طابع علمي بحت ، وقد كان في الماضي وليد الاتفاقات واحيانا التجارب .

وقد بدأ التقدم في حقل التسلح يؤثر تأثـــيراً مباشراً في الصناعة الحديثة . ولفت الانظار الى هذه الظـاهرة منذ ١٩٤٢

الدكتور اشتاين المستشار التقني لمصانع دوبون الاميركية عندما قال : « لقد حققت الحرب في بضعة اشهر تقدماً علمياً ما كان ليتحقق في الاحوال السلمية قبل نصف قرن[1] » .

ولم يكن التقدم العلمي السريع الظاهرة الوحيدة التي تسترعي الانتباه ، بل كان اعظم منه شأناً القفزة الهائلة التي قفزها الانتاج. ففي الولايات المتحدة سُحب ١٥ مليون رجل من حقول النشاط المدني لينخرطوا في القوى المسلحة ، ومع ذلك انتجت المعامل للاستهلاك المدني خلال سني الحرب اضعاف ما كانت تنتجه في السلم. وقد كتبت جريدة «واشنطن بوست» في خريف ١٩٤٣ ما يأتي : « يبدو ان بلادنا ستنتج في العام الآتي للاقتصاد المدني ضعفي ما انتجته العام ١٩٣٩ ، وستنتج للحرب ضعف ما ستنتجه للاقتصاد المدني[2] » .

ومن تحصيل الحاصل القول ان تسريح الملايين الخمسة عشر بعد الحرب من شأنه ان يؤدي الى انتشار البطالة . ولتفادي هذا المحظور لا بد من استبقاء بضعة ملايين تحت السلاح . وهكذا يكون تقدم التقنية قد رافقه تقدم في الحقل العسكري ، او كما يقول ستيوارت شيز Stuart Chase :تكون الحرب العنصر المحرك

١ نشرت راي الدكتور اشتاين جريدة التايمس اللندنية الصادرة في ٩ تشرين الثاني ١٩٤٢ .

٢ نقلت هذه الفقرة جريدة التايمس اللندنية في ٢٨ تشرين الاول ١٩٤٣ .

للحضارات التقنية ، كما تكون احد العوامل الاساسية لاستمرار هذه الحضارات . ذلك ان تهيئة الحرب تشغل معظم اليد العاملة ، والسير في الحرب يؤمن تشغيل الذين كانوا بدون عمل بسوقهم الى ساحات القتال حيث يفني بعضهم بعضاً . وبعد انتهاء الحرب يتطلب تعمير المناطق التي اتى عليها الدمار حشد الايدي العاملة. ومن هنا كان اعتبار الحرب علاجاً للبطالة ، وبالتالي واقياً ضد الفوضى الداخلية ؛ ومن هنا كذلك كان اخضاع الصناعة المعاصرة لمقتضيات الحرب ومتطلباتها بعد ما كانت الحرب تخضع لمقتضيات الصناعة ومتطلباتها. ولما كانت الحرب الوسيلة الوحيدة لتصريف الانتاج الفائض في نظام اقتصادي ضعف فيه الطلب على السلع الاستهلاكية ، فقد غدا التنظيم العسكري في السلم تدبيراً جوهرياً ، لا استعداداً للحرب وحسب ، بل صوناً للسلم الداخلي . وهذا التنظيم لا تنفرد به الدول ذات الانظمة الكلية ، بل هو اليوم معتمد في الدول كافة [١] .

[١] يقول في ذلك السر ممفورد : « الجيش هو جماعة من المستهلكين ، او كما قال روسكين : جماعة من المنتجين ، ولكن انتاجهم يؤذي البشرية ولا يفيدها . فالشقاء والرعب والجوع والدمار والموت تؤلف الجزء الاعظم مما تنتجه الحرب . وبديهي ان يعقب الحروب انتاج استهلاكي واسع النطاق ، ولكن استمرار هذا الانتاج يفضي في النهاية الى تراكم المنتجات ، والسبيل الوحيد الى تصريف الفائض هو نشر الشقاء والجوع والرعب والدمار والموت مرة اخرى . فالانتاج على نطاق واسع يجب ان يعتمد على استهلاك واسع النطاق ، وهذا لا يكون الا في الحرب » .

وهكذا نجدنا آخذين بمفهوم الدولة المحاربة الذي يختلف عن مفهوم الامة المسلحة . فالامة المسلحة لا تعدو كونها مظهراً عسكرياً للاشتراكية ، وهو مظهر تحدث عنه هربرت سبنسر فقال انه سيفضي حتماً الى نشوء امم عسكرية منظمة على اساس قيام حالة حرب دائمة[1] . اما الدولة المحاربة فشرط قيامها هو وجود خطر الحرب باستمرار او كما يقول والتر ليبمن : « هناك غاية واحدة يمكن توجيه مجتمع ما نحوها عن عمد ، وهذه الغاية هي الحرب » . فاذا لم يكن للمجتمع عدو ، أوجد له الموجهون هذا العدو .

وهذا ما فعلته المانيا النازية والاتحاد السوفياتي بعد الحرب العالمية الاولى . فمن اجل تبرير تنظيم الدولتين على اساس الحرب الكلية ، ادخلت روسيا السوفياتية في روع شعوبها ان القضاء على الشيوعية هو ما تسعى اليه الدول الرأسمالية ؛ وادخلت المانيا في روع شعبها ان القضاء على الرايخ الثالث هو الهدف الذي تسعى اليه الشيوعية والحركة اليهودية والرساميل الدولية .

وهذا الخوف جعل من المانيا وروسيا كتلتين متأهبتين للحرب باستمرار . وقد وضع الحلفاء نصب اعينهم القضاء على

[1] ابدى هربرت سبنسر هذه النظرية في كتابه « الفرد حيال الدولة » .

ويلاحظ ان الفرد في المجتمعات المناضلة يغدو عبداً للمجتمع .

الدول الكلية الدائمة التأهب للحرب ، ولكن سرعان ما مشوا بدورهم على الدرب المؤدي الى النظام الكلي[1]ليتسنى لهم مواجهة العدو بسلاح متكافيء وسلاحه . وبعد انتهاء الحرب اضطرت اميركا وبريطانيا العظمى الى المضي في اتخاذ سلسلة من التدابير الدكتاتورية ليتسنى لهما مكافحة البطالة ومجاراة الاتحاد السوفياتي الذي بدأ يضايقهما في حقول النشاط السلمي . ويبدو جلياً اننا حيال حلقة مفرغة : فاستخدام الآلة يؤدي الى البطالة ، والبطالة تزيد الانتاج العسكري ، والانتاج العسكري يحتاج الى عدو يبرر وجوده، وتتولى السياسة ايجاد هذا العدو، فتنشب الحرب، وتحل مشكلة البطالة حلاً موقوتاً .

وسيظل تعاقب الحوادث على هذا الشكل ما دام مصير الحرب والسلم تحت رحمة الادوات . ويلاحظ ممفورد ان الآلة لا تستطيع شيئاً بدون مهارة الفرد ، اما الادوات الميكانيكية فانها تتطلب عملاً آلياً ، « وهذا ما يجعل الاولى ديموقراطية الطابع ، والاخرى ذات طابع شيوعي » . ويلاحظ ممفورد كذلك : « في الحضارة المرتكزة على الآلة يظل عقل الفرد ومهارته العنصر الاساسي ؛ وفي الحضارة المرتكزة على الاداة الميكانيكية يظل المجهود الجماعي هو الاساس ، فيندمج كل فرد

١ مشى الانكليز على الدرب نفسه عندما انبروا لمحاربة نابوليون بحجة انقاذ اوروبا من اساليبه الدكتاتورية ، وقد اضطرتهم طبيعة النزاع الى اعتماد الكثير من الاساليب النابوليونية .

في التصميم العام، ويخضع الجميع لارادة واحدة ، وهذا ما يسمونه المجتمع الاتوقراطي [1] .

ويقول لويس ممفورد : « الحرب هي مأساة عظمى يعيشها مجتمع غلب عليه الطـــابع الآلي ... فالذين يخوضون غمار المعركة تحررهم الحرب من عوامل الانانيـة والجشع . ويرتفع العمل حتى يبلغ مستوى المأســـاة ، فيغدو الموت او التشويه الجسدي تضحية عظمى كتلك التي تقوم عليها الطقوس الدينية البدائية . وتشجع اساليبُ القتال الشعوبَ التي تنكرت للقيم وباتت عاجزة عن ادراك ما ترمز اليه ، على احياء المعتقدات البدائية والعقائد غير العقلانية . فاذا لم يكن ثمة عدو ، عمد قادة المجتمع الى ايجـــاده ليقضوا على الحياة الرتيبة . ويمكن القول ان الفظاظة البدائيـة والدقة الآلية في الحرب المعـاصرة هما اسمان لمسمى واحد .

« والحرب تعيد البشر الى واقعهم، وتلجئهم الى الكفاح ضد العناصر الطبيعية،وتطلق لنزواتهم العنان،رافعة القيود التي تلجمها . ومتى فقد مجتمعٌ ما معنى قيم الحياة، فانه ينزع الى تمجيد الموت،

[1] يقول كنسي رايت في كتابه « دراسات في الحرب »: ان التقنية العسكرية قد بلغت شأواً عظيماً اكسب الدول الدكتاتورية فوائد دبلوماسيـة وعسكرية ما كانت لتحلم بها .

فينشيء له عبادة خاصة [1] » .

هذه العودة الروحية الى القرون الوسطى تؤدي الى اقامة مجتمع اقطاعي جديد يبدأ بتحويل السواد الى بروليتاريا مستعبدة ، ثم يجعل من الدولة سيداً اعظم يعمل على استغلال البروليتاريا على يد معاونين هم صورة مصغرة عن اشراف المجتمع الاقطاعي في القرون الوسطى. ولقد كتب بواسوناد Poissonade في صدد هذا المجتمع ، قال :

« كانت الطبقة الاقطاعية في القرون الوسطى تزعم حماية السواد باستعباد الناس من طريق التحكم بنشاطهم وتوجيه ثمار هذا النشاط وتوزيعه كما يحلو لها ، متخليةً لهم عن فوائد مادية تكاد لا تذكر ! »

وفي ايامنا تعمل الاشتراكية ، بحجة ازالة الفوارق بين الطبقات ، على انشاء مجتمع من العبيد (البروليتير) ، جاعلةً من الدولة السيدَ المطلق ، ينشيء القيم المادية ويقضي

[1] ويقول ممفورد كذلك : « ان الفرق القائم بين ابناء آثينا المقاتلين في ماراتون بسيوفهم وتروسهم وبين الجنود الذين يقتتلون اليوم وسلاحهم المدفع وقاذفة اللهب والغاز السام ، الخ ... هو الفرق نفسه القائم بين رقصة طقسية ومجزرة مكانها المسلخ ، احدهما مظهر من مظاهر البراعة والشجاعة مع احتمال ضعيف للتعرض للفناء ، والآخر مهارة في القتل تقرب من التفنن يعززها تنوع الاسلحة المستعملة » .

عليها[1] . وفي ظل هذا النظام تمثل الدولة الدور الذي كان يمثله البابا في القرون الوسطى . فقد كان البابا يوجد القيم الروحية او يزيلها .

وتأتي في رأس مرتكزات هذا التحول الضرائب التي غايتها اعادة توزيع الثروة بحيث تتساوى المداخيل وينزل الاغنياء عن عروشهم . ويمكن تشبيه الضريبة بحصار يضرب حول الطبقات المثرية ، وككل حصار لا تظهر نتيجته الا في المدى الطويل. اما اذا نشبت حربٌ فانها تعجل حصول النتيجة ، لا لانها تستدعي فرض ضرائب ثقيلة وحسب ، بل لانها تحقق التساوي في المداخيل وفي فرص النجاح . وقد ازداد تأثير الحرب في هذا الحقل بعد ظهور الطيران البعيد المدى . فالطائرة اذ تقصف المراكز الصناعية والمدن الآهلة انما تنشر الخراب والفقر ، فيتساوى في البؤس الغني والمعدم ، وينشأ من هذه الحالة مناخ صالح لنمو الشيوعية نمواً يقوّض مرتكزات المجتمع . يقول ممفورد :

« المدينة هي الاطار الذي تتجمع داخله قوة مجتمع ما وثقافته . والمدن هي نتاج الزمن ، بل هي اروع ما ابدعه الفن

[1] كان لينين يقول : « بالحركة الاشتراكية تعم الطاقة الكهربائية » ، وكان عليه ان يقول : « بالحركة الاشتراكية تسود راسمالية الدولة » ، ففي المجتمع الاشتراكي يكون صندوق المال هو الله ، والحزب اكليروسه ، والشعب عباده .

البشري » .

المدينة هي التاريخ من حيّز وحجارة . وما نحن الا مـــا صنعته منا مدننا ، بل نحن تاريخ حيّ صنعه تاريخ الحجارة التي نعيش بينها. وتأتي القنبلة، فيستحيل عمل ثلاثين جيلًا ، في اقل من ثلاثين دقيقة ، اطلالاً وركاماً .

واذا استعرضنا الدمار الذي سببته الحرب الاخيرة وجدنا اننا حاربنا من اجل اشياء توفرها لنا مدننا : الحرية ، والديمقراطية ، والحكومة البرلمانية ، والتجارة ، والثروة . وتدمير المدن يدمر هذه الاشياء الثمينة .

لنأخذ مثلًا مدناً كبرلين وهامبورغ وكولونيا . فقد كانت الاولى في الاصل قرية سلافية تقطنها جماعة من قبيلة « الونديين » Wendes ؛ وكانت الثانية حصناً للكارولنجيين ؛ امـا كولونيا فقد انشأها الامبراطور الروماني كلوديوس . وكما ينمو النبات نمت برلين وهامبورغ وكولونيا، حتى غدت مدناً تضم الملايين من السكان . وجاءت الحرب الاخيرة فدمرت الحيّز الاكبر من كل واحدة منها . اما تعميرها فيستغرق بضع سنوات . ولا ريب في انها ستبنى تبعاً لتصميم مدروس ، ولكنه موحد الطراز ، لان المهندسين هم ابناء جيل واحد . وستكون المدن التي يبنون ذات طابع شيوعي : قفير بشري يشيّد بسرعـــة لايواء المشردين . والذين يأوون اليه يشبهون النحل : عقول موحـــدة الطراز ، نشيطة ولكنها بلا روح لان لا ماضي لها .

هذه المدن التي دمرتها الحرب لا يمكن ان تعمر بموجب تصميم ديموقراطي او فردي . فمن فضائل الديموقراطية كونها متروية ، تعمل وهي تناقش . وتعمـــير المدن لايواء الملايين يجب ان يتم بسرعة وفي ظل حكم دكتاتوري لا مكان فيه للجدل ، فمن لا يعمل بمحض اختياره يساق الى الورشة يلهب ظهره السوط .

وهكذا نرى ان اكتشاف الطيران قد قلب رأساً على عقب حياة الانسان الغربي سياسياً ومالياً واقتصادياً واجتماعيـــاً . فالاشياء التي من اجلها نحارب تطمرها الانقاض المسببة عن حرب نحسبها السبيل الوحيد الى تحرير الامم . والتسلح الذي حسبنـاه اداة انقاذ يجعل منا اقناناً تقيّدهم سلاسل العبودية التي عرفتهـــا القرون الوسطى .

ولما كانت البروليتاريا ، أزراعية كانت ام صناعية ، عاجزةً عن حكم نفسها بنفسها ، فالسلطة تنتقل حتماً الى القـــادرين على تحريك القوى المادية والنفسية. وقد كان يحمي هؤلاء في القرون الوسطى فرسانٌ غارقون في الحديد ، امـــا في عصرنا فتحميهم آلات مدرعة .

في العام ١٧٧٦ كتب آدم سمث يقول : « في الماضي كانت الدول المترفة والمتحضرة (ويدعوهـــا سمث الرخوة) تلقى صعوبة في صد اعتداءات الدول الفقيرة الغـــارقة في الظلام (ويدعوها القاسية) . اما في ايامنا فالشعوب الفقيرة المتأخرة تجد نفسها عاجزة عن مواجهة الشعوب المتحضرة » .

وهذه الملاحظة تحتفظ بقيمتها كاملة في عصرنا هذا . فالدول غير الصناعية لا تستطيع شيئاً في وجه الدول الصناعية . يقول كنسي رايت : « تتمتع الامم ذات التقنية العسكرية بتفوق ساحق بالنسبة الى الامم التي لا تقنية عسكرية لها » . وقد ادى انعدام هذه التقنية لدى بعض الدول الى تواريها عن المسرح كدول يحسب لها حساب في ميزان القوى (بلجكا ، هولندا ، الدانمرك) ؛ ورأينا الاتحاد السوفياتي يسيطر على الدول البلقانية ودول اوروبا الشرقية ، لانها تفتقر الى الموارد اللازمة للحرب الآلية . وليست غاية الاتحاد السوفياتي الرئيسة من اخضاع الدول المذكورة لنفوذه زيادةَ عدد المقاتلين في صفه، انما غايته حرمان اوروبا من الامكانات التي تتيح لها محاربته : المعادن والبترول والفحم، الخ ... يقول في هذا ايلي كولبرتسن Culbertson :

« ازدادت الحاجة الى السلاح في الحروب الحديثة زيادة باتت معها الدول الصناعية الكبرى تطمع بالحصول على موارد قارة بكاملها ليتسنى لها احراز النصر . وللمرة الاولى في التاريخ تقتتل الامم للحصول على الاسلحة ، وقد كانت تقتتل في الماضي من اجل الاسلاب والمغانم . وكان البشر في العصور الخوالي هم الاصل في القتال ، ولم يكن السلاح اكثر من اداة ؛ اما اليوم فالسلاح هو الاصل وليس البشر سوى مساعدين له ؛ وغدت الاستراتيجيا العسكرية ، وحتى الاقتصادية والسياسية ، تقوم على

واقع حسابي هو ان الغلبة في الحرب مضمونة لمن يملك اكبر كمية من المعدن المنظم والمواد الكيماوية ».

ان كل ما ذكره كولبرتسن صحيح . ففي القرون الوسطى كان القتال مهمة منوطة بالرجال الغارقين بالحديد ، اما الذين لا دروع لهم ، فقد كانوا يقومون بدور ثانوي ؛ وكانت الشجاعة هي عصب الحرب ، اما اليوم فالمال هو عصبها . واذا كانت الشجاعة في القرون الوسطى قد ادت الى حروب صليبية دينية الطابع ، فالمال في ايامنا قد ادى الى حروب صليبية اقتصادية الطابع .

ولكن المقارنة تقف عند هذا الحد ولا تتعداه . ففي العصور الخوالي كان مجرد اكتشاف سلاح قوي تترتب عليه نتائج حاسمة ، لان تنظيم الجيوش كان غاية في البساطة . اما اليوم فالتنظيم العسكري يتأثر خطى التقدم الصناعي ، وهذا يعني ان الاختراعات الجديدة فقدت طابعها الحاسم ، لانها ما تكاد تظهر حتى يكتشف العلم اختراعات مضادة لها او اختراعات افضل منها.

ففي مستهل الحرب العالمية الثانية ، كان لاكتشاف الرادار تأثير حاسم في الدفاع عن انكلترا. فعندما ظهرت القنبلة الطائرة فيما بعد لم يكن لها التأثير الحاسم المرجو، لانه لم يتوافر لدى الالمان الوقت اللازم لان يجعلوا منها اداة تخريب قوية . نستنتج من ذلك ان الاختراعات الجديدة لا تعطي النتائج المرجوة ما لم تتحقق وتنظم قبل بروز الحاجة اليها ، بحيث تأتي نتيجة تفكير

ناضج لا نتيجة إلهام فجائي .

يجرّنا ذلك الى وجوب انشاء اداة خاصة مهمتها حل كل مسألة من مسائل الحرب باقصى سرعة ممكنة وباقل التكاليف . ففي الحروب الحديثة لم يبق مجال للجيوش « المؤهلة لاداء كل المهام » ، ولا بد من التخصص . والتخصص يتطلب قيام طراز جديد من هيئة عامة لاركان الحرب لا تقتصر مهمتها على الصيانة والانضباط ، بل تتعداهما الى تتبع خطى التقدم الصناعي والعلمي ، ودراسة الاختراعات الجديدة ، وتحديد انواع الاسلحة والوسائل التي ينبغي للدولة ان تجهز بها الجيش . ولو وجد مثل هذا الجهاز في بريطانيا العظمى العام ١٩١٩ لعارض في حل نواة الجيش الآلي ، ولترتب على بقاء هذه النواة مهر انكلترا بجيش قادر على وقف الزحف الالماني في اوروبا العام ١٩٤٠ .

ولو وجدت هيئة الاركان العامة المختصة في المانيا لادركت ، وهي تعدّ العدة للحرب العالمية الثانية ، ان غزو اوروبا ليس مسألة محض برية ، انما هو مسألة بحرية بالدرجة الاولى ، لان غزو اوروبا لا يمكن ان يكتمل ما لم يعبر الغزاة بحر المانش ويخضعوا الجزر البريطانية . وقد رأينا انكلترا تتلقى الضربات تباعاً ، ولكنها لم تسقط ، لان المانيا لم توجد ، قبل قيامها بالمغامرة العظمى ، الادارة والوسيلة اللتين تكفلان لجيوشها عبور المانش .

ولو قيض لالمانيا طراز هيئة الاركان العامة الذي المعنا اليه لادرك دون كبير عناء ان اهم مسألة يجب حلها ، قبل غزو بلاد مترامية الاطراف ، فقيرة بالطرق الصالحة كروسيا السوفياتية ، هي مسألة تموين الجيوش ، وان الفرق المدرعة تغدو مستعبدة للطرق اذا بقيت هذه المسألة معلقة .

وما قلناه عن وجوب العمل على ايجاد حلول لمسائل الحرب قبل بروز هذه المسائل ، على يد اجهزة اركان حرب متخصصة ، نقوله بشأن الصناعات الضرورية للحرب . فانشاء هذه الصناعات يجب ان يكون في الاصل للاغراض الحربية بدل السعي لاعطائها هذا الطابع بعد نشوب النزاع ، في عصر لا يسبق الحروب انذارٌ بها ، ولا تفسح الاغارات الجوية للدولة في مجال التأهب والتعبئة ؛ بل يجب ان تكون الجيوش بحالة حذر مستمر (شأنها شأن فرق الاطفاء) تهب للقتال لدى الاشارة الاولى كما كان يفعل فرسان القرون الوسطى لدى سماعهم قرع الطبول .

وكما ادت حرب القرون الوسطى الى قيام الحصون والقلاع والمدن المحصنة لحماية النصرانية من غزوات مباغتة يشنُّها اعداؤها، ادت الحروب الحديثة الى انشاء الملاجىء تحت الارض،ونقل الصناعات الى مدن مشيدة تحت مساحات من الاراضي المشجرة او المزروعة ، ابعاداً لها عن خطر الاغارات الجوية . ولن يمضي وقت طويل حتى نرى كل مدينة قد صارت مدينتين : احداهما

ظاهرة وهي تضم منشآت فترة السلم ، والاخرى مخفية وتضم منشآت فترة الحرب . وفي هذه يستمر الناس في نشاطهم المعتاد ، وفي المساء يأوون الى اوجارهم كالارانب .

قد يقوم من يتساءل : كيف يسكت البشر على تقييد حريتهم والحد من اسباب الرفاهية التي بها يتمتعون ؟ اما انا فاعتقد ان البشر يتحملون كل شيء متى عرفنا كيف نوقظ غرائزهم البدائية . وقد رأينا الدول غير الدكتاتورية في الحرب العالمية الثانية تعتمد اساليب الدول الدكتاتورية ووسائلها ولا سيما الدعاوة .

والدعاوة هي السلاح الرئيس بيد الاقطاعية المعاصرة كما كانت السلاح الرئيس بيد اقطاعية القرون الوسطى . وبقدر ما يكون البترول ضرورياً للآلة الحربية يكون الكذب ضرورياً لحمل البشر على قبول فكرة الحرب ، او كما يقول جورج براندس George Brandès : « تتطلب الحرب اغتيال الحقيقة » ، او كما يقول ج. س. فيريك Viereck : « في الحرب تعمل الدعاوة على اثارة نقمة البشر . اعطوني شيئاً ابغضه أكفل لكم تنظيم دعاوة هائلة في غضون اربع وعشرين ساعة » . ولاحظ كولبرتسن ان «ملايين البشر في الدول الدكتاتورية ضللتهم الدعاوة ، فمشوا الى القتال وقد نوّمتهم تنويماً مغناطيسياً ليموتوا ميتة بلهاء » .

وجدير بالذكر ان التقدم في حقل التسلح يصحبه تقهقر خلقي واضح . فالمعاهدات باتت قصاصات ورق لا قيمة لها ، والتعهدات

الرسمية اكذوبة مغلفة ، وكلمة الشرف تضليلاً وخداعاً . وقد رأينا الحلفاء يخون بعضهم بعضاً ، ورأينا الهمجية تجد من يمجدها ويتباهى بها . والامثلة على هذا الجنوح نحو البربرية اكثر من ان تحصر ، ولكني اكتفي بالمثال الآتي :

عشية عيد الميلاد العـــام ١٩٤٤ كتب جون غوردن في « الصنداي اكسبريس » يقول : « احتلت قواتنا منذ ايام مدينة اكس لا شابيل ، وقـــد اكتحلت عيناي فيها بمشاهد اثلجت صدري . فقد كان عدد سكان المدينة ١٧٠ الفاً قبل الحرب ، وانك لا تجد فيها اليوم منزلاً واحداً صالحاً للسكن ، لان الاغارات الجوية قد دمرتها ، وقتل من سكانها في اغارة واحدة ثلاثة آلاف . ومن دواعي اغتباطنا ان ما حلّ باكس لاشابيل قد حلّ بمعظم المدن الالمانية » .

ألا تذكّرنا هذه اللهجة الغريبة بقول الشاعر بيرون :

« وكيف اصعد الى الاعالي ،
« قال لنفسه لوسيفوروس .
« لو عاد الامر الي لفضلتُ
« الصعود في مركبة تنقـــل
« جرحى لأتـــلذذ برؤية
« دمائهم تسيل » .

يقول كنسي رايت : « ان الحرب بمفهومها الحديث تهدف الى محق العـــدو بحيث لا تقوم له قائمة » . وقد رأينا

كتّاباً كمورلي روبرتز (وهو انكليزي) يدعون الى قطع دابر الالمان للقضاء على خطرهم نهائياً .

وعندما ادرك اجدادنا في القرنين السابع عشر والثامن عشر ان استمرار الحروب يهدد البشرية بالفناء والحضاوة بالزوال ، لم يحاولوا المستحيل ، اي انهم لم يجرّبوا منع الحروب ، ولكنهم جرّبوا الحد من ويلاتها . اما نحن فاننا عاجزون حتى عن القيام بتجربة من هذا النوع ، لان مجتمعاتنا تختلف اختلافاً كبيراً عن مجتمعات ذلك العهد . ففي القرن الثامن عشر كانت الامم تعتمد على الاكتفاء الذاتي ، وكانت التجارة الخارجية بالتالي شيئاً لا يؤبه له ، وكذلك كان شأن المواد الاولية . ناهيك بان الطبقة الحاكمة كانت في كل بلد من طبقة الاشراف ، وكان الحاكمون ، على عيوبهم الكثيرة ، يتمشون على مبادىء واضحة في السلم والحرب لا يحيدون عنها ، ولم يكن للتسلح والجيوش سوى اهمية ثانوية ، وكان النصر حليف القائد الماهر ووليد المناورة البارعة اكثر منه وليد المعارك الطاحنة ، لذلك كان عدد الضحايا ضئيلاً نسبياً .

ولكن هذه الظروف تبدلت منذ نشوب الثورة الفرنسية . فقد تسلمت الاحكام جماعةٌ من الوصوليين الانتهازيين ، واقتعدت البورجوازية مكان النبلاء ، وادخلت على الحكم والسياسة والحرب اساليب التجار والمضاربين ، وراحت تثير الجماهير وتتلاعب بعواطفها ، وتوجه الحوادث التوجيه الذي يتفق ومصالحها

الخصوصية .

وبالرغم من ذلك كله انقضى القرن التاسع عشر في ظل فترة طويلة من السلم، ولم تتخلله حروب طاحنة طويلة الامد. وبفضل « السلم البريطاني » Pax Britannica احتفظت الحروب بطابع محلي لان سيطرة بريطانيا على البحـــار حالت دون شمول الحروب وتخطيها حدوداً معينة .

وقد قام « السلم البريطاني » على البخار كقوة محركة . فلما ظهر البترول تضاءلت اهمية « السلم البريطاني » ، لان الجيوش البرية صارت اقدر على الحراكية والانتشار والابتعاد عن قواعدها ، ولان الطيران انزل الاساطيل البحرية عن عروشها ، فانتقل اليه الإشراف على البحار . ومنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى بذلت سلسلة محاولات لايجاد مؤسسة يمكن ان تحل محل « الســلام البريطاني » ، فكانت عصبة الامم ، وكانت المواثيق الدولية ، ولكنها لم تحل دون نشوب حرب عالمية ثانية .

واليوم يتوقف مصير الحضارة على قيام احد سلمين محتملين : السلم السوفياتي ، والسلم الاميركي . فأيهما يفرض نفسه على العالم ؟

ظلت روسيا حتى العام ١٩١٧ دولة غربية ذات امبراطورية اسيوية ، ولكنها اتجهت مذ ذاك اتجاهاً اسيوياً او شرقيـــاً . ذلك ان البلشفية تكره الغرب والحضارة الغربية كرهاً شديداً ، وتعتقد ان النصرانية وتعاليمها هي الد اعدائها . وعندما ساعدت اميركا وبريطانيا روسيا السوفياتية العام ١٩٤١ ، فتحتا لها ابواب

اوروبا الشرقية عن حسن نية ، مع انهما لو فكرتا في الامر ملياً لاعتبرتا بما تنبأ به نابوليون العام ١٨٠٧ عندما قال في تيلسيت : « من الآن الى مئة عام تغدو اوروبا ذات نظـــام جمهوري او دولة يحكمها القوزاق » . فاذا تحققت هذه النبوءة، وامتـــدت السيطرة الروسية من المحيط الهادىء حتى المحيط الاطلنطي ومن رأس تشليوسكين الى رأس الرجاء الصالح ، يغدو ثلاثة ارباع موارد العالم بايدي السوفيات . فهل يمكن تفادي النزاع في هذه الحالة مع العلم ان البترول يسهل مهمة القوى البرية اكثر من القوى البحرية ؟

قال ستالين : ان الجمهوريات السوفياتية لا يمكن ان تعيش مع بقاء الدول البورجوازية . فاذا اخذنا بهذا القول وظـــل البترول القوة الدافعة الرئيسة ، فالى هذا السائل الثمين يعود امر تقرير نوع السلم الذي سيفرض ذاته على العالم : هل هو الســـلم الاميركي ، ام السلم السوفياتي ؟

الفصل الثامن

عصر الذرة

في مقال بعنوان «الطاقة الذرية»، ولعشرين عاماً خلت، كتب البروفسور ف. و. أستون ما نصه: «ان كمية الطاقة الكامنة في كوب ماء تكفي لجعل الباخرة موريتانيا Mauretania تجتاز المحيط الاطلسي ذهاباً واياباً دون ما توقف. واذا استطعنا تحويل عشرة بالمائة من هيدروجين الشمس الى هليوم Hélium، فهذه العملية كفيلة باطلاق كمية من الطاقة تكفي للابقاء على اشعاعاتها الحالية الف مليون سنة. فمتى يتوصل الانسان الى تحرير هذه الطاقة ومراقبتها، وفي اي السبل يستعمل امكاناتها غير المحدودة؟ من يدري، فقد يؤدي التحكم بالطاقة الذرية الى بلوغ البشرية اوج الحضارة المادية، كما قد يؤدي الى زوال الحضارة».

ما كان اغنى البروفسور أستون عن التساؤل، وهو الفيلسوف البعيد النظر والبحاثة المتبحر! لقد ادرك قبله روجه باكون، لدى اختراع البارود، في اي الوجوه سيستعمل الانسان الاكتشاف الجديد. ألم يعدل ليوناردو دا فنشي عن وضع تصميم الغواصة لما تراءى له ان البشر سيستعملون اختراعه

في وجوه غير انسانية ؟ ويمكن القول ان اكثر الاختراعات العلمية اتخذ منها الانسان وسيلة للاثراء ، او استخدمها في ابادة اخيه الانسان ليزيحه من الطريق ويستأثر هو بالثروة.

في الحربين العالميتين الاولى والثانية صادرت الدول علماءها ، فوضعوا علمهم في خدمة الدمار والموت . وكأدوات حرب رأيناهم ومختبراتهم يقفزون الى المرتبة الاولى . وهذا ما حمل البروفسور هـ. هـ. دال رئيس « الجامعة الملكية» Royal Society على القول في مقال نشرته له « التايمس » بعد يومين من القاء القنبلة الذرية على اليابان : « كل شيء يدل على ان الاكتشافات العلمية والاختراعات ستغدو عما قريب عناصر القتال الجوهرية . فالعلم المجنَّد بالرغم منه[1] هو اليوم في طريقه لان يصير عاملاً مباشراً (ولكنه عامل اعمى) من عوامل الدمار البعيد المدى ، ودليلنا

١ يلاحظ على وجه العموم ان العلم بات مجنداً في كل دولة من الدول العسكرية : قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية عبأت السلطات الاميركية العلماء كافة ؛ وصرح رئيسهم بوخ ، بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً، بان مائة مليون دولار قد انفقت في الدراسات العلمية التي يتطلبها الدفاع الوطني، وان الجامعات والكليات تعهدت للدولة بالاسهام في الدرس ونالت من الدولة مساعدات مادية طائلة . وفي ربيع ١٩٤٣ احيل الى الكونغرس مشروع قانون يقضي بتعبئة العلماء والتقنيين تعبئة دائمة ، على ان يتولى رئيس الدولة الاشراف على نشاطهم بواسطة رئيس او مدير يختاره . ونص المشروع على رصد مبلغ مايتي مليون دولار لهذا الغرض ، كما نص على انزال عقوبات، تراوح بين الغرامة والحبس ، بكل عالم او تقني يتهرب من خدمة الوطن او يخون واجبه .

على ذلك القنابل المجنحة بالامس ، والقنبلة الذرية اليوم » .

لقد اثبت العلم ، وبالتالي القنبلة الذرية كاحد المنتجات العلمية التي وضعت في خدمة الحرب ، صحةَ ما ذهب اليه البروفسور دال . وكانت الولايات المتحدة الاميركية قد جازفت بمليـاري دولار في اخطر محاولة علمية سجلها التاريخ ، فاثمرت جهودها قنابل تكمن في الواحدة منها قوة ٢٠ الف طن من المتفجرات العادية ، وقوة متفجرة هي الفا ضعف قوة القنبلة البريطانية غراند شيليم Grand Chelem (١١ طناً) ، وهي اضخم قنبلة عادية استعملت في الحرب[1] . وقيل انه في حال صنع عدد كاف من القنابل الذرية « تغدو قوة الاسطول الجوي الاميركي القاصف ثلاثة آلاف ضعف قوته الحالية ، وان ٨٠٠ قلعة طائرة مجهزة بالقنابل الذرية ، كالتي حملت هذه القنابل الى اليابان ، تستطيع ان تفعل ما يفعله مليونان ونصف مليون قلعة طائرة تنقل قنابل عادية[2] » .

واستعمال القنبلة الذرية من السهولة بمكان . فقد انطلقت في ٥ آب ١٩٤٥ قلعة طائرة واحدة على متنها احد عشر رجلاً . وفوق مدينة هيروشيما ضغط احد هؤلاء زراً ، فهبطت قنبلة ذرية مربوطة الى مظلة من ارتفاع ستة آلاف متر . وسرعان ما ابتعدت

١ من تصريح للرئيس الاميركي ترومان نشر في جريدة التايمس اللندنية بتاريخ ٧ آب ١٩٤٥ .

٢ من تصريح للرئيس ترومان في ٨ آب ١٩٤٥ .

الطائرة الجبارة عن مكان الانفجار . « فالمدينة التي كانت ، في الساعة التاسعة الا ربعاً صباحاً موفورة النشاط والحيوية ، تبخرت في الساعة التاسعة ، فبدت وكأنها عمود دخان ، قاعدته سوداء ، يأخذ بالاتساع حتى ينتهي بشبه طاقة ورد ابيض على ارتفاع ١٢ الف متر [١] » . وفي ٩ آب القيت قنبلة مماثلة على ناكازاكي .

في العملية الاولى قتل وجرح ١٦٠ الفا ، وبات مئتا الف شخص بـــدون مأوى . وفي العملية الثانية قتل وجرح ١٢٠ الفاً . وجاء في التقرير الاولي انه لا يمكن حصر عدد الضحايا قبل رفع الانقاض [٢] ، وان ٣٠٠ الف شخص على الاقل قد قتلوا وجرحوا في الاغارتين دون ان يفقد المغيرون رجلاً واحداً ، اي ان معارك كلفت المدافعين ما كلفته معارك الصوم والايبر في الحرب العالمية الاولى قد انتهت لا في اشهر ، بل في ثوان معدودات ؛ وقد قاد هذه المعارك رجال غرباء عن التكتية والاستراتيجية . وجدير بالذكر ان الحرب الذرية ما تزال في ابانها ، وان الخبراء يتوقعون صنع قنبلة ذرية تفوق قوتها الف ضعف قنبلة هيروشيما ، مع العلم ان تحويل الذرة الى طاقة هو اليوم

١ من تصريح للرئيس ترومان في ٩ اب ١٩٤٥ ، وقد ضمنه التقارير الاولية عن القاء القنبلة الذرية على هيروشيا ونتائجه الفورية .

٢ من تصريح للرئيس ترومان في ٢٣ آب ١٩٤٥ .

في طور التجربة المحدودة ، فاذا اتسع نطاق تحويلها للاغراض الحربية ، فقل ان البشرية صائرة الى الفناء [1] .

ولا ريب في ان القنبلة الذرية قد هدمت العديد من النظريات وقلبت قواعد كانت تبدو ثابتة . ولما كنتُ قد ابديت آراء معينة في سياق هذا البحث ، فالسؤال الذي ينبغي طرحه الآن هو : الى اي حدٍّ كرّس السلاح الجديد نظرياتي ، والى اي حد نقضها ؟

١ ـ دعمتْ القنبلة الذرية ما ذهبتُ اليه من ان ٩٩ بالمائة من النصر هي صنع الآلات او الاسلحة ، على ان تُكتشف هذه وتلك في الوقت المناسب .

٢ ـ لا يتعارض ظهور السلاح الجديد مع ما سميته « ناموس التطور العسكري » في معرض قولي ان الحضارة تتأثر بالاحوال المكانية والزمنية ، وانه ينبغي للجيوش ان تتكيف تبعاً لتبدل هذه الاحوال ليتسنى لها ان تكون دائمة للعمل . بيد ان القنبلة الذرية تقلب الناموس الذي المعتُ اليه ، فتجعل من الحرب المحيط الذي ينبغي للحضارة ان تعيش في جوه ، وان تتكيّف تبعاً له .

٣ ـ تدعم القنبلة الذرية وتناقض في الوقت نفسه قولي ان العدد الاكبر في الحروب الحديثة يتغلب على العدد الاصغر ، وان الجودة تتفوق على العدد . ذلك ان السلاح الجديد ينزع عن

١ مجلة الايكونومست الصادرة في ١٨ آب ١٩٤٥ .

الحرب طابعها البروليتاري، ويقضي على مفهوم الامة المسلحة، لان عدد المقاتلين في الحرب الذرية يمكن ان يخفض الى الحد الادنى ، ناهيك بان عامل الجودة لم يبق له اهمية تذكر ، فالكمية وحدها هي التي تكفل سحق العدو بالسرعة اللازمة . ويبدو انه سيأتي يوم لا يبقى فيه للجندي دور يقوم به ، فيقف بعيداً ليشهد حرباً تقوم بين قاذفات الصواريخ الذرية . ولقد قلت في الفصل الرابع ان اكتشاف البارود ادخل الحرب في طورها التقني ، وهو طور تشتد فيه النزعة الى ازالة العنصر البشري مادياً ومعنوياً . اما اليوم فقد بات هاجس العقل اكتشاف انجع الوسائل لمواجهة خطر القنبلة الذرية .

ذلك كله يقودنا الى التساؤل : أيكتشف العـ وسيلة فعّالة ضد القنبلة الذرية ؟

حتى تفجير الذرة كان كلُ سلاح جديد يجد مضاداً له. وهذا المضاد ليس دائماً سلاحاً مدمراً او حتى مجرد سلاح . ففي اواخر القرن الخامس عشر وقف الايطاليون حيارى حيال مدفعية شارل الثامن . وبعد خمسة عشر عاماً اضحت هذه المدفعية غير ذات مفعول بفضل الاجهزة الدفاعية الجديدة .

والعام ١٥١٩ انهارت امبراطورية الاينكا Incas امام مدفعية الاسبانيين، لانها لم تعرف كيف تواجه هذا السلاح المدمر . فهل نقف نحن موقف العاجز المرتبك حيال القنبلة الذرية ؟ لا يمكن اعطاء جواب حاسم قبل انقضاء بعض الوقت ، ولكن اذا احسنا

الظن بالبشر، جاز لنا ان نتوقع تبدلاً في مفهوم الحرب، بحيث تغدو اداة سياسية بعد ما انقلبت اداة تدمير وافناء. وفي هذه الحالة يتخلى البشر عن القنبلة الذرية تماماً كما فعل القوط والسلجوقيون واللومبارديون عندما كفّوا عن تخريب الامصار ليضعوا ايديهم على خيراتها.

بيد اننا لن نذهب بعيداً في التفاؤل، لان الاعمال البربرية التي رافقت النزاع الاخير قد فضحت تدني المستوى الخُلقي تدنياً مخيفاً. ولو ان هذا التدني توقف مع انتهاء الحرب لهانت المصيبة، ولكن خطة الابادة والتخويف استمر العمل بها في السلم بشكل محاكمة مجرمي الحرب.

لم يذكر التاريخ، قبل محاكمة نورمبرغ، ان حرباً انتهت بمحاكمة حكومة العدو ورجال دولته وموظفيه وكبار رجال المال والاعمال وقادة الجيش، من اجل جرائم واقعية او مفترضة ارتكبوها في اثناء الحرب او قبل نشوبها [1].

أليست محاكمة زعماء المانيا واليابان عودةً الى العهود البدائية المظلمة في مجتمع تنكر للمنقبية والقيم [2]؟ يخيل الينا ان الغرب

[1] يقرب من محاكمة نورمبرغ محاكمة جان دارك التي احرقت في روان العام ١٤٣١، ثم طوّبت العام ١٩٠٤. اما اعدام المارشال ناي والزعيم لابيدويار، فانه لا يدخل في هذا الباب، لانهما خانا لويس الثامن عشر خلال حكم المائة يوم.

[2] من الشواهد التي يمكن سوقها تدليلاً على تنكر المجتمع المنقبية =

يعود القهقرى ، وان الناس باتوا يجدون لذة خـــاصة في رؤية الآلات والادوات الجهنمية تفتـــك بالبشر أمقاتلين كانوا ام مدنيين .

وقد كان هذا حال روما في عهد من العهود عندمـا كانت الجماهير تحتشد للتفرج على الاسود تنهش اجسـاد الضحايا . يقول « ليكي » Lecky : ان اللامبالاة التي يقابل بها الجمهور في مجتمع ما الاعمالَ البربرية والعقوبات القاسية هي دليـــل انحطاط الشعب وتدهور منقبيته ، ولا يلبث هذا الشعب ان يتنكـر للحضارة وان يفقد لذة الشعور بنعم العهود السلمية .

كيف يمكن ان نرجو تحكيم العقل في استعمال القنبلة الذرية في عصر تعود به المجتمعـات الوف السنين الى الوراء ؟ كيف يمكن ان يرجى ذلك وقد سلخت الدعاوة ست سنوات في اقناع

= والقيم تجريد المارشالين غورنغ وكايتل والجنرال جودل من صفتها العسكرية ، فان عهدة جنيف تمنع حبس اسرى الحرب الذين يكونون عند اسرهم تابعين للقوى المحاربة ، ولكنها تجيز حبس المدنيين . وقد عومل زعمـاء الرايخ من عسكريين ومدنيين معاملة غير انسانية ، فوضعوا في حجرات ضيقة شبه عارية (في كل حجرة سرير ميدان وكرسي وطاولة) ، وكانوا يتناولون اطعمة رديئة يقدمها اليهم حراس السجن في آنية قذرة . ما ابعد هذه المعاملة عن تلك التي عومل بها نابوليون ! فقد ابعد الى جزيرة القديسة هيلانة بدون محاكمة ، ونقلته اليها الدراعة نورثمبرلند بقيادة الاميرال جورج كوكبرن الذي كان يعامل اسيره معاملة لائقة ويقدم اليه اشهى الاطعمة والمشروبات الروحية كالبورتو ونبيذ مادير والشمبانيا ونبيذ بوردو .

السواد بأن القضاء على العدو قضاء مبرماً هو غاية الحرب الوحيدة؟ ألم يزعم مسؤول اميركي ان القنبلة الذرية «انقذت حياة الاميركيين باهلاكها الوف اليابانيين» ؟ ان غاية الحرب ليست انقاذ بشر واهلاك آخرين ، انما غايتها اقامة سلم وطيد الاسس .

وادهى من هذه العقلية المخربة المساعي المبذولة لاخضاع صنع السلاح الجديد واستعماله لرقابة دولية . وحجة القائمين بهذا المسعى ان الطريقة الوحيدة لمنع الحضارة من الانتحار هي جعل الإشراف على الطاقة الذرية منوطاً بسلطة دولية ، ولكن كيف نقيم دولة فوق الدول، قبل ان نوجد لها الاسس المعنوية؟ وهل يعقل ان تقبل اميركا وروسيا بالتنازل عن مصانعهما الذرية وبتسليم الاورانيوم الذي لديهما الى الهيئة الدولية المقترحة ؟

يحتم المنطق ان نتوقع ، بعد اليوم ، سباقاً بين الامم في مضمار احراز الاورانيوم (او اية مادة مدمرة جديدة) كما قام بينها سباق من اجل الحصول على الحديد والبترول . ذلك ان هذا التهالك على المادة من شأنه ان يجعل اجل السلم قصيراً ، بحيث لا تنتهي الامم من حرب حتى تمضي قدماً في التأهب لحرب تالية .

★

ما هو تأثير القنبلة الذرية في الحروب ؟ لننظر الى المسألة بادىء ذي بدء من زاوية الحرب العالمية الثانية . لقد كانت اليابان على شفير الهاوية قبل ظهور القنبلة التي دمرت هيروشيما . ولو ظهرت هذه القنبلة في الشرق الاقصى ، واليابان في ابان

توسعها جنوباً وغرباً ، لوضعت حداً للحرب في المحيط الهادىء والمحيط الهندي في ايام معدودة ؛ ولو وجد لدى الالمان عشر قنابل ذرية لما استطاعت سفينة بريطانية واحدة بـــلوغ شاطىء نورمندي ، ولفرض هتلر على الحلفاء وروسيا استسلاماً غير مشروط .

وهكذا يبدو جليـــاً ان قواعد الحرب البرية والبحرية والجوية اضحت غير ذات موضوع . ففي نزاع اطرافه الرئيسة المختبرات، ايّ قيمة تبقى للجيش والاسطول وسلاح الطيران ؟ وهل تحتاج الامم الى مشاة ، ومدفعية ، ودبابات ، وتحصينات ، وخطوط حديدية استراتيجية ، ومدارس عسكرية واكاديميات لتخريج ضباط اركان الحرب ؟

ليس في هذه التساؤلات شيء من المغـالاة . فالقنبلة الذرية التي القيت على هيروشيما انفجرت على ارتفاع ٥٠٠ متر ، فدمرت اماكن آهلة مساحتها ١٠ كيلومترات مربعة . فكيف يقوى جيش على مواجهة سرب من الطائرات ينقل القنابل الذرية ؟ وما قلناه عن الجيش ينطبق على الاسطول ، فما من سفينة حربيـــة تقوى على الصمود امام قنبلة ذرية تلقى عليها من الجو او تقذفها بها غواصة ، وتكون لها قوة متفجرة تعادل عشرين الف طن من المتفجرات العادية . وماذا يستطيع اسطول جوي حيال قنابل او صواريخ ذرية تطلق عليـــه بواسطة الرادار ؟ لقد استخدمت مدفعات «دوفر» الرادار في قصف الدارعة الالمانية شارنهورست

بينما كانت منطلقة على بعد ٢٧ كيلومتراً بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة، فاصيبت الدارعة اصابات ثلاثاً بالرغم من كثافة الضباب. وفي وسع المدافع المضادة للطائرات غداً ان تستخدم الرادار في قصف الطائرات بالصواريخ الذرية، وان تمزقها تمزيقاً من ابعاد شاسعة دون ان تحمل نفسها عناء إحكام الضربة. من هنا امكن القول ان الحرب الذرية تتخذ شكل ثورة بركانية، وان شبكات من محطات الرادار ستحيط بكل بلد من البلدان متأهبة للانذار باقتراب الكارثة. وستقوم الى جوار هذه المحطات مجموعتان تكتيتان مسلحتان بصواريخ ذرية، احداهما هجومية، والاخرى دفاعية. اما الاولى فستكون مهمتها تدمير الامصار والمدن دون ان يسبق هذه العملية انذار بالحرب او اعلان لها. اما المجموعة الدفاعية فانها ستطلق صواريخها الموجهة بالرادار حالما تسجل المحطات اقتراب الصواريخ المعادية. فاذا قيّض لصاروخ معادٍ الوصول الى الهدف، سواء أكان هذا الهدف مدينة كباريس او لندن او نيويورك او موسكو، ام قاعدة عسكرية، فالانفجار لن يبقي عليه ولن يذر.

ويزيد في خطورة الحرب الذرية انه لن يمضي طويل وقت حتى تكون الامم كافة، كبراها وصغراها، متأهبة لشنّها، وتكون الغلبة لمن يسبق، ولكن الجميع سيكونون في النهاية مغلوبين على امرهم، وتكون الحضارة ضحية جنون الامم التي تدعي الحفاظ عليها.

لا جدال في خطورة هـذا الوضع وفي وجوب العمل على تلافيه ، ولا يختلف عاقلان في ان الابقاء على الحضارة – وهو ما تدعي الامم كافة العمل له – لا يكون باقامة دعائمها على قوة الحرب المدمرة . وقد ادرك البشر هذه الحقيقة منذ قرون ، وحاولوا ايجاد نظام شامل للسلم . وبدأت اولى المحاولات عقيب ظهور الاسلحة النارية . وكان سولي Sully في « مخططه الكبير » اول من اقترح انشاء اتحاد اوروبي يضم خمس عشرة دولة ، ويضع تحت امرة برلمانه جيشاً واسطولاً . وبعد انتهاء حرب الثلاثين سنة وضع ويليام بن William Penn مشروعاً بانشاء عصبة امم ذات سلطات معنوية . والعام ١٧١٣ وضع الاب دوسان بيار « مشروع السلم الدائم » الذي وصفه فريدريك الكبير : بـ « انه قابل للتحقيق ، ولا ينقص تحقيقه الا موافقة اوروبا عليه[١] » . وطلع روسو العام ١٧٦١ بكتابه « رأي في السلم الدائم » . وبعد اربعة وثلاثين عاماً وضع قانت دراسة بعنوان : Zum ewigen Frieden[٢] . والعام ١٨١٥ قام

١ الرسائل المتبادلة بين فولتير وفريدريك الكبير ، نشرها R. Aldinglon العام ١٩٢٧ ، ص ١٦٠ .

٢ يقول قانت في دراسته ان الحروب ترمي في المدى البعيد الى توحيد الجنس البشري ، لان التجمع يضعف من امكانية الحرب . ولما كانت غاية الطبيعة هي الوحدة ، فالقوة الدافعة الى هذه الوحدة يجب ان تكون الحرب.

التحالف المقدس كمحاولة عملية لدعم السلام وتنظيمه، وقد وصف مترنيخ هذه المحاولة بانها « عدمٌ صـــارخ » . واثبتت الايام فعلًا ان المحاولة اعطيت من الاهمية اكثر مما تستحق . وبعد مائة عام (١٩١٩) قامت عصبة الامم ، ولكنها اخفقت .

على ان البشرية لم تيأس ، وها هي « الامم المتحدة » تحاول تنظيم السلم وتنصيب نفسها دولة فوق الدول . فهل تتوصل هذه المنظمة الدولية الى فرض رقابة فعالة على الانتاج الذري ، في حين يلجىء الخوف من الاسلحة الذرية الاسدَ الى ملاعبـة الارنب ، والذئبَ الى مداراة الحمل ؟

كل شيء رهن بنجاح « الامم المتحدة » في القضاء على بواعث الحرب ، مع العلم ان الحروب غالباً ما تنشب لقطع الطريق على الثورات الداخلية او الحروب الاهلية . فـــاذا اخفقت الامم المتحدة في القضاء على هذه البواعث ، ترتب على اخفاقها قيام نزاع هو شر انواع المنازعات ، اذ تمزق العالم اضطراباتٌ اجتماعيـــة خطيرة يمثل فيها الرشيش والمسدس والمـدية دوراً رئيساً . وفي هـذه الحالة قد يكون نشوب حرب ذرية نعمة اكثر منه نقمة .

من هنا كان وجود « دولة عالمية »، مرتكزها الوحيد القوة، حلًا اعرج. فالبنيان المؤمل هو الذي يقوم على العقل، وليس على القوة .

وفي عصرٍ يُقال لنا فيه ان مهندس الكون الاعظم يبدو وكأنه استاذ رياضيات ، لا يدهشنا ان نرى الانسان يقيم وزناً

كبيراً للكمية والحجم والقياس والمدى. وقد تعلّم هذا الانسان طيلة سني الحرب الاخيرة ان يقيس النصر بالاطنان والدولارات، وصار يعتبر التدمير المادي غاية الحرب الوحيدة. ومن هذه النظرة الى الحرب طلع المتحاربون بالشعار المعروف: «التسليم غير المشروط».

هذا الاطار الشعبي للحرب يختلف عن اطارها التاريخي الذي يقيم وزناً للاهداف دون ان يسقط من حسابه الارقام والمقاييس. فحتى الامس القريب كانت الحروب تهدف الى اقامة سلم اكثر نفعاً من السلم الذي تقوضت دعائمه. ولكن ماذا تعني عبارة «السلم اكثر نفعاً»؟ يختلف مدلول هذه العبارة تبعاً لحالة المجتمع، ففي المجتمع المتأخر (كالجماعات البدائية) كانت غاية الحرب العسكرية ابادة العدو، وغايتها السياسية احتلال اراضيه؛ وفي المجتمعات المتحضرة نسبياً (كالجماعات البدائية التي اعتمدت الزراعة حقل نشاطها الرئيس) كان الهدف الاول اسر العدو، والهدف الآخر استعباده. وهكذا يبدو جلياً ان بواعث الحرب الاساسية كانت في الحالين اقتصادية الطابع: في الحالة الاولى كانت الحاجة الى اراض للصيد المحروس هي الباعث على النزاع، وفي الحالة الثانية كان الباعث عليها الحاجة الى اليد العاملة في الزراعة.

ولم تتبدل البواعث مع الايام. ففي العصور الحديثة تطورت اشكال القتال، ولكن اسباب الحرب الرئيسة ما تبدلت: الحاجة الى المواد الاولية، والتنافس في حلبة غزو الاسواق

الخارجية ، وما يوافق ذلك من عراقيل تبدأ بفرض الرسوم الجمركية ، وتنتهي بسياسة الاكتفاء الذاتي ، مروراً بفرض الحصار ، الخ ...

فاذا سلمنا بان القنبلة الذرية تستطيع انهاء النزاع بسرعة خاطفة ، فلا بد من التسليم كذلك بان القنبلة الذرية في ظل حضارة مرتكزة على الآلة لا يمكنها اقامة سلم نافع ما لم ترغم العدو على التسليم فور نشوب الحرب ، وهو امر يُستبعد حصوله اذا كان العدو يملك اسلحة ذرية ، ناهيك بان الحرب لا يمكن ان تقيم سلماً نافعاً ، الا اذا اعتبرناها عملاً جراحياً ، لا مجزرة بشرية هائلة . وفي هذه الحالة تكون غاية الجرّاح ازالة ورم او دمل (سبب الحرب)، فيجتهد في منع النزف عن المريض (العدو) ليحتفظ ببعض حيويته (موارد العدو) . اما غاية الجزّار ، فهي قتل الحيوان العدو باقصى سرعة ممكنة مستنزفاً دماءه وحيويته . وهو في حرصه على سرعة الانتهاء من مهمته يقطع خروفه او ثوره ارباً ارباً ، فتكون النتيجة (النصر) ضياع اللحم (سلم لا نفع منه) .

ولا نكون مبالغين اذا قلنا ان العالم يواجه اليوم واقعاً كهذا الواقع .

ولو ان رجال السياسة حملوا انفسهم عناء الرجوع الى ما كتبه كلاوزوينز لما وقعوا في ما اسميه « الخطأ التشرشلي » الذي يقوم على عدم التفريق بين الاهداف السياسية والوسائل

العسكرية . اما كلاوزويتز، فيرى ان ثمة فرقاً كبيراً بين حرب رجل الدولة وحرب رجل الحرب . فالحرب بالنسبة الى اولهما هي « استمرار سياسة الدولة بوسائل جديدة » ؛ اما بالنسبة الى رجل الحرب فهي « مبارزة على نطاق واسع » ، اي انها في الحالة الاولى « استمرار للتجارة السياسية » ، وفي الحالة الثانية « محاولة غايتها القضاء على قوى العدو العسكرية » . وهذان الشكلان من اشكال الحرب يكمل احدهما الآخر . بيد ان اهدافهما تختلف ، فاذا طغى الشكل الثاني على الشكل الاول ، اي اذا طغت الوسائل العسكرية على الاهداف السياسية ، لا تعود تلك اداة لهذه ، بل تغدو سيدتها ، ويغدو بالتالي متعذراً اعتماد الاعتدال الذي هو شعار الساسة ، لانه يمهد للسلم .

ولقد اوضح كلاوزويتز نظريته بقوله : « عندما تنشب الحرب لا يسع الدول ان تسقط من حسابها وجهة النظر السياسية ، لان الحرب لا تعدو كونها اداة بيد رجل الدولة يستخدمها في تحقيق ما تعجز السياسة وحدها عن تحقيقه . فمن السخف ، والحالة هذه ، السعي لاخضاع وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية ، ما دام العامل السياسي هو الذي سبب نشوب الحرب او اوجد مبررات نشوبها ، بل العكس هو الواجب [1] » .

[1] فصل « الحرب في خدمة السياسة » من كتاب « في الحرب » لكلاوزويتز .

ظلت سياسة بريطانيا العسكرية حتى العام ١٩١٤ مستوحاة من نظرية كلاوزويتز. فمنذ عهد كرومويل قامت حروب انكلترا على سياسة التوازن ، وهي سياسة غايتها الحؤول دون سيطرة دولة برية على القارة الاوروبية . وكان الانكليز يحالفون اقوى دولة تستطيع الوقوف في وجه الدولة النازعة الى السيطرة ، او يحالفون عدداً من الدول . اما غايتهم فلم تكن القضاء على العدو قضاء مبرماً لئلا يؤدي القضاء عليه الى اختلال التوازن اختلالاً نهائياً ، انما اضعافه بحيث يظل التوازن قائماً [١] .

وجدير بالذكر ان حروب انكلترا حتى العام ١٩١٤ – وحروب سائر الامم – كانت اداة سياسية ، غايتها الوصول الى سلم اكثر نفعاً للمنتصر . وحتى الحروب العدوانية لم تكن غايتها ابادة العدو [٢].

والآن نصل الى السؤال الآتي : هل بالامكان استعمال القنبلة الذرية استعمالاً مجدياً في الحرب كما فهمها كلاوزويتز ؟

اذا بقي « العامل التكتي المستمر » يؤدي دوره ، اي اذا

١ لم تحد انكلترا عن هذا الاتجاه في الحروب النابوليونية ، فبعد هزيمة فرنسا في واترلو عملت الدبلوماسية الانكليزية جاهدة في سبيل منع الحلفاء من تقطيع اوصال العدو المشترك .

٢ يذكر المؤرخون من حروب الابادة اجتياح الاتراك السلجوقيين آسيا الصغرى وابادتهم البيزنطيين وتدميرهم مدنهم . وكذلك كانت حروب العبرانيين الذين كان هاجسهم الوحيد توفير المراعي لمواشيهم .

توصل العلم الى اكتشاف طريقة تقضي على قوة القنبلة التدميرية او على بعض هذه القوة ، امكننا ان نجيب بالايجاب . اما اذا لم يكتشف العلم هذه الطريقة ، وعاد المتحاربون الى مفهوم للحرب يجعل منها اداة سياسية ، فان استعمال القنبلة الذرية لن يجد مـــا يبرره ، لان الاداة المستعملة لن تعود بنفع عـــلى المنتصر ، اذ تضطر الامة ، هدف الهجوم، الى تدمير بلادها ، فلا يجني المهاجم سوى الخراب .

وحتى في حال تعهد الامم بالامتناع عن استعمال القنابـــل الذرية ، لا يجوز لعاقل ان يسقط من حسابه امكانية استعمالها ، لان إحجام الدول في الحرب العالمية الثانية عن استعمال الغازات السامة ليس بالعامل الذي يصح الركون اليه[1]. فالدول لن تتورع عن اللجوء الى السلاح الذري اذا لم تجد مخرجاً آخر .

لندع جانباً نظرية كلاوزويتز ومفهومه للحرب ، ولنواجه النظرية التشرشلية وما تفرضه من دمار وخراب ومذابح هائلة .

وما دامت القدرة على شن حرب شاملة مصدرها المختبرات ، فالحد من ويلات هذه الحرب يجب ان نبحث وسائله لا في المختبرات ، بل في عيادات الاطباء . علينا ان نمد البشريـة عـلى

١ لم يستعمل المحاربون الغازات السامة ، لان احتلال المـدن لم يكن غايتهم ، والغاز السام يسهل هذا الاحتلال . وقد احجم الالمان عن استعمال الغازات في ستالينغراد مخافة ان يرد الروس عليهم رداً عنيفاً .

مائـدة التشريح ونحاول اكتشاف بواعث المرض : مرض الحرب .

اجل ، ان الحرب ظاهرة مرضية تستدعي فحصاً دقيقاً وعلاجاً . أليس من حقنا التساؤل : لماذا تقتتـــل الامم في عصر العــلم والنور ؟ انها لا تقتتل بدافع من غريزة الحرب الموروثة عن الاجداد ، بدليل موجة الارتياح التي طغت على العالم عقيب عودة السر اوستن تشمبرلن من ميونيخ (١٩٣٨) ومعه رسالة السلم ، لان ما من امة كانت تريد الحرب . الا ان ذلك لم يمنع نيران الحرب من الاندلاع ، لان قصاصة الورق لا يمكنها ان تستأصل مرض الحرب ، كما لا يمكنها ان تستأصل التيفوس او الهواء الاصفر [١] .

اوضحتُ في مقدمة هذا الكتاب انه ينبغي لنا ان نبحث عن جذور الحرب في اعماق حضارتنا ، وان هذه الجذور يمكن ان نجدها في تفوق الآلة على الانسان . وفي العـام ١٩٣٧ قال الرئيس ب . كونانت في جامعة هارفرد : « على العالم أن يسبر غور الاقتصاد العالمي وغور الذرة » . وعندي ان اسباب الحرب الرئيسة هي مالية واقتصادية قبل ان تكون وليدة عوامل

١ من اقوال برنارد شو : « لا فرق عندي بين حمى الحرب والحميات التي تفتك بسكان المناطق الاستوائية . لذلك ارى الا يؤاخذ دعاة الحروب بما يجري على ألسنتهم ، لانهم يهذون هذيان المصاب بالتيفوس او بالتهـاب السحايا » .

بيولوجية ونفسية وتربوية واستراتيجية . ولاثبات ذلك يجدر بنا ان نعود الى الاحداث الاخيرة التي مرّت بالعالم . ألم يكن تدهور الاقتصاد الالماني عقيب معاهدة فرساي السببَ الرئيس لظهور الحركة الوطنية الاشتراكية في المانيا ، بقدر ما كانت الازمة المالية العالمية بين ١٩٢٩ و ١٩٣٢ العاملَ الاساسي في نجاح الحركات القومية المتطرفة التي قامت على انقاض الانظمة الديموقراطية في المانيا وايطاليا وغيرهما من البلدان ذات الموارد المحدودة[1] ؟

والازمة العالمية كان الباعث عليها عودة الامم المنتصرة الى قاعدة الذهب ، مما ادى الى تعطل الملايين عن العمل . وما ان تسلم هتلر زمام الحكم في المانيا حتى الغى قاعدة الذهب[2] ، وارسى المالية

١ كان الرأي السائد في اوروبا ، لدى تفاقم الازمة المالية ، ان حرية التعامل هي المسؤولة عن الازمة ، وقد رأينا دولاً تمنع خروج النقد ودولاً تمتنع عن الاستيراد ، الى ان جاء هتلر فطلع بسياسة الاكتفاء الذاتي جاعلاً من الانتاج الضامن الوحيد للنقد الالماني .

٢ جاء في خطاب لهتلر العام ١٩٣٧ : « ان المجتمع الواحد لا يعيش بفضل قيمة النقد الاسمية ، انما يعيش بفضل الانتاج الذي يعطي النقد قيمته الحقيقية . والانتاج هو الذي يصلح غطاء للنقد ، لا مصرف ملئت خزائنه بالذهب » . وكان تشرشل قد طلع بنظرية قريبة من نظرية هتلر عندما اعلن في مجلس العموم العام ١٩٣٢ : « نحن في عصر الانتاج وليس في عصر التهافت على احراز مناجم الذهب ... وموكب الحضارة يستطيع ان يتابع سيره بدون المعدن الاصفر » .

الالمانية على الانتاج ، واقام التجارة الخارجية على اساس المقايضة.

اصاب النظام الهتلري نجاحاً كبيراً[1] اشاع القلق في البلدان التي اخذت بقاعدة الذهب ، لان استمراره يفضي الى تقويض اجهزتها الاقتصادية . وقد وقف هدسن ، وزير التجارة الخارجية البريطانية في مجلس العموم في ٢ كانون الاول ١٩٣٨ ، يرد على المطالبين بسياسة جديدة تتيح للتجارة الانكليزية منافسة التجارة الالمانية في الاسواق العالمية ، فقال ان الاساليب الالمانية ستؤدي بالنتيجة الى تقويض نظام المبادلات المتبع في العالم[2] . وفي اواخر كانون الثاني ١٩٣٩ صرح مدير بنك انكلترا بقوله : « يجب ان نحارب الدول الدكتاتورية بسلاحها ، وان نسعى الى تخريب اقتصادها قبل ان تقوّض هي باساليبها الملتوية انظمتنا الاقتصادية[3] » .

حاول هتلر اخضاع اوروبا لسيطرة المانيا سياسياً واقتصادياً ، وضايقت تدابيره التجارة الانكليزية والاميركية ، ولم يبق من النزاع مفر ، فنشبت الحرب في ايلول ١٩٣٩ ، واجتاحت الجيوش الهتلرية بولونيا[4] . ولكن ماذا حدث العام ١٩٤١ عندما خيّل

١ اعترفت بهذا النجاح « الايكونومست » .

٢ جريدة الدايلي تلغراف الصادرة في ٢ كانون الاول ١٩٣٨ .

٣ جريدة التايمس الصادرة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٩ .

٤ لم تختلف اسباب حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ عن اسباب الحرب =

الى العالم ان هتلر يوشك ان يخضع العالم لسيطرة الرايخ ؟ وضع الميثاق الاطلنطي الذي لو طبقت مبادئه الثمانية لاستطاع الحد من بواعث الحرب . ولكن ما ان بدأت جيوش هتلر تتراجع حتى اعلن الحلفاء ان السلم يجب ان يقوم على الاسس التي كانت سبباً في نشوب الحرب . وسرعان ماظهرت هـذه الاسس بشكل اتفاقي بريتون وود (قاعدة الذهب) ودمبرتون اوكس ، ومشروع مورغانتو وغايته القضاء على الاقتصاد الالماني.

وعقد مؤتمر بوتسدام وسان فرنسيسكو العام ١٩٤٥، ووضع المؤتمرون قواعد ما تمكن تسميته « صلح مورغانتو »[١]، لان معظم المقترحات التي تبناها المؤتمران تقدم بها مورغانتو وزير المالية الاميركية في ذلك الحين . وقد قضت اتفاقات بوتسدام بانتزاع ثلث اراضي الرايخ من المانيا ، وبحصر سبعين مليونا من السكان على ارض تقل مساحتها عن مساحة بريطانيا العظمى ، والسماح بقيام صناعة لا تستطيع الوقوف على قدميها ولا يمكنها

= العالمية الثانية . فقد كتب فرنسيس دوليزي العام ١٩١٥ في « الحرب القائمة » ما نصه : « ليست الدبلوماسية سوى خاتم لملوك المال والصناعة . فالسفراء لا هم لهم سوى ايجاد زبائن للمنتجين . ويمكن القول ان الامم يحكمها رجال الاعمال ، يدفعونها الى الحرب طمعاً بمنجم او ينبوع نفط. واذا كان لاسياد المال والصناعة حلفاء بل خدام في الحكومة والبرلمان ، فحليفها الاقوى هو الشعب الذي ينساق انسياقاً اعمى وراء دعاة الحروب » .

١ جريدة الايكونومست الانكليزية الصادرة في ١١ آب ١٩٤٥ .

بالتالي توفير اسباب العيش للشعب الالماني .

ومما كتبته جريدة الايكونومست الانكليزية بهذا الصدد قولها : « لن تعمر اتفاقات بوتسدام اكثر من عشر سنين ، ومتى نُقضت فلن يبقى في الفراغ القائم بين الحضارة والقنبلة الذرية سوى سلاح ذي حدين هو الفوضى الدولية[1] » .

وبعد ان تم للحلفاء تصفية منافسيهم في مضمار الاقتصاد ، ولاسيما المانيا واليابان ، مضوا يزاحمون بعضهم بعضاً في المضمار نفسه . وسرعان ما اوصت لجنة التجارة الخارجية التابعة لوزارة التجارة الاميركية بتوسيع حركة التصدير في تقرير جاء فيه قولها : « اما والولايات المتحدة تملك نصف امكانات العالم الصناعية ، فقد بات عليها ان تصدر سنوياً ما قيمته عشرة مليارات دولار من السلع لتتفادى البطالة . ولكن الاسواق الخارجية لا يمكنها ان تستوعب اكثر من سبعة مليارات ، واغراقها بالسلع الاميركية من شأنه ان يسبب ازمة بطالة في البلدان المستوردة ، وان يبهظ كواهل هذه البلدان بديون لاميركا يستحيل عليها سدادها » .

١ شرحت الايكونومست وجهة نظرها ، فقالت ما ملخصه : « قامت اتفاقات بوتسدام على اسس غير معقولة ، ووقع عليها الفرقاء وهم يعلمون انها غير قابلة التطبيق . ويمكن القول ان الاسس التي أُقرّت تقطع الطريق على كل صلح حقيقي مع المانيا ، وتقوي نفوذ روسيا السوفياتية ، وستنتهي يوماً بخراب المانيا بل اوروبا الغربية كلها » .

هذا النوع من التنافس كان احد العوامل الرئيسة التي سببت نشوب الحرب العالمية الثانية ، فاذا لم يوضع له حد غدا ، بعد سنوات ، السببَ الرئيس لنشوب حرب جديدة .

فكيف يمكن تشجيع ما يسميه دعاة السلم « علم تشريح الحرب » لمعرفة بواعثها واستئصال هذه البواعث من الجذور ؟ وحتى في حال وجود هذا العلم ، فالعلماء لا يلبثون ان يعتنقوا المبادىء السائدة لينضموا الى العاملين في خدمة الحرب ، وربما اشتراهم المستفيدون من الحروب ليخفوا موطن الداء ، واسباب العلة . هل كتب للبشرية ان تظل هدف التكتية والاستراتيجيا الوحيد : التدمير والافناء ؟

لست متشائماً ، واعتقد ان استخدام الطاقة الذرية في الاغراض السلمية يشفي المجتمع من اوصابه المالية والاقتصادية ، كما اعتقد ان الانسان سيفتح عينيه ويدرك اخيراً مع مالينوفسكي ان « ثمة دعاوة شريرة تحاول ان تدخل في روعنا كون الحرب شكلاً من اشكال الصراع في سبيل العيش ، وكونها وليدة نزوة عدوانية اصيلة في البشر ، وشراً لا بد منه . لقد كانت الحرب شكلاً من اشكال تنازع البقاء في العصور السالفة ، اما اليوم فهي تعبير ابله لسيطرة الآلة على الانسان » .

واستخدام الطاقة الذرية في الاغراض السلمية ليس حلماً . (المعرّب : وضع الجنرال فولر كتابه العام ١٩٤٨ وقبل استخدام الطاقة الذرية في الاغراض السلمية) . ويبدو منذ الآن

ان العلماء في سبيلهم الى اكتشاف طريقة تجعـــل من الذرة اداة نفع الى جانب كونها اداة تدمير وفتك [1] . ولن يمضي طويل وقت حتى يقدم العلم الى البشرية قوة محركة لا حصر لهـــا [2] ، وحتى الحجر الفلسفي الذي طال البحث عنه .

ومتى توافرت الطاقة للامم كافة فاية قيمـــة تبقى للذهب والقروض والديون والاسواق الخارجية والتعرفات الجمركية والحصار الاقتصادي والبطالة ، الخ ... ما دامت كل امة تحصل بيسر وسهولة على ما تحتاج اليه ؟ والحرب مـــاذا يبقى لها ، بل ماذا يبقى منها ؟

قلتُ في فصل سابق ان السلاح الناري غيّر مجرى التـاريخ بجعله الحرب برازاً بين خصمين يسعى كلٌ منهما لاقامة سلم يعود عليه باكبر نفع ممكن . وقد كانت الحروب في القرون الوسطى صراعاً بين الخير والشر . اما الحرب القائمـة على تفكيك الذرة فهي بمفهومها الحالي نضالٌ تقني او برازٌ بين مختبرين هدفهما كليهما الابادة ؛ والحرب الذرية تضع القوة المـــدمرة فوق السياسة واعتباراتها وغاياتها [3] .

١ هذا مـــا اكده منذ العام ١٩٤٥ مستر سمسون وزير الحربية الاميركية .

٢ تنبأت التايمس في آب ١٩٤٥ بقرب استعمال الطاقة الذرية كقوة محركة .

٣ قالت « الايكونومست » الصـــادرة في ١١ آب ١٩٤٥ : =

يبدو ان «بلوخ»، الذي استشهدتُ بارائه غير مرة في فصول سابقة، لم يعدُ الحقيقة حين قال ان اللجوء الى الحرب لم يبقَ صفقة رابحة في ظل الحضارة الصناعية . ولكن هل يعني ذلك توقف نمو الاسلحة وتطورها ، ومن ثم زوال العامل التكتي الثابت ، اي السعي الى الحد من اذى السلاح الهجومي ؟

ان الجواب يطالعنا به المستقبل وحده ، ولكني استبعد زوال العامل التكتي الثابت للاسباب الآتية :

١ ـ كان ظهور بارود المدفعية في طليعة العوامل التي قضت على بواعث الحرب الدينية . وعندي ان استعمال الطاقة الذرية في الاغراض السلمية من شأنه الحد من بواعث الحرب الاقتصادية ، واقامة اسس الدولة التقنية او العلمية التي يغدو التدمير المادي بالنسبة اليها تدبيراً لا فائدة منه ولا نفع ، كما كان تدمير المعابد بالنسبة الى الدولة الزمنية عندما كانت حروبها تهدف الى القضاء على الاديان .

٢ ـ لم يكن للبارود سوى قيمة متفجرة ، اما الطاقة الذرية فانها تصلح وسيلة لتحريك وسائط النقل الى جانب كونها سلاحاً

= « شاءت سخرية القدر ان تنشر اتفاقات بوتسدام بعد مرور ثماني واربعين ساعة على القاء القنبلة الذرية الاولى . فاي قيمة تبقى للنصر بعد زوال المدن بمن فيها وما فيها ؟ وماذا يفيد الروس غداً ان هم احتلوا برلين او باريس بعد قصفها بالقنابل الذرية ؟ واي قيمة تبقى لجعل حدود السلامة بالنسبة الى فرنسا على الرين او الاودر بعد ظهور السلاح الذري ؟ »

مدمراً .

٣ ـ يمكن استعمال الطاقة الذرية كموجه للصواريخ وسائر المقذوفات ، ولكن يمكن استعمالها كذلك في تسجيل دنو هذه المقذوفات والعمل على تغيير اتجاهها وابعادها عن الهدف .

هذه الاحتمالات الثلاثة تشجع على القول ببقاء العامل التكتي الثابت . فلندرسها بشيء من التفصيل .

اذا قسنا القنبلة الذرية بالقذائف التقليدية المعروفة ، وجدنا انها تختلف عن هذه اختلافاً بيّناً : فللقنبلة الذرية قوة مدمرة لا يمكن الحد منها بوسائل الحماية المباشرة المعروفة في ايامنا . فالدروع لا تستطيع شيئاً ، ومثلها الخنادق . اما انشاء الاماكن الآهلة تحت الارض فمشروع خيالي، لانه يستحيل تحقيقه على نطاق واسع . اما وسائل الحماية غير المباشرة كارغام المقذوف الذري على تبديل اتجاهه او منعه من الوصول الى الهدف، فانها وسائل غير كافية ، لاننا لو منعنا ٩٩ مقذوفاً ذرياً من اصل ١٠٠ تحاول بلوغ لندن، فالمقذوف الذي لم نستطع منعه يكفي لتدمير نصف العاصمة البريطانية على الاقل . اما اذا استطاعت الطائرات القاء مائة قنبلة عادية على لندن وانفجرت احداها فقط ، فان الاضرار التي تسببها تكون عادية او غير ذات بال .

وما دامت وسائل الدفاع غير كافية فالحكمة تقضي بالسعي الى ايجاد وسائل هجومية نتفادى معها التدمير الذي يجعل الحرب

غير ذات نفع . وهذا لا يكون بصنع قنابل ذرية اشد فتكا واعظم تأثيراً ، بل يكون بالتحركات التي تتيح سرعة احتلال الهدف ، لا سرعة تدميره . ذلك ان ما يفتقر اليه المتحاربون في ايامنا هو امكانية احتلال الهدف فور انتهاء عملية قصفه او امكانية احتلاله دون حاجة الى قصفه . والمقصود بالاحتلال السريع هو السيطرة على الهدف في بضع ساعات او بضعة ايام ، وليس بعد اشهر او سنوات . والطيران بوضعه الراهن غير مؤهل لاداء هذا الدور ، والطائرة التي يمكنها اداءه هي الطائرة الصاروخ المندفعة بقوة الطاقة الذرية .

وظهور هذه الطائرة الصاروخ يعيد الى الحرب شكلها الطبيعي : يغدو الاحتلال ، كما كان في السابق ، الغاية الاستراتيجية ، ويعود القضاء على مقاومة العدو وسيلة لبلوغ هذه الغاية . ولا يكون القضاء على مقاومة العدو بالقنابل الذرية ، بل باسلحة مختلفة تتيح للطائرات الصواريخ اداء مهمتها التكتية . وفي حرب كهذه تتصارع ارادتان ، ويكون صراعها قصير الامد ، وتترتب عليه اضرار طفيفة بحيث يفيد المنتصر من انتصاره . ولو ان المدن الالمانية سقطت بايدي الحلفاء سليمة لضمنت اتفاقات بوتسدام لهؤلاء فوائد جمة . اما وقد خرّبوا المدن الالمانية قبل احتلالها ، فقد خرجوا من الحرب متعبين ، ضعفاء ، يعانون متاعب اقتصادية وسياسية كالمتاعب التي تعانيها المانيا نفسها .

فمن تحصيل الحاصل القول ان حربا لا تفيد واجبها هي حربٌ بلهاء . وهذا ما جعل الروح العسكري على مدى التاريخ ظاهرة خطرة كأداة حكم . ذلك ان المحارب يجد اللذة كل اللذة في الدمار ، لان التدمير عمل سهل . وفي عصرنا يأتي الصناعي بعد المحارب بنظرته الى العمران والخراب ، فهو يعتبر التعمير غاية بحد ذاته .

وبديهي ان جعل التدمير غاية والتعمير غاية نظرتان تجافيان المنطق . ففي الحرب كما في السلم ليس الدمار ولا العمران هما العامل الرئيس، وانما العامل الرئيس هو الفائدة التي يجنيها المجتمع . فاذا كانت الفائدة في بناء ناطحة سحاب من مائة دور ، فلا يبقى مبرر لبناء ناطحة سحاب من الف دور . واذا كان مفيداً او ضرورياً صنع قنبلة تدك قلعة ، فليس مفيداً ولا ضرورياً صنع قنبلة تدك بلاداً او مدينة، لان الحرب ، كما تندلع نيرانها اليوم، نزاع بين احياء ، ولا يمكن ان يضع الاموات حداً لها .

في كل شيء نقع على طريقٍ وسط يدعى « سلامة الرأي » ، فبدون سلامة الرأي يتيه الانسان في ادغال الجنون، وهي ادغال تسرح فيها مسوخ من كل حجم ونوع : حيوانية ، وروحية ، وسياسية، ومادية. وهذه الظاهرة تنذر دائماً بقرب زوال نوع او حضارة . وسر الحرب ليس مسألة ضخامة وقوة بدنية او كما قال «لوكريس» منذ الفي عام: « كل كائن حي مدين ببقاء نوعه للمهارة او للشجاعة او للسرعة » .

وفي عصر الطاقة الذرية الذي بزغ فجره ، يبدو جلياً ان السيطرة ستكون لثالث هذه العوامل : السرعة ؛ فاذا سلمنا بهذا المبدإ ، جاز لنا القول ان العالم يواجه مسألتين في حقل التسلح :

١ ـ تحويل الطاقة الذرية للاغراض السلمية .

٢ ـ صنع اسلحة جديدة تحركها الطاقة الذرية .

فالحرب نفسها لا يمكن الغاؤها ، ولكن يظل ممكناً اخضاع فريق لمشيئة فريق آخر باقل الاضرار بحيث يكون التدمير وسيلة لا غاية [1] . ولا ننسى قول توماس فولر : « عندما تنهار آمالنا فلنعمل على توطيد فضيلة الصبر فينا » ، لاننا اذا انعمنا النظر في الاشياء نجد في صميم الشر نفسه بذور الخير .

١ تبدو هذه الغاية نوعاً من المثالية . ولكن اذا عدنا الى التاريخ نجد ان المقتتلين في القرون الوسطى لم تكن غايتهم الفتك بل الحصول على فدية ، على ربح اقتصادي . وفي العهود المظلمة كان عباد الاوثان يغيرون على اعدائهم ليأسروا عدداً منهم ويقدموا الاسرى قرابين للآلهة ؛ وكان هذا العمل ربحاً اقتصادياً ، لان ارضاء الآلهة يكفل نجاح المواسم الزراعية .

الفهرس